وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



القرية

رواية

تأليف: إيفان ألكسييفيتش بونين

ترجمة: د. فؤاد مرعي

روايات مختارة ١

القريـة

تصميم الغلاف

خالد يزبك

القريـــة

رواية

تأليف: إيفان ألكسييفيتش بونين

ترجمة: د. فـؤاد مرعـي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١

العنوان الأصلي للكتاب :

Иван Алексеевич

Бунин Деревня

القرية / تأليف إيفان ألكسييفيتش بونين؛ ترجمة فؤاد مرعي.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.

(روايات مختارة؛ ١)

١- ٨٩١,٧٣ ب و ن ق ٢- العنوان

٣- بونين ٤- مرعي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

«١»

بين يدي « القرية »

حين هممت بترجمة هذا النص – القرية، للكاتب بونين - كنت أعرف سلفاً أنه من إبداع عملاق من أساتذة فن الكلمة الروس، وأنه يتناول موضوعاً من الموضوعات الاستراتيجية في الأدب الروسي بدءاً من قصة بوشكين الطويلة "تاريخ قرية غوريوخين" في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، حتى ثورة أكتوبر، وأعني بذلك حياة الفلاحين البائسة وانهيار نظام القنانة الإقطاعي والانقلاب الصناعي – الرأسمالي الذي استغرق كل القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في روسيا القيصرية. وأعرف أن بونين يتناول ذلك الموضوع في مرحلة موّارة بالأحداث والخيبات، فقد شهدت هذه المرحلة الثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥ وإخفاقها في تحقيق آمال الناس، وشهدت هزيمة الجيش الروسي المذهلة في الحرب الروسية – اليابانية (١٩٠٥-١٩٠٧) وتنامي مشاعر اليأس والغضب وحالات التمرد والعصيان في أوساط فقراء الريف والمدن الذين سحقهم الفقر والظلم والبطالة، تلك المشاعر والحالات التي تجلت بأوضح

صورها في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) فقادت روسيا مباشرة إلى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧.

وكنت أعرف أيضاً أن هذا النص تسجيلي، وأن كاتبه خبير واسع الاطلاع على الحياة الريفية في جنوب روسيا بجميع مظاهرها الطبيعية والبشرية، وأنه، أي الكاتب، مولع بتصوير كل تلك المظاهر حتى أدق التفاصيل، بأسلوب قريب من المدرسة الواقعية الطبيعية في الأدب، يبتعد بوضوح عن أساليب المدارس الأدبية الشكلانية والعدمية والمستقبلية وغيرها من المدارس التي تنامت بسرعة وكثرة نباتات الفطر في تلك الفترة بالذات.

كنت أعرف ذلك كلّه معرفة بعثت في نفسي القلق أثناء نقل هذا النص شكلاً ومضموناً وروحاً وقيماً جمالية إلى القارئ العربي. ومع ترجمتي الصفحات الأولى من النص، تلقيت تشجيع معيدة شابة في قسم اللغة العربية في جامعة حلب هي المترجمة والقاصة علياء الداية. فقد قرأت تلك الصفحات، وأبدت حماستها لها، وتعهدت بمتابعة قراءة المخطوط حتى نهايته، فكانت قارئتي الأولى، وكان لوفائها بوعدها وملاحظاتها فضل كبير في إنجاز هذه الترجمة.

ثم تكرم والدها الأستاذ الدكتور فايز الداية، فقرأ المخطوط الناجز وأبدى، مشكوراً، ملاحظات أخذت بها، ولاسيّما في بعض

الصفحات التي تطلبت التوفيق بين نظام الجملة الروسية، والتعبير بروح اللغة العربية في أثناء العمل.

غير أن القارئ سيجد في صفحات متفرقة من النص انزياحاً في بعض التعابير اللغوية سواء من حيث الإملاء والتركيب النحوي والصرفي، أو العامي والفصيح، ولن يخفى على القارئ أن ذلك أمرٌ متعمّد حاولت من خلاله إيجاد الصيغ العربية المكافئة لما تضمّنه النص الروسي من انزياح في الصياغة اللغوية الروسية أملته على الكاتب الضرورة الفنية، ولاسيما في الحوار والمونولوج والرسائل.

إن ما تقدم يشير إلى المعاناة التي كابدتها في ترجمة هذا النص، وهي معاناة تحمّلتها بمتعة وعن طيب خاطر. فقصة بونين الطويلة "القرية" تستحق ذلك وأكثر. إنها تقدّم صورة فنية رائعة لحياة القرية الروسية في مرحلة من أهم مراحل تطور الأدب الروسي الحديث.

د. فؤاد المرعي

بونـين

ولد إيفان ألكسييفيتش بونين في ١٠ (٢٢)/١٠/١٨٧٠ في أسرة من النبلاء الذين حلّ بهم الفقر في فورونيج، وقضى طفولته في قرية بوتيركي في ضواحي يلتس في مقاطعة أرلوف، فارتبطت انطباعاته في طفولته بالحقل وبيوت الفلاحين.

تلقى بونين قبل التحاقه بالمدرسة تعليماً منزلياً، وفي الحادية عشرة من عمره انتسب إلى المدرسة الرسمية في يلتس. وبدأ يكتب الشعر وهو في سن المراهقة مقلّداً، باعترافه الشخصي، ليرمانتوف وبوشكين. وطبعت أشعاره لأول مرة في عام ١٨٨٧ في مجلة ("رودينا" – الوطن). ومنذ عام ١٨٨٨ بدأ ينشر قصائده بانتظام في كتيبات ("تيديبيلا" – الأسبوع).

اضطر بونين، بسبب تدهور الحالة المادية للأسرة، إلى ترك القرية في عام ١٨٨٩، والانتقال إلى خاركوف، ثم، بعد عامين، إلى بولتافا بحثاً عن الرزق، فعمل موظفاً في مكتبة، وإحصائياً، ومدققاً لغوياً، وكان، في الوقت نفسه، ينشر أشعاره في الصحف المحلية.

إن بمقدور المرء أن يستشف موتيفات أشعار بونين المبكرة من خلال ما كتبه في سيرته الذاتية حيث قال: "أذكر أن كل شيء بدا لي في تلك الفترة ساحر الجمال؛ الناس، والطبيعة، وبيت جدتي العتيق ذو النوافذ الملونة، ومزارع الجيران، والصيد، والكتب، التي كان مجرّد النظر إليها يبعث فيّ لذة حسية، وكل لون، وكل رائحة..." لقد كانت نشوة الابتهاج بالوجود، الباعث الأساس لإبداع بونين الشعري في هذه المرحلة. أضف إلى ذلك أن بونين تأثر في ثمانينات القرن التاسع عشر بغنائية أشعار نادسن، فقد ظهر تأثير نادسن في قصيدة بونين "القروي الفقير" (١٨٨٧).

كان بونين يسعى إلى التصوير الواقعي الدقيق في أشعاره، ولكن ذلك لم يمنعه من استخدام أساليب المجاز في كثير من الأحيان، ففي قصيدته "الخريف" (١٩٠٠) التي أهداها إلى غوركي، صوّر الخريف أرملة تدخل إلى كوخها، من دون أن يخلّ هذا التشبيه بدقة التفاصيل، التي كانت، بالنسبة إلى الشاعر، قيمة مستقلة بحد ذاتها. وقد قدّرت أكاديمية العلوم الروسية هذه القصيدة فمنحتها جائزة بوشكين الأدبية.

ولاقت أشعار بونين على صفحات مجلة ("مير بوجييه" – دنيا اللـــه)، الناطقة آنذاك بلسان الماركسيين الموالين، تقويماً إيجابياً، فكتب باتوشكوف في عدد المجلة العاشر لعام ١٩٠٣، في مقالته "توجهات جديدة في الشعر الروسي" يقول: "بعد شعراء الغضب والحزن، بعد أغاني الإحباط وخيبة الأمل، يظهر الآن منشدو بهجة الوجود".

تخلّص بونين بسرعة وبشكل حاسم من تأثير نادسن وتقاليد الشعبوية الجديدة في الشعر، ولكنه انخرط في علاقة معقدة مع شعراء الديكادانس في مطلع القرن العشرين. فشِعر بونين الذي كان يناقض تقاليد شعر الديكادانس من حيث تأكيده لقيم الحياة وسعيه للانخراط في العالم الواقعي، بدا في عدد من النقاط متلاقياً مع تقاليد ذلك الشعر، ولاسيما في التزام مبدأ "الفن للفن" الداعي إلى الابتعاد عن القضايا الاجتماعية و"هموم الواقع". ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن هذه الازدواجية في الموقف أضعفت ارتباطه بالديكادانس وجعلته قصير الأمد، فحين أصدرت في عام ١٩٠١ دار نشر ("سكاربيون" – العقرب) مجموعته الشعرية الأولى "الخريف" التي تصدرتها قصيدته "الخريف" مانحة المجموعة اسمها، رأى فيه الديكادانسيون شاعراً "تقليدياً"، فهو لم يكن يشاطرهم سعيهم إلى "عوالم أخرى" وما يستتبعه ذلك السعي من بحث وتجريب شكلاني. وقد حمل استرشاد بونين بالنظام الفني الصارم الدقيق لتقاليد الشعرية الكلاسيكية الروسية معنى إيجابياً في عصر كانت فيه هذه التقاليد تتعرض للتشهير والتشويه من الديكادانسيين.

شرع بونين منذ بداية تسعينيات القرن التاسع عشر يكتب، إلى جانب الشعر، قصصاً يعالج فيها موضوعات جديدة بالنسبة إليه – حيث دخلت في دائرة اهتمامه القضايا الاجتماعية. صحيح، أن بونين التزم في النثر أيضاً توجهاً غنائياً – تأملياً قريباً جداً من قصيدة النثر، من ذلك، مثلاً، قصة "المنحدر" (١٨٩٢) التي يختلط

فيها وصف الطبيعة بتأملات بطل القصة الهائم في الجبال، سائراً نحو المنحدر. ولكن قصص بونين كانت تخرج، في العادة، عن أطر التأملات النفسية – الذاتية، على الرغم من أن تلك التأملات كانت تشكل العمود الفقري للسرد في تلك القصص، فنحن نجد فيها صور "الإنسان الصغير" الذي سحقته الحياة وويلاتها ("تانكا"، و"أخبار من الوطن" وغيرها...). وفيها يعبّر بونين عن موقفه السلبي الحادّ من الرأسمالية التي رأى أنّها مدمّرة مصائر البشر، ومصدر كل الشرور. وفي مواجهة هذا السيد الجديد للعالم الذي حمل معه انهيار البطريركية، يتوصل بونين إلى قناعة بضرورة توحيد طبقتي المجتمع – الإقطاعيين النبلاء، والفلاحين – اللتين تقاومان الوحش الرأسمالي بالقدر نفسه (بحسب رأيه). وقد انعكس تصور بونين عن وحدة "نمط الحياة الروسية القديم" في قصتيه "رودا" (١٩٠١) و"الطريق الجديدة" (١٩٠١) اللتين حملتا طابعاً فلسفياً واضحاً. غير أن الكاتب أظهر، على الرغم من كل سعيه لتمجيد ماضي طبقة النبلاء السائرة نحو الزوال، قدرة على تصوير حياة القرية المعاصرة له، حيث تجلّت ديمقراطيته في دفاعه عن الناس المنتمين للقاع الاجتماعي، وتصويره الناقد لمجتمع النبلاء الأرستقراطي. وقد حاول بونين أن يسبغ على مزاجه في تلك المرحلة صبغة التولستوية التي تأثر بها إلى درجة معلومة، وهذا ما تجلى في

تصويره حامل تعاليم تولستوي تصويراً متعاطفاً في قصته "في البيت الريفي" (١٨٩٥). إلا أن التأثير الأشد والأطول زمنياً في إبداع بونين، كان تأثير الاتحاد الديمقراطي لكتاب "سريدا" ودار نشر غوركي ("زنانية" – المعرفة) التي نشرت أعماله.

عمل بونين بين عامي ١٩٠٤ – ١٩٠٥ في مجلة ("برافدا" – الحقيقة) رئيساً للقسم الأدبي في المجلة، الذي كان كبار الاشتراكيين الديمقراطيين يسهمون في تحريره إسهاماً أساسياً. إن مجرد عمل بونين في مجلة يسارية ذات منهج اجتماعي صريح، يشهد على اهتمام الكاتب بالقضايا الاجتماعية. ولكن إدارة بونين المعتدلة للقسم الأدبي أثرت فيه تأثيراً واضحاً أدى إلى نشوء خلاف بينه وبين قسم من الاشتراكيين الديمقراطيين في هيئة تحريره، وقاده، في النهاية، إلى ترك المجلة كلها.

وفي عام ١٩٠٥، في ذروة نشاط الحركة الثورية، يقوم بونين برحلة إلى خارج البلاد، وفي هذه الفترة لا نجد في إبداع بونين أي صدى مباشر لأحداث الثورة المحتدمة في روسيا. لكن هذه الأحداث تجد صدى غير مباشر في قصيدته "جوردانو برونو" (١٩٠٦) التي يجسد فيها صورة مناضل باسل ضد الطغيان، وفي قصته "أرض السواد" (١٩٠٤) وغيرها، حيث عبّر الكاتب عن تعاطفه مع الفلاحين الثائرين، واحتجاجه على القمع الدموي. ومع ذلك ظل بونين يؤكد في أعماله وحدة مصائر الفلاحين والإقطاعيين النبلاء الذين تدهورت أحوالهم تماماً بعد عام ١٩٠٥، ويرى أن أحفاد من كانوا "سيّاداً" و"آمرين" يعانون معاناة لا تقل إيلاماً عن معاناة "عبيدهم".

ظهر تأثير غوركي في أعمال بونين الإبداعية بعد إخفاق الثورة الروسية الأولى، فكان من النتائج المباشرة لذلك عند بونين تفكيره في كتابة قصة طويلة عن حياة القرية الروسية المعاصرة له. وحين ظهرت قصته الطويلة "القرية" (١٩١٠) كتب لغوركي: "أنت لا تستطيعِ أن تتصور كم كانت كلماتك غالية عندي، وأيَّ ماء حيٍّ سكبتَ فيّ".

لقد كان اللون الأدبي الذي اختاره بونين – القصة الطويلة التسجيلية – يتناسب ومهمة التحليل التاريخي في الرواية الروسية. فإذا كان ما يثير اهتمام بونين في العديد من قصصه المبكرة عن حياة القرية، هو، قبل كل شيء، المصائر التاريخية لطبقة الإقطاعيين النبلاء، فإن الحديث في قصته هذه، دار حول مصير القرويين، وغابت عنه صورة السيد الإقطاعي المفكر، التي كانت دائمة الوجود في قصصه السابقة. ولا يجد المرء في هذه القصة تلك الاستطرادات التي كان بونين يقحمها في السرد "على لسان الكاتب" كعنصر مساوٍ في الأهمية لبقية عناصر بناء قصته، فالكاتب يلجأ هنا إلى وسائل أخرى للتعبير عن موقفه من خلال العلاقة الدياليكتيكية المعقدة بين شخوصها.

إن الذي يحتل في قصة بونين «القرية» مكان الصدارة هو حياة القرية نفسها، أما أبطالها الذين يبدون مترفعين عن البيئة الفلاحية فليسوا، في الحقيقة، سوى مراقبين ومعلقين على الحياة في تلك البيئة. وما يحدد تسلسل الأحداث في القصة ليس مصير

بطلها «الرئيسي»،- ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن القصة تخلو من شخصية يمكن أن نطلق عليها هذا الوصف، - بل إن ما يحدده هو تطور الأحداث وبناء القصة، اللذين يفرضهما المنطق الداخلي لحياة القرية نفسها. وهذا بحد ذاته يتناقض تناقضاً واضحاً مع التقاليد الأدبية التي كانت سائدة آنذاك، وهو ما جعل عدداً من النقاد الذين تناولوها بالتحليل انطلاقاً من تلك التقاليد، يصفونها بـــ «الجفاف». لقد ظهر في قصة «القرية» سعي الكاتب إلى أن يخلق عند القارئ إحساساً بموضوعية الصور المجسدة فيها، وإعطاء الوقائع فرصة التحدث عن نفسها بنفسها، أما دور المفسّر والمراقب فتركه بونين لشخصيات من البيئة، بعيدة في أفكارها وعواطفها عن أفكاره وعواطفه. والمثال اللافت للنظر في هذا المجال هو تيخون إيليتش كراسوف (الكولاك) الذي استطاع الاستيلاء على مزرعة نبيل مفلس، وكان النقيض الصريح لبيئة الإقطاعيين – النبلاء التي مجّدها بونين ولكنه، مع ذلك، عبّر عن بعض أفكار الكاتب ومواقفه.

إن هذا التحوّل في إبداع بونين يشير إلى تخليه بعد تجربة عام ١٩٠٥ عن أوهامه حول عودة "الزمن الطيب"، ولجوئه إلى تصوير حياة الفلاحين تصويراً واقعياً صادقاً، فكثير مما كتبه عن حياتهم في تلك المرحلة من تاريخ روسيا. كان صحيحاً تاريخياً، ونتيجة مباشرة لسياسة الاستبداد القيصري. لقد رأى بونين في قصته «القرية» أن الفلاح الذي كان موجوداً قبل

عشرات السنين، ظل على حاله، وأن الثورة مرّت بالقرب منه دون أن تغيّر حياته. وقد وجدت هذه الفكرة تجسيدها في مجموعة من قصصه «الفلاحية» (١٩١١-١٩١٣) التي اختار شعاراً لها عبارة إيفان أوكساكوف «إن روسيا القديمة لم تمت بعد». فهو في بحثه عن بطل «إيجابي» يتوجه في هذه القصص نحو تجسيد تلك الطبائع التي ما زالت تحتفظ ببطريركية الماضي، فيصور الفلاحين «المستسلمين للقدر» الذين يربط بهم الحقيقة الفلاحية التي طواها الزمن، ففي قصة «زاخار فوروبيوف» (١٩١٢) يصور بونين بإعجاب فلاحاً عملاقاً، موفور الصحة، خارق القوة. ولكن هذا العملاق ذا الروح النبيلة، لا يجد مجالاً لاستخدام قدراته فيموت بسبب الإدمان على السكر ميتة لا معنى لها. وفي قصة «يوحنا البكّاء» (١٩١٣)، يقدّم أيضاً نموذجاً فلاحياً «استثنائياً»، متمرداً عفوياً ذا إرادة قوية جداً تجعله متميزاً تميزاً حاداً من الفلاحين «العاديين».

أما شعر بونين في هذه المرحلة فتكثر فيه الموضوعات الفولكلورية. ونحن نستطيع أن نشير في هذا المجال إلى قصائده: «العروس»، و«أغنية»، و«زوجة الأب»، كنماذج من إبداعه ذي الصبغة الفولكلورية. غير أن الشاعر قدّم فيما بعد نماذج أخرى مستقاة من الفولكلور، جسّد فيها صور المحاربين والأمراء والفرسان العمالقة الروس القدماء («سفيتاغور» و«إيليا»، و«الأمير فسيسلاف») وصور قدّيسي روسيا القديمة («القديس

بروكوبيه»، و«سفياتيتيل»). وتنسجم قصته «أغلايا» مع هذا التوجه من حيث الموضوع.

في أعوام الحرب الإمبريالية جسّد بونين في أعماله موضوعات استقاها من رحلاته الحديثة العهد إلى بلدان الشرق، فكتب قصصاً عن الحب ("الابن"، و"قواعد الحب"، و"الأنفاس الرقيقة" وغيرها). ورسم في أعماله صوراً لممثلي العالم الرأسمالي، ففي قصته "الأخوة" (١٩١٥) أبرز بصدق، ومن دون مبالغة، سيطرة الإنكليز على جزيرة سيلان (سيريلانكا)، واستغلالهم الوحشي، الذي لا يعرف الرحمة، لسكان البلاد، فجاءت القصة إدانة حادة اللهجة للاستعمار.

يعدّ الدارسون قصة "سيد من سان فرانسيسكو" (١٩١٥) قمة إبداعات بونين النثرية. وأن ما يلفت النظر في هذه القصة هو غياب اسم بطلها الرئيسي، وكأن الكاتب أراد بذلك أن يؤكد صفة ذلك البطل كنموذج يمثل تلك الفئة الطفيلية العاطلة عن العمل من ركاب "الأتلانتيدا" ونزلاء الفنادق المحيطين بالسيد. لقد استطاع بونين أن يصور بامتياز كيف أن هذه النخبة المتربعة على قمة الهرم الاجتماعي الرأسمالي المعاصر تعيش حياة يسود فيها الفراغ ويقترن الرفاه الظاهري بالزيف والرياء. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يضع في رأس قصته العبارة المأخوذة من "العهد الجديد": "الويل لك يا بابل، أيتها المدينة القديمة"، وأن يؤكد في نهايتها الحتمية العميقة لانهيار الرأسمالية. إن بونين يكشف بذلك الصفة النموذجية لشخصية بطل قصته الذي قضى حياته كلها في جمع الثروة.

لقد أظهر بونين نفاذ بصيرة وعمقاً في تصويره للرأسمالية في الغرب، ولكنه لم يكن قادراً على فهم ما يجري في وطنه روسيا، أو قبوله، فهاجر إلى فرنسا في عام ١٩٢٠. وتشهد معظم أعماله التي كتبها في المنفى على أنه ظل في إبداعه متمسكاً بالتقاليد الواقعية للأدب الروسي. فقد قدّمت القصص التي كتبها في هذه المرحلة ماضي الحياة في روسيا، وجسّدت بفنية عالية الأحداث والبيئة الروحية والشخصيات النموذجية في سنوات ما قبل الثورة، هذا ما نجده في قصص "الغراب" و"ضربة شمس" و"الحدائق المعتمة"، و"في الحديقة" وغيرها. كما تميزت بالفنية العالية أيضاً قصتاه الطويلتان "حياة أرسينييف"، و"غرام ميتين". تجدر الإشارة هنا إلى أن لقصة بونين "حياة أرسينييف" أهمية فنية ومعرفية كبيرة لأنها تضمنت وصفاً صادقاً لسنوات شبابه وخطواته الأولى في دروب الصحافة، ولقاءاته مع أناس من عامة الشعب، وصور حياة المدينة الجنوبية الروسية. ولكننا نجد في هذه القصة، كما في أعماله الأخرى المكتوبة في المنفى، سعي الكاتب إلى رسم صور وردية لظواهر الحياة الروسية القديمة التي كان من قبل يتخذ تجاهها موقفاً انتقادياً حاداً.

تتضمن قصص الأعوام الأخيرة من حياة بونين صوراً ساطعة من الحياة، ونماذج من التحليل النفسي العميق للطبائع الإنسانية، ويظهر فيها، في الوقت نفسه، ميل بونين إلى تقديم موضوعات وأحداث بوليسية معقدة تكشف الجوانب المظلمة في النفس الإنسانية. فقصته "قصة مخيفة" تنتهي بقوله: "ومع ذلك، فإن أشد ما يخيف على الأرض – الإنسان، روح الإنسان".

يتبين مما تقدم، أن في إبداع بونين بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، اتجاهين متداخلين: اتجاه واقعي يتغذى من انطباعات الماضي الغنية، واتجاه ذاتي محافظ سببه اغتراب الكاتب وابتعاده المدمّر عن الوطن.

لا بد من الإشارة في الختام إلى جزء مهم من تركة بونين الأدبية هو ترجمته الشعرية العالية المستوى فنياً لعدد من أعمال كبار الشعراء ومنها: "أغنية عن غايافاتا" للونغفيللو (١٨٩٦)، وقصائد بايرون "مانفريد" (١٩٠٤)، و"قايين" (١٩٠٥)، و"الأرض والسماء" (١٩٠٩) وغيرها.

حصل بونين على جائزة نوبل عام ١٩٣٣، عن روايته "حياة أرسينييف".

توفي بونين في باريس في ٨ – ١١ – ١٩٥٣

استحدثت روسيا الاتحادية في شهر أيلول عام ٢٠٠٤ جائزة بونين الأدبية تكريماً لذكراه.

عن الدراسات الروسية

بتصرف

د. فؤاد المرعي

إيفان ألكسييفيتش بونين

القرية

I

الجدّ الأكبر لعائلة كراسوف، الذي كان الخدم في بيت الإقطاعي دورنوفو يلقّبونه بالغجري، مزّقته كلاب صيد الإقطاعي. فالغجري انتزع منه، من سيّده، عشيقته، فأمر السيد باقتياده إلى الحقول خارج دورنوفكا ووضعِه فوق إحدى التلال. أما هو فمضى على جواده إلى هناك تصحبه مجموعة من كلابه وصاح: "هاتوه!" فاندفع الغجري، القابع مذهولاً فوق التلة، يركض هارباً. ولكن الركض أمام كلاب الصيد أمر غير جائز.

أما الجد المباشر لعائلة كراسوف فحصل على وثيقة العتق من القنانة، ورحل وأسرته إلى المدينة حيث ذاع صيته سريعاً: صار لصاً شهيراً. استأجر لزوجته كوخاً في تشورنايا سلوبودا، أسكنها فيه تطرّز أشرطة الدانتيل للاتجار بها. أما هو فراح يصحبه أحد

الرعاع ويدعى بيلوكوبيتوف، يجولان في المقاطعة ويسرقان الكنائس. وحين ألقي القبض عليه تصرف على نحو جعل الناس في المنطقة كلها يعجبون به زمناً طويلاً: وقف كراقص يرتدي قفطاناً وينتعل حذاء عالياً من جلد الماعز، يرقّص عضلات ذراعيه وعينيه بوقاحة، ويعترف بأدب جمّ بكل أفعاله المخزية حتى بأصغرها شأناً:

ــ تماماً يا سيدي. بالضبط يا سيدي.

والد الأخوين كراسوف كان "مشكلجياً" وضيعاً. جال في المنطقة، عاش ردحاً من الزمن في موطنه دورنوفكا وفتح فيها دكاناً، لكنه أفلس، أدمن الشراب وعاد إلى المدينة ومات. كذلك خدم ولداه تيخون وكوزما أجيرين في بعض الدكاكين وعملا في البيع والشراء، كانا يجرّان عربة يتوسطها صندوق كبير ويناديان بصوت ممطوط:

ــ بضاعة يا نسوان! بضاعة يا نسوان!

كانت البضاعة: مرايا، وصابوناً، وخواتم، وخيطاناً، ومناديل، وإبر خياطة، وكعكاً. أما العربة، فكان فيها كل ما يحصلان عليه مقابل البضاعة: قطط ناحلة، بيض، خيش، خرَق...

ولكن، بعد بضع سنوات من التجوال، كاد الأخوان ذات يوم، أن يتذابحا فافترقا دفعاً للشرّ، فعمل كوزما راعياً للماشية، واستأجر تيخون داراً صغيرة على الطريق العام قرب محطة قطار فورغول، على بعد خمسة فراسخ تقريباً عن دورنوفكا،

وفتح فيها خمّارة ودكان "تهريب": "تجارة تجزئة لبيع الشاي والسكر والتبغ والسيجار وغير ذلك".

حين قارب تيخون الأربعين ظهرت بعض البقع الفضية في لحيته. ولكنه ظلّ جميلاً طويل القامة ورشيقاً كما كان: كان وجهه صارماً، أسمر، تشوبه حمرة، وكان عريض المنكبين جاف العود، متسلطاً وحاداً في حديثه، سريعاً ورشيقاً في حركاته. حاجباه فقط هما اللذان صارا يتحركان أكثر مما في الماضي وقد ازداد بريق عينيه حدّة.

كان يتابع الأحداث دون كلل ــ ويشتري من الإقطاعيين، في الأوقات الخريفية الصمّاء، حين تُجمع الأتاوات وتتوالى في القرية مزادات البيع، القمح في الحقل قبل الحصاد، ويستأجر الأرض بأسعار زهيدة... عاش زمناً طويلاً مع طباخة خرساء،ــ "ليس هذا سيئاً، فهي لن تثرثر في أي أمر!"ــ أنجبت منه طفلاً، لكنها انقلبت فوقه في نومها، خنقته وهي نائمة، تزوّج بعد ذلك من خادمة كهلة تعمل عند الأميرة العجوز شاخوفا، وحصل مقابل زواجه منها على بائنة، لاحق حفيد أسرة دورنوفا المفلسة حتى أهلكه، وكان هذا سيّداً صغيراً بديناً ولطيفاً أصابه الصلع وهو في الخامسة والعشرين، ولكنه كان ذا لحية كستنائية رائعة. أما الفلاحون فتأوهوا إعجاباً واعتزازاً حين استولى على أملاك أسرة دورنوفا: أليست دورنوفكا كلها تقريباً كآل كراسوف!

تأوهوا أيضاً متعجبين من قدرته على فعل كل ما يفعله دون أن يتمزق: يساوم، يشتري، يطوف على أملاكه كل يوم تقريباً، يراقب بعين كعين الصقر كل شبر من الأرض... كانوا يتأوهون ويقولون:

ــ إنه شديد القسوة! ولكنه ملاّك حقيقي!

وقد أقنعهم بذلك تيخون إيليتش نفسه، فكثيراً ما كان يقول:

ــ نعيش ــ لا نبدد ما نملك، إذا وقعتَ في يدنا ــ استولينا عليك. ولكن بالعدل. أنا، يا أخ، إنسان روسي. لا أريد ما تملك بالمجان، ولكن عليك أن تدرك: أنا لن أعطيك ما لديّ مقابل لا شيء! الدلال ممنوع، انتبه، أنا لن أدلّلك!

أما ناستاسيا بتروفنا (المتمايلة في مشتيها كالبطة وقد عقفت رأسي قدميها إلى الداخل ــ والمصفرّة المتورّمة من كثرة الحبل الذي ينتهي دائماً بولادة بنات ميّتات، ذات الشعر الخفيف الأشيب) فكانت تئن حين تسمعه:

ــ أوه، أنظر إليك وأتعجب من بساطتك! لمَ تتعب نفسك معه، مع هذا الغبي؟ أنت تعلّمه العقل والحكمة، أما هو فذاك آخر همّه. وَيْ، كيف يقفُ مباعداً بين قدميه ــ كأنه أمير من بخارى!

في الخريف، كان صرير العجلات يتردد كالأنين بالقرب من الخان الذي تطلّ إحدى خاصرتيه على الطريق العام، وتطل الأخرى على المحطة ومستودع الحبوب: كانت العربات المحملة بالقمح تتجه نحوه من الأعلى ومن الأسفل. وكان المزلاج يصرّ على مرّ الدقائق تارة على باب الخمارة، حيث كانت ناستاسيا

بتروفنا تقوم بخدمة الزبائن، وتارة على باب الدكّان،ـ المعتمة القذرة، التي تفوح منها بقوة رائحة الصابون، والسمك المملح، وتبغ الماخوركا، والكعك بالنعناع، وزيت الكاز. وعلى مرّ الدقائق كانت الأصوات تعلو في الخمارة:

ــ أو..و..خ، قوية هذه الفودكا التي عندك يا بتروفنا! لقد ألهبت جبيني، اللــه يمحقها محقْ!

ــ إنها تذوب كالسُكّر على الشفتين يا سيدي اللطيف!

ــ لعلّها ممزوجة عندك بالعُطُوس؟

ــ هاأنتذا تبدو غبياً!

أما في الدكان فالزحام كان أكبر:

ــ إيليتش! هل أجد عندك رطلاً من لحم الخنزير المملح؟

ــ لحم خنزير مملّح، أنا، يا أخ، تزوّدت في هذا العام، بفضل اللــه، بالكثير، الكثير، منه.

ــ وما سعره؟

ــ رخيص جداً!

ــ عندك قطران جيد يا معلّم؟

ــ عندي، أيها السيد اللطيف، قطران، لم يكن له مثيل في عرس جدك!

ــ كم سعره؟

كان فقدان الأمل بإنجاب أولاد، وإغلاق الخمارات، حدثين كبيرين في حياة تيخون إيليتش، فقد بدا عليه الهرم واضحاً حين أدرك دون أي شك أنه لن يكون أباً. في البداية كان يقول مازحاً:

ـــ لا، أبداً، سأنال ما أريد، ويقول لمعارفه: الرجل من دون أولاد ـــ ليس رجلاً. إنه أرض بور...

فيما بعد صار الخوف يهاجمه: ما السر في هذا ـــ واحدة تقتل الولد وهي نائمة، والثانية ـــ لا تلد غير أموات! لقد كانت فترة آخر حملٍ لنستاسيا بتروفنا فترة فائقة الصعوبة. كان تيخون إيليتش يتحسّر، ويثور الغضب في داخله؛ أما نستاسيا بتروفنا فتصلي في السرّ، وتبكي في السرّ، وتثير الشفقة حين تنسلّ بهدوء من الفراش ليلاً، على ضوء السراج، وفي ظنها أن زوجها نائم، وتشرع جاهدة في الركوع على ركبتيها، فتسقط على الأرض وهي تدمدم بصوت خافت، وتنظر بضراعة إلى الأيقونات. ثم تنهض من ركعتها وهي تعاني آلام الشيخوخة. كان تيخون إيليتش منذ طفولته يكره السراج وضوءه الكنسي المتراقص، كرهاً لم يجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسه: لقد رسخت في ذاكرته حتى آخر العمر تلك الليلة التشرينية حين كان السراج يضيء الغرفة الصغيرة ذات الجدران المائلة في تشورنايا سلوبودا، ـــ الضوء يوحي بالاستسلام والوداعة والحزن، ـــ وثمة ظلال قاتمة للحبال التي تحمل السراج، والمكان يسوده صمت القبور. وعلى الدكّة تحت صور القديسين، يتمدّد أبوه بلا حراك مغلقاً عينيه شامخاً بأنفه الحاد، وقد عقد يديه الشاحبتين على صدره، وبالقرب منه، خلف الطاقة المغطاة بخرقة حمراء، تجري طقوس الوداع، أغانٍ صاخبة حزينة

وولاويل وزعيق نشاز تطلقه الغارموشكا[1]...... السراج الآن يرسل ضوءاً مستمراً.

كان العمال الفلاديميريون[2] يُقدِّمون العلف للخيول في باحة الخان، وقد ظهر في المنزل "كتاب سحر جديد وسميك ومتنبئ يتنبأ بالمستقبل بحسب الأسئلة المطروحة عليه، وذلك إلى جانب أبسط وسائل التبصير: أوراق اللعب وحبات الفول والقهوة". كانت ناستاسيا بتروفنا تضع نظارتها على عينيها في الأماسي ثم تصنع كرة من الشمع وتشرع ترميها داخل دوائر كتاب السحر. أما تيخون إيليتش فينظر إليها خلسة بطرف عينه بين الفينة والأخرى. ولكن أجوبة الكتاب كلها كانت فظّة أو شريرة أو هراء بلا معنى.

تسأل ناستاسيا بتروفنا : "هل يحبني زوجي؟"

يجيب الكتاب:

ــ "يحبك، كما يحب الكلب العصا".

ــ "كم طفلاً سأنجب؟"

ــ "القدر حكم عليك بالموت، العشبة الضعيفة لا مكان لها في الحقل".

حينئذٍ يتدخل تيخون إيليتش ويقول:

ــ هاتي، سأرمي أنا... ويضمر:

---

1 ـ آلة موسيقية تشبه الأكورديون

2 ـ نسبة إلى مدينة فلاديمير

ــ "هل ستنشب خصومة بيني وبين المرأة التي في بالي؟" ولكنه يتلقى هو أيضاً جواباً هراء:

ــ "عُدَّ الأسنان التي في فمك".

ذات يوم أطلّ تيخون إيليتش على المطبخ الفارغ فرأى زوجته جالسة بالقرب من سرير الطفل الذي أنجبته الطباخة. وثمة صوص مبرقش يصوي ويطوف على حافة النافذة ينقر الزجاج محاولاً اصطياد الذباب، أما هي فكانت جالسة على الدكّة الخشبية تهز السرير وتغني بصوت راجف حزين أغنية قديمة للأطفال:

أين يرقد طفلي الصغير؟
أين السرير الذي ينام فيه؟
إنه في عشٍ عالٍ،
يرقد في سرير مزركش.
لا تأتوا لزيارتنا
لا تقرعوا بوابة العش!
لقد أغفى، استلقى لينام،
يغطّيه لحاف غامق اللون
مطرّز بقماش التفتا الملون

تَغيّر في هذه اللحظة وجه تيخون إيليتش على نحو جعل ناستاسيا بتروفنا لا تشعر بالاضطراب ولا بالخوف وهي تنظر إليه، فقط بكت، وتمخّطت ثم قالت بهدوء:

ـ خذني إلى أحد أصحاب الكرامات بحق المسيح...

وأخذها تيخون إيليتش إلى زادونسك. لكنه راح يفكّر وهو في الطريق: يجب أن يعاقبه الرب على كل حال لأنه بسبب انشغاله ومشاكله لم يكن يزور الكنيسة إلا عشية يوم النور. بل إن أفكاراً هرطقية تسللت إلى رأسه: قارن نفسه بآباء القديسين، الذين ظلوا أيضاً زمناً طويلاً بلا أولاد. لم تكن المقارنة تتم على ذكاء، ولكنه كان قد لاحظ منذ زمن بعيد أن في داخله شخصاً ما أكثر غباء منه. قبل أن يبدأ هذه الرحلة تلقى رسالة من مدينة آفون: «المحب الأكبر لله، فاعل الخير تيخون إيليتش! لك السلام والخلاص، مباركة السيدة العذراء، أنا أقيم في خدمة أمّ الرب الممجدة على جبل آفون المقدس! أسعدني أن سمعت عن أعمالكم الخيّرة وعن أنكم تقدّمون بمحبة المساعدات لبناء بيوت الله وصوامع الرهبان وتزيينها. لقد أوصل الزمن كوخي إلى حالة من التداعي...» وأرسل تيخون إيليتش لإصلاح ذلك الكوخ عشرة روبلات. إنه منذ زمن بعيد لم يعد يصدّق بانتفاج ساذج ادّعاء كهذا يزعم أن أخباره قد وصلت حقاً إلى جبل آفون نفسه، وهو يعرف جيداً أن الأكواخ المتداعية كثيرة جداً في آفون، - ومع ذلك أرسل الورقة النقدية الحمراء. ولكن، حتى هذا لم يُجْدِ نفعاً، فقد انتهى الحمل بألم حقيقي: صارت ناستاسيا بتروفنا، عشية إنجابها آخر طفل ميت، تنتفض في نومها وتئن وتصرخ بصوت حاد... عند إغفائها كان يتملكها في الحال، بحسب قولها، فرح وحشي غامض يصاحبه خوف لا يوصف:

كانت تارة ترى سيدة السماء تسير نحوها عبر الحقول ساطعة كلها بأشعة ذهبية، ويتناهى، متصاعداً إلى سمعها من مكان ما، غناء منسجم؛ وتارة يقفز من تحت سريرها شيطان صغير، لا يمكن تمييزه، لا يمكن تمييزه في الظلمة ولكنها كانت تراه بوضوح بعين بصيرتها، فيشرع ينفخ في الهارمونيكا[1] ألحاناً متقطعة، حماسية، رنانة! لقد كان من الأفضل لها ألاّ تنام في الفراش المحشو بالريش في هذا الجوّ الخانق، بل في الهواء الطلق تحت سقف المخازن. ولكن ناستاسيا بتروفنا كانت تخاف:

ــ قد تقترب الكلاب فتتشمّم رأسي...

ثمة فكرة ازدادت إلحاحاً في رأسه حين فقد الأمل في الإنجاب: "من أجل مَنْ كل هذا الشقاء اللعين؟" كان الاحتكار كالملح على الجرح. يداه صارتا راعشتين، وصار حاجباه يتراقصان بشكل مرضيّ، وصارت شَفَته تتحرف – لاسيما حين يلفظ عبارة: "حطّ في بالك" التي كانت لا تفارق لسانه، ولكنه ظلّ يتصابى كعادته – ينتعل حذاء عالياً أنيقاً مبطنا بالفرو، ويرتدي صدرية مطرّزة تحت سترة بصفين من الأزرار. غير أن الشيب ازداد انتشاراً في لحيته التي أصبحت أقل كثافة وازدادت العقابيل في خصلاتها...

ومما زاد الطين بلّة أن الصيف جاء حاراً وجافاً. ضاع تماماً محصول الحبوب... وبات يلذّ له أن يشكو الحال لزبائنه.

---

[1] ـ آلة موسيقية صغيرة يضعها العازف على فمه وينفخ فيها.

ــ سنوقف الشغل يا سيّد، سنوقف الشغل!ــ كان يقول ذلك بصوت مرح، مشدداً لفظه لكل مقطع في عبارته وهو يتحدث عن متاجرته بالخمر. ــ كيف لا، أيها السيّد! إنه الاحتكار! وزير المال نفسه اشتهى العمل في التجارة!

فتتأوه ناستاسيا بتروفنا وتقول له بصوت كالأنين: ــ أوخ، إن حالك تخيفني! سيجرجرك لسانك! سيحشرونك في مكان لا يعرف حتى الغراب طريقاً إليه!

فيقاطعها تيخون إيليتش رافعاً حاجبيه: لا تخافي يا سيدتي! لا، يا سيدتي! لا أحد يستطيع كمَّ الأفواه كلها! ثم يتوجه مجدداً إلى الزبون وقد ازداد لفظه للكلمات حدة:

ــ أما القمح يا سيدي – فيسرُّ القلب! حطّ ْ في بالك: إنه يسرّ الجميع! ليتك تراه ليلاً يا سيدي.

تقف على عتبة البيت، وتنظر إلى الحقل في ضوء القمر: الحقل أجرد كرأس أصلع! تخرج وتنظر: الحقل يلتمع!

قضى تيخون إيليتش في ذلك العام أربعة أيام في سجن بيتروفكا وازداد مزاجه سوءاً في سوق المدينة ــ بسبب الأفكار التي خطرت له، وبسبب الحر، والليالي التي قضاها من دون نوم. لقد كان في الماضي يذهب إلى السوق برغبة كبيرة. كانوا في المساء يشحّمون العربات ويفرشونها بالقش؛ أما تلك التي استقلها السيد نفسه مع حوذي عجوز، فوضعوا فيها وسائد وغطاء سميكاً. انطلق الرجلان في سفرهما أواخر الليل، واستمر صرير عربتهما حتى الفجر. في بداية الرحلة راحا يتبادلان

الأحاديث الودية ويدخّنان الماخوركا، ويروي كل منهما للآخر حكايات قديمة مخيفة عن التجار الذين قتلوا في الطريق أو في محطات الاستراحة الليلية؛ بعد ذلك استسلم تيخون إيليتش للنوم – ما ألذّ أن يسمع في نومه أصوات المسافرين العائدين، ويشعرَ بالعربة تتزلق مترنحة وكأنها تنحدر أبداً في طريق جبلية، فيحفّ خدّه بالوسادة، وتنزلق قبعته، فيحسّ رأسه ببرودة الليل المنعشة؛ وما أحسن أن يستيقظ قبل شروق الشمس، في صباح ورديّ نديّ، وسط حقول القمح ذات اللون الأخضر الكامد، فتلوح له في البعيد، في الزرقة الملتصقة بالأرض، المدينة ببياضها البهيج ولمعان كنائسها، فيتثاءب بعمق، ويرسم على صدره إشارة الصليب استجابة لرنين أجراس بعيدة، ثم يأخذ المقود من يد العجوز نصف النائم الذي استرخى ببراءة طفل بفعل برودة الصباح، وبدا شاحباً بلون الحوّار في ضوء الفجر... أرسل تيخون إيليتش العربة مع كبير العمال، أما هو فمضى الآن وحيداً في عربة سريعة ذات عجلتين. كان الليل دافئاً، ومضيئاً، ولكن ما من شيء يبهج القلب؛ لقد أتعبته الرحلة، أضواء السوق والسجن والمشفى الذي في مدخل البلدة، كانت تُرى في السهب من بعد عشرة فراسخ وأكثر، وكان يخيّل للمرء انه لن يصل أبداً إلى حيث هذه الأضواء الناعسة. أما النزل الذي في ساحة شيبنايا فكان جوّه حاراً جداً، يكثر فيه لسع البعوض، ويتعالى الصراخ بكثرة أمام بوابته، وتقرقع بصخب العربات الداخلة إلى فنائه المرصوف بالحجارة ويعلو صياح الديكة في وقت مبكر جداً،

ويهدل الحمام، ويزداد ابيضاض الليل خارج النوافذ المفتوحة، وهكذا لم يغمض له جفن. كان نومه قليلاً أيضاً في الليلة الثانية التي حاول قضاءها في السوق، الخيول المشدودة إلى العربة تصهل، والأنوار مضاءة في الخيام، والناس يتجولون في كل مكان ويتبادلون الأحاديث، أما في الفجر، وأجفانه يكاد بعضها يلتصق ببعض من شدة النعاس، فدوّت الأجراس في السجن والمشفى – وفوق رأسه تماماً خارت بقرة خواراً فظيعاً...

ـ "أشغال شاقّة!" ـ هكذا لبرهةٍ بدت له هذه النهارات والليالي.

وكالعادة كانت السوق، التي امتدت طولاً مسافة فرسخ كامل، صاخبة وغبية. هدير أصوات لا انسجام فيه، صهيل خيول، وزغردة صافرات أطفال، ومارشات وموسيقا بولكا[1] صاخبة تنطلق من صناديق الموسيقا الآلية. حشد ثرثار من الفلاحين الرجال والنساء يندفع كالسيل، من الصباح حتى المساء، في الأزقة الترابية القذرة بين العربات والخيام، بين الخيول والأبقار، وعربات المهرجين وعربات بيع الأطعمة التي تفوح من مناقل الشواء فيها روائح نتنة كتلك المنبعثة من غرف النوم. وكالعادة، كان هناك جمع ضخم من الدلاّلين الذي يبعثون حماسة مخيفة في كل الجدالات وكل الصفقات. وسلسلة لا نهاية لها من العميان والمهابيل والشحاذين وأصحاب العاهات المتنقلين بالعكازات أو

---

[1] - موسيقا لرقصة جماعية

في العربات، يجرّ بعضهم بعضاً وهم يرددون ألحاناً ناشزة مقززة؛ وفي قلب الجموع راحت تتحرك ببطء "ترويكا" رئيس الشرطة فتخشخش وترن أجراس خيولها التي يقودها حوذي يرتدي قميصاً مقلماً بلا أكمام ويضع على رأسه قبعة مزينة بريش الطاووس... زبائن تيخون إيليتش كانوا كثراً. فقد مرّ به غجر زرق العيون ويهود بولونيون ذوو شعر أحمر يرتدون أثواباً فضفاضة من الكتان وأحذية عالية ضيقة على الساق، ونبلاء محليون من صغار الملاّك لوّحتهم الشمس، يرتدون معاطف قصيرة لها زمزمات على الصدر ويضعون قبعات على رؤوسهم؛ ومرّ به الضابط في سلاح الفرسان الأمير الجميل باختين وزوجته التي ارتدت بذلة إنكليزية، وبطل سيفاستوبل العجوز المتداعي خفوستوف – وهو رجل طويل القامة، بارز العظام، قسمات وجهه القاتم الممتلئ بالتجاعيد، ضخمة إلى حد مدهش، يرتدي سترة رسمية طويلة وسراويل متهدلة وحذاء عالياً عريضاً، ويعتمر قبعة كبيرة حوافها مزينة بشريط أصفر يظهر من تحته على الصدغين شعر مصبوغ بلون رمادي ميت... ارتدّ باختين إلى الخلف متأملاً حصاناً، راسماً ابتسامة مقتضبة على شاربيه المعقوفين، مهزهزاً ساقه المحشوة في سروال داخلي طويل بنفسجي اللون. وجرجر خفوستوف ساقيه مقترباً من الحصان، حدجه بعين لاهبة، ثم توقّف وقد بدا أنه يوشك أن يسقط أرضاً؛ ورفع عكّازه وسأل للمرة العاشرة بصوت أصمّ خالٍ من كل تعبير:

ــ كم تطلب فيه؟

كان على تيخون إيليتش أن يجيب كل سائل، أجاب، لكن بعد لأي، وقد تقلص فكّاه فطلب سعراً مرتفعاً جداً جعل الجميع ينفضّون عنه خالي الوفاض.

لقد لفحته الشمس بشدّة وهزُلَ وشحب لونه، وغطّى الغبار جسده بكثافة، فأحس بكآبة قاتلة وضعف في أنحاء جسمه كلها. فسدت معدته، حتى إنه أحسّ بالمغص، فكان لا بد له من الذهاب إلى المشفى. وهناك قضى قرابة ساعتين في انتظار دوره، جلس في ممر يملؤه الضجيج ورائحة الكاربولا الكريهة فانتابه شعور بأنه ليس تيخون إيليتش، بل مجرّد شخص ينتظر عند مدخل قصر السيد المالك أو الرئيس. وحين جاء طبيب يشبه شمّاس الكنيسة، أحمر الوجه، ملوّن العينين، يرتدي صدرية قصيرة، ضيقة، سوداء تفوح منها رائحة الزنك، فوضع أذنه الباردة على صدره وهو يشرق مخاطه، سارع يقول أن "ألم بطنه قد زال تقريباً" ولكنه، بدافع الجبن وحده، لم يرفض شربة زيت الخروع. وعندما رجع إلى السوق ابتلع كأساً من الفودكا بالفلفل والملح وعاد ثانية يأكل المرتديلا والخبز المخبأ في كمه ويشرب الشاي والماء غير المغلي وحساء الملفوف المخلل ــ لكن ذلك كله لم يطفئ ظمأه. فحين دعاه بعض المعارف "لإنعاش نفسه بكأس من البيرة" لبى الدعوة. وعلا صوت بائع "الكفاس":

ــ هذا الكفاس، بخاره يضرب في الراس! كوبيك واحد سعر الكاس، أفضل ليموناده يا ناس!

استوقف بائع الكفاس.

ــ يلاّ ــ بوظة! صاح بصوت رفيع بائع البوظة العجوز المكرش الأصلع المتصبب عرقاً في قميصه الأحمر.

وأكل بوظة بملعقة عظمية صغيرة، كانت البوظة ثلجاً خالصاً تقريباً، وقد سبب له ذلك ألماً فظيعاً في الصدغين.

خلت الساحة المغبرة التي طحنت ترابها الأقدام والعجلات والحوافر وامتلأت بالأقذار والنفايات. رحلت السوق. ولكن تيخون إيليتش الذي بدا وكأنه يعاند أحداً ما، أبقى وأبقى في القيظ والغبار الخيول التي لم يبعها، وظل قابعاً في العربة. ربي، إلهي، ما هذا البلد! التربة السوداء بعمق ذراع ونصف، تربة رائعة! ومع ذلك لا تمضي خمس سنوات من دون مجاعة. مدينة مشهورة في روسيا كلها بتجارة القمح ــ، ولا يأكل من هذا القمح حتى الشبع سوى مئة من أبنائها كلهم. وما السوق؟ فوج كامل من الشحاذين والمهابيل والعميان والعجزة وجميعهم من النوع الذي يبعث في نفس الناظر إليهم الخوف والقرف!

انطلق تيخون إيليتش في رحلة العودة في صباحٍ مشمسٍ قائظ باتجاه الطريق العريضة القديمة. عبر في البداية المدينة، ثم البازار، ثم اجتاز النهير الضحل المتعفن بسبب معامل الدباغة، وصعد بعد النهير جبلاً عابراً مدينة تشورنايا سلوبودا. ذات يوم كان، هو وأخوه، يعملان أجيرين في دكان ماتورين في البازار. الآن صار الجميع في البازار ينحنون تحية له. في سلوبودا انقضت طفولته – فوق هذه التلة، بين البيوت الطينية المنغرسة

في الأرض، ذوات السقوف المتعفنة المسودّة، وسط روث الحيوانات الذي يجففونه أمام البيوت ليستخدموه وقوداً، بين الأقذار والنفايات والخرق... ليس ثمة أثر اليوم لذلك البيت الطيني الذي ولد وترعرع فيه تيخون إيليتش. لقد قام مكانه بيت خشبي صغير جديد، فوق مدخله لوحة صدئة: "الخياط المدني سوبوليف". كل ما عدا ذلك ظل في سلوبودا كما كان: الخنازير والدجاج قرب مداخل البيوت، والعصيّ الطويلة عند البوابات وقد عُلِّق في رأس كل منها قرنا كبش؛ ووجوه نساجات الدانتيل البيضاء الكبيرة المطلة من بين أصص الزهور المصفوفة في النوافذ الصغيرة؛ والأطفال الحفاة الذين علّق كل منهم سراويله بحمالة واحدة عبر الكتف، وقد انهمكوا في إطلاق طائرة ورقية بذيل قماشي؛ والبنات الصغيرات البرصاوات الهادئات وهنّ يلعبن قرب كومات الأتربة لعبتهن المحببة ــ دفن الدمى... في فسحة، فوق التلة رسم إشارة الصليب تحية للمقبرة التي ضمت ذات يوم وراء سورها، بين الأشجار العتيقة، القبر المخيف للثري البخيل زيكوف، ذلك القبر الذي غاص في الأرض لحظة دفن صاحبه ــ فكّر قليلاً، ثم لوى عنق الجواد متجهاً نحو بوابة المقبرة.

عند البوابة البيضاء الكبيرة جلست عجوز تحوك جورباً. كانت كأنها عجوز من حكاية، ــ نظارات، ومنقار، وشفتان متهدلتان ــ إنها واحدة من الأرامل اللواتي يقمن في الملجأ التابع للمقبرة.

ــ مرحباً يا جدّة! صاح تيخون إيليتش وهو يربط الحصان إلى عمود قرب البوابة. ــ هل تستطيعين حراسة حصاني؟

نهضت العجوز وحيته بانحناءة كبيرة ثم جمجمت:

ــ أستطيع يا أبتِ.

خلع تيخون إيليتش قبعته، ورسم، مرة ثانية، إشارة الصليب أمام لوحة "خلاص أمّ الرب" فوق البوابة وعيناه غائرتان تحت جبينه، ثم قال:

ــ هل أنتن كثيرات هنا الآن؟

ــ اثنتا عشرة عجوزاً بالتمام يا أبتِ.

ــ طيب، هل تتشاجرن؟

ــ كثيراً يا أبتِ...

مشى تيخون إيليتش متمهلاً بين الأشجار والصلبان في الطريق المؤدية إلى الكنيسة الخشبية العتيقة. حين كان في السوق قصّ شعر رأسه وشذّب شعر لحيته وقصّرها – فبدا أكثر شباباً. لقد جعله نحوله بعد المرض يبدو أصغر سناً. وزادته السمرة التي سببتها الشمس صبا، ــ لم يبد ابيضاض بشرته الرقيقة، إلا في المثلثات الحليقة عند صدغيه... كما زادت مظهره شباباً ذكريات الطفولة والصبا والقبعة الجديدة المصنوعة من الكتان. مشى وهو يتأمل ما حوله... ما أقصر الحياة وما أغباها! يا للسلام والهدوء في هذا المكان، يا للسكون المشمس، في فناء هذا المدفن القديم! كانت الريح الحارة تهب على رؤوس الأشجار التي يغمرها الضوء، عابرة السماء الصافية، وكان ظل الأشجار

الشفاف الخفيف الذي فقد كثافته بفعل الحرّ، يداعب الحجارة والتماثيل من حين لآخر. ولكن الشمس، حين تهدأ الريح، كانت تسخّن بحرّها الشديد الزهور والأعشاب، والطيور تغني بين الشجيرات، أما الفراشات فتتجمد باستسلام لذيذ فوق الممرات الساخنة... قرأ تيخون إيليتش على أحد الصلبان:

ما أفظع الغرامات
التي يجنيها الموت من الناس!

ولكن ليس حوله ما يخيف. تابع مشيه ملاحظاً بما يشبه المتعة أن المقبرة تنمو، فقد ظهرت فيها مدافن كثيرة جديدة بين تلك الحجارة القديمة المنحوتة على شكل توابيت مرفوعة فوق أعمدة صغيرة والكتل الحديدية الثقيلة للصلبان الضخمة الفظة المتعفنة التي يمتلئ بها المكان. "ماتت عام ١٨١٩، ٧ تشرين الثاني في الساعة ٥ صباحاً ــ قراءة مثل هذه الشاهدة أمر فظيع، فالموت في فجر يوم خريفي عاصف في بلدة ريفية قديمة شيء قبيح! ولكن، في مكان قريب ــ بين الأشجار ــ، يلتمع بياض ملاك مصنوع من الجبس، عيناه متجهتان إلى السماء وعلى القاعدة تحته نقش بحروف ذهبية: "طوبى للموتى الذين يموتون في الرب!". وعلى شاخصة حديدية صدئة بفعل الزمن ورداءة الطقس تخصّ موظفاً حكومياً يستطيع المرء أن يقرأ الأشعار التالية:

لقد خدم القيصر بشرف
وأحب القريب بكل قلبه
وكان محترماً عند الناس...

بدت هذه الأشعار لتيخون إيليتش أشعاراً كاذبة. ولكن ــ أين الحقيقة؟ على الأرض بين الشجيرات ثمة فكٌّ بشري كأنه مصنوع من شمع قذر، ــ هذا كل ما تبقى من إنسان... هل صحيح أنه كل ما تبقى؟ تفنى الأزهار والشرائط والصلبان والتوابيت والعظام في الأرض – كل شيء يموت ويبلى! ولكن تيخون إيليتش مضى قُدماً وقرأ: "كذلك يوم قيامة الموتى: ما ينغرس في الفناء، ينبعث في الفناء".

لقد تحدثت العبارات كلها حديثاً مؤثراً عن السكينة والراحة، والرقّة والمحبة التي يبدو أنها غير موجودة ولن تكون موجودة على الأرض، وعن إخلاص الإنسان للإنسان، والخضوع للرب، والأشواق الحارة للحياة الآتية واللقاء في ديار أخرى مباركة لا نؤمن بها إلا في هذا المكان، كما تحدثت عن تلك المساواة التي لا يحققها إلا الموت، ــ تلك الدقائق، التي يقبّلون فيها شفاه الميت القبلة الأخيرة، قبلة الأخوّة فيساوون بينه وبين القياصرة والملوك... وهناك في الزاوية البعيدة من حوش المقبرة، بين شجيرات البيلسان الناعسة بفعل القيظ، رأى تيخون إيليتش قبراً

طازجاً لطفل صغير، ثمة صليب، وفوق الصليب سطران من الشعر:

يا أوراق الشجر اهدئي! لا تضجّي!
لا توقظي كوستيا الحبيب!

ذكّره ذلك بولده الذي خنقته الطبّاخة الخرساء في نومها، فارتعشت عيناه اللتان اغرورقتا بالدموع.

لا أحد أبداً يسافر بعربته على الطريق المحاذية للمقبرة، التائهة بين حقول القمح المتماوجة: الجميع يسافر عبر البلدة الغبراء القريبة. كذلك فعل تيخون إيليتش. في البلدة التقى بعربة حنطور مهلهلة تنطلق مسرعة في الاتجاه المقابل ــ حوذيو الأرياف متهورون! ــ كان في العربة صياد من أبناء المدن، عند قدميه ــ كلب صيد سريع، وفوق ركبتيه ــ بندقية صيد معبأة في كيسها، وقد انتعل حذاء عالياً خاصاً بالمستنقعات، على الرغم من أن المنطقة خالية من المستنقعات. صرّ تيخون إيليتش على أسنانه بغضب: أليس الأولى بهذا الكسلان الالتحاق بعمل ما! كانت شمس منتصف النهار ترسل أشعتها اللاهبة، والريح تهب ساخنة، والسماء الصافية تتحول إلى رصاصية. وقد راح تيخون إيليتش يتململ بغضب متزايد من الغبار المتطاير في الطريق، وينظر بقلق متزايد إلى سنابل القمح النحيلة التي جفت قبل الأوان.

كانت هناك جماعات من المتعبّدات يسرن بخطا موزونة متوكئات على عصيّ نحيلة طويلة وقد أرهقهن التعب والقيظ. وكنّ ينحنين انحناءة كبيرة محَيّيات تيخون إيليتش بتواضع حين يمرّ بهنّ. ولكنه الآن رأى في ذلك كله نوعاً من الاحتيال أيضا.

ـ زاهدات! لكنهن، واللـــه أعلم، يتعاضضن في الاستراحات الليلية كالكلاب.

وكان ثمة فلاحون سكارى أثاروا سحباً من الغبار وهم يقودون خيولاً عائدين بها من السوق. الخيول شقراء ورمادية وسوداء، ولكنها كلها كانت متماثلة في القبح وهزيلة ومشعّثة الشعر. وحين تجاوز تيخون إيليتش عرباتهم المقرقعة هزّ رأسه متأففاً:

ـ يا لكم من حثالة، مشردين، ليمحقكم اللـــه محقاً!

أحدهم، وهو في قميص من الشيت ممزقٍ إلى قطع صغيرة، كان ينام ممدداً على ظهره ويترجرج كالميت، راداً رأسه إلى الخلف وشامخاً بلحيته المدماة وأنفه المتورم الذي جفّ الدم على حوافه. وكان آخر يركض محاولاً اللحاق بقبعته التي جرفتها الريح، لكنه تعثّر، فشاله تيخون إيليتش بالسوط وهو يشعر بمتعة حاقدة. وصادفته عربة مكتظة بالغرابيل والرفوش والنسوة، اللواتي جلسن مديرات ظهورهن للخيول وهنّ يتهزهزن ويتقافزن، كانت إحداهن تضع على رأسها قبعة طفل جديدة جاعلة مقدمتها إلى الخلف، وكانت أخرى تغني، وصاحت ثالثة في إثر تيخون إيليتش، وهي تقهقه وتلوّح بيديها:

ـــ لقد فقدت خابور التثبيت[1] يا عمّ!

بعد المخفر، حيث انعطفت الطريق جانباً، ولمّا تصل العربات الصاخبة إليه، ساد الهدوء، ليس سوى الفضاء وقيظ السهب، هنا أحسّ مرة ثانية أن أهم ما في العالم هو "العمل". إيه، يا لهذا الفقر في كل مكان! لقد أفلس الفلاحون حتى العظم، ولم يبق الذي يرنّ في الأكواخ الصغيرة المتضائلة المتناثرة في هذه المنطقة... لو أن ملاّكاً حقيقياً هنا، ملاّكاً سيداً!

كانت قرية روفْنُويه الكبيرة في منتصف الطريق. الريح الساخنة تهبّ على امتداد الدروب الخالية وعلى البيوت الفقيرة اللاهبة بفعل الحر... وطيور الدجاج تتدافع عند عتبات البيوت وتحاول طمر نفسها في الوحل. وفي فسحة عارية انتصبت بفظاظة كنيسة ذات لون وحشي. والتمع في ضوء الشمس وراء الكنيسة حوض ماء طيني ضحل خلف سدّ من روث الحيوانات ـــ مياه سميكة صفراء، يتوسطها قطيع من البقر يقضي فيها حاجاته كلما أراد، وفلاح عارٍ يدعك رأسه بالصابون. الماء يغطيه حتى خصره، وعلى صدره كان يلتمع صليب نحاسي صغير، عنقه ووجهه أسودان من لفح الشمس، أما جسده فكان أبيض شاحباً إلى حد يثير الدهشة.

ـــ فكّ الحصان يا هذا! ـــ قال تيخون إيليتش وهو يلج بعربته البركة التي فاحت منها رائحة القطيع.

---

[1] - الخابور أسطوانة حديدية قصيرة تدخل في ثقب في رأس المحور الذي يربط العجلات الخلفية بالعجلات الأمامية في العربة.

رمى الفلاح قطعة الصابون المرمرية ــ الزرقاء الصغيرة على الحافة المسودة بفعل روث البقر، وسارع يلبي الأمر غير عابئ برأسه الرمادي المغطى برغوة الصابون وعورته التي غطّاها بخجل. أما الفرس فألقت برأسها إلى الماء في لهفة، ولكن الماء كان ساخناً ومقرفاً جداً فرفعت سحنتها وأدارت ظهرها له. لوّح تيخون إيليتش بقبعته وهو يصفّر منادياً الفرس:

ــ يا لهذا الماء الذي عندكم! أتشربونه حقاً؟

ــ وهل هو عندكم محلّى بالسكّر؟ ــ قال الفلاح معترضاً بودّ ومرح ــ، نحن نشربه من ألف عام! الماء أمره بسيط، ولكن القمح المفقود...

امتدت الطريق بعد روفنويه بين حقول قمح شاسعة ــ السنابل الضعيفة، الهزيلة نفسها، وقد نما بينها الزؤان بكثافة... وقرب فيسيلوك، في ضواحي دورنوفكا، تجمعت سحب من الغربان فوق شجرة صفصاف ذات جذع معوج كثير الثقوب، وقد فتحت مناقيرها الفضية، ــ إنها، لسبب ما، تحبّ الحرّ اللاهب: لم يبق شيء من فيسيلوك في هذه الأيام غير الاسم – لا شيء سوى هياكل أكواخ الفلاحين السوداء بين أكوام الزبالة. كان ثمة دخان حليبي مائل إلى الزرقة يتصاعد من الزبالة، ورائحة حريق عفنة... اخترقت فكرة الحريق رأس تيخون إيليتش كأنها الصاعقة. "إنها كارثة!" ــ هكذا قال لنفسه وقد شحب لونه. إنه لم يؤمّن على شيء مما يملك، وكل شيء يمكن أن يضيع في ساعة واحدة. لقد بدأ تيخون إيليتش يسكر، منذ سجن بتروفكا، ومنذ

رحلته التي لا تنسى إلى السوق، ــ كان يكثر مرات السكر، ليس إلى حد فقدان الوعي، بل إلى حدّ احمرار الوجه احمراراً لائقاً. غير أن ذلك لم يكن أبداً يعيق أعماله، بل لم يكن، بحسب زعمه، يسيء إلى صحته. كان يقول: "الفودكا تنقّي الدم". إنه الآن أيضاً كثيراً ما يسمي حياته أشغالاً شاقة، حبل مشنقة، قفصاً ذهبياً، مع أنه كان يمضي في طريقه بثقة متزايدة. هكذا انقضى عدد من السنوات الرتيبة التي اندمجت في يوم عمل متواصل. غير أنّ أحداثاً عظيمة لم يكن أحد يتخيلها وقعت في هذه الأثناء، ــ حرب اليابان والثورة. بدأت الأحاديث عن الحرب بالتفاخر طبعاً. "سيسلخ القوزاقي جلد الأصفر قريباً يا أخ!" ولكن سرعان ما بدأت تتردد أحاديث من نوع آخر.

ــ أين أذهب بأرضي! ــ كان تيخون إيليتش يقول ذلك بلهجة ملاّك صارمة ــ هذه ليست حرباً يا سيدي، إنها عبث صريح!

كانت أخبار هزائم الجيش الروسي المنكرة تثير فيه إعجاباً مقروناً بالشماتة:

ــ أوه، عظيم! يستأهلون هذا، أولاد القحبة!

في البداية أعجبته الثورة أيضاً، أعجبته أعمال القتل. كان يقول أحياناً وهو في ذروة الحماسة: ــ لقد وجّه للوزير ذاته ضربة قوية تحت الذقن، ضربة قوية لم يبق للوزير من بعدها أثر!

لكن، ما إن بدأ الحديث يدور على نزع ملكية الأراضي حتى راح الحقد يستيقظ في نفسه. "كله من عمل اليهود! كله من اليهود

يا سيدي، ومن هؤلاء المشعثي الشعر ــ الطلاب!" لم يعد الأمر مفهوماً: الجميع يقولون ــ الثورة، الثورة، والأمور في كل مكان باقية على حالها وعادية: الشمس تضيء، والقمح يزهر في الحقول، والعربات المحملة تمضي متتالية إلى المحطة... الذي لم يكن مفهوماً هو الشعب في صمته وفي أحاديثه المخاتلة.

ــ لقد صار كتوماً، هذا الشعب! فظاعة، كم هو كتوم! ــ يقول تيخون إيليتش، ثم يضيف وقد نسي أمر "اليهود":

ــ لنفترض أن هذه النغمة كلها ليست معقدة يا سيدي. تغيير الحكومة وتسوية ملكيات الأراضي ــ هذا أمر يفهمه حتى الطفل الرضيع. وإذن، الأمر واضح، وواضحة الجهة التي يميل إليها الشعب. ولكنه، طبعاً، يظل صامتاً. وإذن، يجب أن نراقبه. وأن نحرص كثيراً على بقائه صامتاً. وألاّ نعطيه مجالاً! وإلا فالويل لنا إذا شعر بالنجاح، وأحس بالقيد تحت ذيله ــ آنذاك سيحطم كل شيء يا سيدي!

حين كان يقرأ أو يسمع أنهم لن ينزعوا الملكية إلا من أولئك الذين يملكون أكثر من خمسمئة هكتار، كان هو نفسه يتحول إلى "محرّض"، وينخرط في مناقشات مع الفلاحين. فقد حدث غير مرة أن وقف فلاح قرب دكانه وقال:

ــ لا يا إيليتش، لا تجادل، ــ يمكن أخذ الأرض، مقابل ثمن عادل، ولكن مجاناً، لا، ذلك سيئ...

في الجو الحار، الذي تنتشر فيه رائحة خشب الصنوبر البرّي المكوّم قرب العنابر مقابل الدار، ويُسمع من وراء الأشجار

وأبنية المحطة، شخير مِرجَل قطار البضائع البخاري وهو يرتّب مواعينه، كان تيخون إيليتش يقف من دون قبعة، مضيّقاً عينيه، مبتسماً ابتسامة ماكرة.

كان يبتسم ويجيب:

ــ طيّب، وإذا لم يكن ملاّكاً جديراً، إذا كان كسولاً؟

ــ من؟ الملاّك؟ تلك حالة خاصة. نزع الأرض فيها بل نزع أحشاء ذلك السيد كلها، ليس حراماً!

ــ ها، ها! هذا شيء وهذا شيء!

ولكن حين بلغه خبر آخر يقول إنهم سيأخذون ما دون الخمسمئة أيضاً، تملك روحه الضياع والنزق. وصار كل ما يجري في المنزل يبدو له مقرفاً.

أخرج صبيُّه إيغوركا أكياس الطحين الفارغة وشرع ينفضها. قرعته مدببة، وشعره خشن وكثيف ــ "ترى لماذا يكون شعر المهابيل كثيفاً إلى هذا الحد؟" ــ جبينه مقعر، وجهه المعوجّ يشبه البيضة، عيناه نافرتان كعيون السمك، أما حاجباه فكأنما شدّت إليهما رموشه البيضاء كرموش عجل: يبدو للمرء أن جلدة وجهه غير كافية، فإذا أغمض أجفانه كان عليه أن يفتح فمه عن آخره، وإذا أغلق فمه توجب عليه أن يفتح أجفانه إلى أوسع مدى. ــ فصاح به تيخون إيليتش غاضباً:

ــ يا غبي! يا أحمق! لماذا تنفضها عليّ؟

غرفة في الطابق العلوي والمطبخ والدكان والعنبر الذي كان قبلاً مخصصاً لبيع الخمور ــ هذا كله يشكّل بناء خشبياً واحداً

تحت سقف حديدي واحد، تلتصق به من ثلاث جهات أسقف حظائر الماشية المغطاة بالقش ــ فينشأ نتيجة ذلك مربع يبعث الراحة في النفس. كانت العنابر مقابل المنزل يفصلها عنه درب صغير، المحطة إلى يمينه، والطريق إلى يساره. وثمة بعد الطريق حرج صغير من أشجار البتولا. وقد اعتاد تيخون إيليتش أن يخرج، حين يشعر بالضيق، إلى الطريق التي تمتد شريطاً أبيض من وادٍ إلى وادٍ راكضة نحو الجنوب، منحدرة بمحاذاة الحقول، لا تصعد نحو الأفق إلا عند المحرس البعيد، حيث تتقاطع مع سكة القطار القادم من الجنوب الشرقي. فإذا صادف أن كان أحد فلاحي دورنوفكا، ــ الفلاحين الأكثر نشاطاً وعقلاً طبعاً، أمثال ياكوف الذي يدعوه الجميع ياكوف ميكيتش لأنه "غني" وبخيل ــ، مسافراً، فإن تيخون إيليتش كان يستوقفه، يقول له بصوت عالٍ مداعباً:

ــ ليتك تشتري لنفسك قبعة على الأقل!

فيشدّ ياكوف الجالس على الحافة الأمامية لعربته حافياً، معتمراً طاقية يتدلى طرفاها على أذنيه، مرتدياً بقايا قميص وسروالاً قصيراً من قماش سميك، الرسن المصنوع من الحبال موقفاً بغلته البدينة ويقول بحذر:

ــ مرحباً، تيخون إيليتش!

ــ مرحباً! أقول: حان الوقت لتتبرع بطاقيتك عشاً للغربان!

يطأطئ ياكوف رأسه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

ــ هذا... كيف أقول؟... أمر جيد لو حصل. ولكن الرسمال، على سبيل المثال، لا يسمح.

ــ كفاك هذراً! نحن نعرفكم يا يتامى قازان! البنت صرّفتها، والصبي زوجته، وعندك مال... ماذا تريد من الرب أكثر من ذلك؟

أرضى هذا الكلام غرور ياكوف، لكن، زاد في حذره، فأطلق زفرة وبرطم بصوت راجف:

ــ يا إلهي! المال... أنا، على سبيل المثال، لم يكن عندي مال في يوم من الأيام... أمّا الصبي... ماذا عن الصبي؟ الصبي لا يسرني... لا بد من القول صراحة ــ لا يسرني!

كان ياكوف، كالكثير من الفلاحين، عصبياً جداً، خاصة حين يتناول الحديث أسرته أو ممتلكاته. إنه شديد الكتمان، غير أن العصبية تملّكته هذه المرة، ولكن، لم يفضحها سوى الكلام الراعش المتقطع. ولكي يهيجه تيخون إيليتش تماماً، سأله بلهجة المتعاطف معه:

ــ لا يسرّ؟ قل من فضلك! أليس ذلك كله بسبب المرأة؟

تلفّت ياكوف حوله وهو يحزّ صدره بأظافره:

ــ بسبب المرأة، ليقصف الرب عمرها...

ــ هل يغار؟

ــ يغار... زعمَتْ أني أضاجعها... دارت عينا ياكوف في محجريهما:

ــ هنا شكتني لزوجها، هنا شكتني! هذي بسيطة ــ لقد أرادت قتلي بالسم! قد تصاب، على سبيل المثال، بنزلة برد... تدخن قليلاً كي تريح صدرك... هنا دسّت لي سيجارة تحت المخدة... لو لم أنتبه ــ لضعت!

ــ وما هي هذه السيجارة؟

ــ طحنت عظام الموتى وحشتها فيها بدل التبغ...

ــ الصبي أحمق! ليتك لقنتها درساً بالطريقة الروسية!

ــ أنت تذهب بعيداً! هو، على سبيل المثال، هجم على صدري! وكان يتلوى كالثعبان!... حاولت الإمساك برأسه، رأسه حليق... أمسكت بتلابيبه، فخفت أن أمزق قميصه!

هزّ تيخون إيليتش رأسه، وصمت دقيقة، ثم اتخذ قراره أخيراً:

ــ كيف الحال عندكم هناك؟ أما زلتم تنتظرون العصيان؟ هنا، عادت في الحال سمة الكتمان لياكوف فافتعل ضحكة وهو يطوّح بيده. ثم برطم بلهجة سريعة:

ــ هِهْ!... أي عفريت ــ عصيان عندنا! الشعب عندنا مسالم... الشعب مسالم...

قال ذلك وشدّ رسن الفرس وكأنها كانت تهمّ بالسير.

ــ ولماذا اجتمعتم يوم الأحد إذن؟ ــ ألقى تيخون إيليتش هذا السؤال بحقد وعلى غير توقع.

ــ التجمع إياه؟ الطاعون وحده يعلم! بربروا، على سبيل المثال...

ـ أعرف، بربروا، ولكن حول ماذا؟

ـ طيب، أنا لن أخفي عنك... ثرثروا، على سبيل المثال، حول أمر زعموا أنه صدر... صدر، بزعمهم، أمر يدعو إلى رفض العمل عند السادة بالسعر القديم...

لقد أحزنه كثيراً أن يدرك أنه بسبب "دورنوفكا" حقيرة باتت يداه عاجزتين عن أداء أي عمل. بيوت هذه الدورنوفكا لا تتجاوز العشرات الثلاث. وهي قائمة على قرن شيطان: وادٍ عريض، على إحدى خاصرتيه أكواخ الفلاحين، وعلى الأخرى عزبة صغيرة. والعزبة والأكواخ، كل جانب منهما ينظر إلى الآخر وينتظر "أمراً" ما... أخْ، لو أملك عدداً من القوزاق المسلحين بالسياط!

ولكن "الأمر" صدر على كل حال. وذات أحدٍ سرت إشاعة عن تجمّع في دورنوفكا، توضع فيه خطة للهجومِ على العزبة. وبعينين يطلّ منهما ابتهاج حاقد، وإحساس بالقوة والجرأة، واستعداد "لتحطيم قرنيّ الشيطان نفسه"، صاح تيخون إيليتش "شدّوا المهر إلى العربة السريعة" وفي خلال عشر دقائق كان يقودها بأقصى السرعة في الطريق إلى دورنوفكا. كانت الشمس تغرب بعد يوم مطير، وسط سحب رمادية تضرجت بالحمرة، وقد اصطبغت جذوع أشجار البتولا في الحرج الصغير بلون الدم، وبدا الدرب الذي تميز تميزاً حاداً بطينه البنفسجي المائل إلى السواد وسط الخضرة النضرة المحيطة به، ثقيلاً وصعباً. وسالت على أفخاذ المهر والسيور التي كانت تحتك بجلده رغوة

وردية اللون. انعطف تيخون إيليتش الممسك بقوة بمقود الفرس، عن السكة الحديدية سالكاً الدرب الزراعية التي إلى يمينه، وحين رأى دورنوفكا، شكَّ لبرهة في صدق ما أشيع حول العصيان. الهدوء المسالم يملأ المكان، وطيور القبّار تنشد أغانيها المسائية بسلام، وببساطة وسكون تتداح رائحة الأرض المبتلة، وحلاوة زهور الحقول... ولكن بصره وقع فجأة على الأرض المتروكة القريبة من العزبة، التي نبت فيها الأقحوان الأصفر بكثافة: في أرضه المتروكة هذه يرعى قطيع للفلاحين! لقد بدأت، إذن! جذب تيخون إيليتش مقود مهره وطار به بالقرب من القطيع، فالبيدر الذي نمت فيه نباتات القُرّيص والخبيزة، فالحديقة الواطئة الممتلئة بالعصافير، فالإصطبل، فكوخ الخدم، وقفز به إلى باحة الدار...

ما حدث بعد ذلك غير معقول: في عتمة المساء جلس تيخون إيليتش داخل العربة في الحقل وقد سمّره الحقد والحزن والخوف. كان قلبه يدقّ بعنف، ويداه ترتجفان، ووجهه يتوهج وقد بات سمعه مرهفاً كسمع وحش. جلس يصغي إلى الصيحات الآتية من دورنوفكا، ويتذكر كيف أن جمعاً، بدا كبيراً، اندفع نحوه، جارفاً إياه عبر المنحدر نحو العزبة، حيث ملأ باحة الدار بالزعيق والشتائم، ثم تجمهر عند الشرفة، ضاغطاً إياه إلى البوابة. لم يكن بيده غير السوط الذي راح يلوّح به متراجعاً تارة، ومندفعاً في يأس باتجاه الحشد تارة أخرى. غير أن صانع سيور جلدية كان بين المهاجمين راح يلوّح بعصاه تلويحاً أكثر

اتساعاً وجرأة ــ كان غاضباً، متوهجاً، ذا كرش متدلٍ، وأنف مدبب، ينتعل حذاء عالياً، ويرتدي قميصاً بنفسجياً من الشيت، ويصيح، باسم الحشد كله، أن أمراً صدر "بالانتهاء من هذه المسألة"، بالانتهاء في اليوم نفسه والساعة نفسها في المقاطعة كلها، وطرد الفلاحين الغرباء من جميع الأعمال وإحلال فلاحين محليين مكانهم ــ مقابل روبل في اليوم لكل فلاح! وكان تيخون إيليتش يصيح بصوت أكثر حدة محاولاً إخماد صوت صانع السيور:

ــ آهاهْ! هكذا إذن! هل تعلمت جيداً عند المحرضين يا متشرد؟ هل صرت ماهراً ككلب؟

التقط صانع السيور بعنف كلماته وهي طائرة، فصرخ وقد احتقن وجهه بالدم:

ــ أنت المتشرد، أنت عجوز أحمق! أتظن أني، أنا نفسي، لا أعرف كم تملك من الأرض؟ كم تملك يا جزّار؟ مئتين؟ أما أنا ــ لا شيء! أرضي كلها بقدر شرفة بيتك! طيب ليش! من أنت؟ أنا أسألك، من تكون أنت؟ من أية مصائر؟

ــ طيب، تذكر هذا يا ميتكا! ــ صاح تيخون إيليتش أخيراً، وقد شعر بالعجز، وأحس بالدوار في رأسه فاندفع عبر الحشد نحو العربة ــ احفظه في ذاكرتك!

لم يعبأ أحد بالتهديد ــ بل انطلق هدير جماعي وزئير وصفير في إثره... بعد ذلك دار بعربته حول العزبة، ثم توقف وأصغى. قاد العربة إلى الطريق، وعند المفرق توقف مديراً وجهه نحو

الشرق، نحو المحطة، متأهباً في كل لحظة لضرب حصانه بالسوط والانطلاق. كان الجو هادئاً، دافئاً، رطباً، مظلماً. وبدت الأرض سوداء كهوّة بلا قرار وهي تتصاعد نحو الأفق، حيث شرع ضوء أحمر ضعيف بالظهور.

ــ قفي يا قحبة! همس تيخون إيليتش من بين أسنانه مخاطباً الفرس التي تحركت في مكانها. ــ قـــ..في!

تناهت من بعيد إلى سمعه أصوات وصيحات، وقد تميّز من بين الأصوات كلها صوت فانكا الأحمر الذي زار مناجم دونيتسك مرتين. ثم ارتفع فجأة فوق العزبة عمود نار قاتم: لقد أحرق الفلاحون الكوخ الذي في الحديقة، فشرع المسدس الذي نسيه البستاني ــ الأجير في الكوخ عند هربه، يطلق الرصاص من النار عشوائياً.

أدرك الناس فيما بعد أن معجزة حقيقية قد حصلت: انتفض الفلاحون في يوم واحد في المنطقة كلها تقريباً. وغصت فنادق المدينة مدة طويلة بالإقطاعيين الباحثين عن حماية عند السلطات. غير أن تيخون إيليتش راح بعد مدة يتذكر بخجل عظيم أنه هو أيضاً كان يبحث عن تلك الحماية: راح يتذكر ذلك بخجل لأن العصيان كله انتهى بأن ملأ الفلاحون المنطقة صياحاً وأحرقوا وحطموا بضع عِزَبٍ ثم صمتوا: وسرعان ما صار صانع السيور يتردد على الدكان في فورغول، وكأن شيئاً لم يحدث، فيخلع طاقيته باحترام عند العتبة كما لو أنه لا يلاحظ أبداً عبوس وجه تيخون إيليتش عند ظهوره. ولكن سرت، مع ذلك إشاعات

تزعم أن الدورنوفيين ينوون قتل تيخون إيليتش. وهو لذلك، بات يخشى التأخر في طريق العودة من دورنوفكا، فيتلمس في جيبه المسدس "البولدوغ"، وقد أضجره أن ثقله كان يشد جيب السروال إلى أسفل. لقد عاهد نفسه أن يحرق دورنوفكا ذات ليلة ويحيلها إلى رماد... ويسمّم أحواض الماء فيها.. ثم توقفت الإشاعات إلا أن فكرة التخلص من دورنوفكا رسخت بصلابة في نفس تيخون إيليتش. "النقود ليست تلك التي عند الجدة، بل تلك التي في عبّك!"

في هذه السنة بلغ تيخون إيليتش الخمسين. ولكن حلمه في أن يصبح أباً لم يفارقه. وهذا الحلم هو ما جمعه برودكا.

رودكا فتى طويل القامة، عبوس الوجه، جاء قبل عامين إلى بيت الأرمل فيدوت؛ أخي ياكوف. تزوج، ودفن فيدوت الذي مات من شدة السكر في العرس، ثم ذهب إلى العسكرية. أما مولودايا[1] ذات القوام الرشيق والبشرة الرقيقة، البيضاء جداً، والخدين المشرّبين بحمرة خفيفة، والمسبلة الرموش دائماً، فصارت تعمل في العزبة بالمياومة. كانت رموش مولودايا تثير في نفس تيخون إيليتش قلقاً كبيراً. يقال إن نساء دورنوفكا يحملن "قروناً" في رؤوسهن، ما إن ينزعن الإكليل، وتتكوم جدائلهن على رؤوسهن، وتغطى بالمنديل، حتى يظهرن بمظهر وحشي، بقري. يرتدين تنانير من قماش صوفي مقلّم ذي لون بنفسجي

---

[1] - كلمة "مولودايا" بالروسية تعني "الصبيّة"

قاتم ومثبتة بأزرار، ومريولاً أبيض يشبه الروب المنزلي، وينتعلن أحذية من اللباد. ولكن مولودايا ــ التي ظلّت تحتفظ بمعنى اسمها ــ الصبيّة ــ كانت جميلة حتى في هذا الزي. ومساء ذات يوم، في كوخ تجفيف القمح المعتم، حيث كانت مولودايا وحيدة تذرّي ما تبقى من السنابل، أطلّ تيخون إيليتش، ثم اقترب منها بسرعة، وبسرعة قال:

ــ سألبسك نصف جزمة من الجلد، ومناديل حريرية... لن أضن عليك بربعية![1] ولكن مولودايا ظلت صامتة كالقتيلة.

ــ ما بك، أتسمعين؟ صرخ تيخون إيليتش هامساً.

ولكن مولودايا تحجرت، وقد أمالت رأسها وهي تقذف ما في المذراة.

وهكذا لم ينل ما أراد. لقد ظهر رودكا المعوج فجأة قبل موعده. كان ذلك بعد عصيان الدورنوفيين بزمن قصير، آنذاك استأجر تيخون إيليتش رودكا وزوجته على الفور للعمل في عزبته في دورنوفكا، زاعماً أن المرء "لا يستطيع الآن تدبير أموره من دون جندي". وعشية يوم القديسة يلينا سافر رودكا إلى المدينة لشراء مجارف ورفوش جديدة، أما مولودايا فراحت تغسل أرض المنزل. دخل تيخون إيليتش الغرفة مخوّضاً في برك الماء، ونظر إلى مولودايا المحنية فوق الأرض، وإلى بطتي ساقيها البيضاوين، الملطختين بالماء القذر، وإلى كل جسدها الذي

---

[1] - ربعية، قطعة نقد تساوي خمسة وعشرين روبلاً

ترهل بعد الزواج... وفجأة، وبمهارة استثنائية خطا نحو مولودايا ممتلئاً بالقوة والرغبة. انتصبت واقفة بسرعة، ورفعت إليه وجهاً مهتاجاً مصطبغاً بالحمرة، وصرخت بصوت غريب وهي تمسك في يدها المكنسة المبتلة بالماء:

ــ سأصفعك بهذي يا ولد!

كانت رائحة الغسيل والجسد الحار، والعرق تفوح في المكان... أمسك تيخون إيليتش يد مولودايا، ولواها بوحشية وهزّها فسقطت المكنسة، ثم طوّق بيده اليمنى خصر مولودايا وشدّها إليه بقوة جعلت عظامها تطقطق، وحملها إلى الغرفة الأخرى، حيث الفراش. لم تعد مولودايا تصارع، لم تعد تقاوم، بل ارتدّت برأسها إلى الخلف فاتحة عينيها عن آخرهما.

بعد هذه الحادثة صار يشعر بالعذاب حين يرى زوجته، أو رودكا الذي يعرف أنه ينام مع مولودايا، وأنه يضربها بوحشية ــ في كل يوم وفي كل ليلة. وسرعان ما تحوّل هذا الشعور إلى ألم فظيع. مجهولة هي الطرق التي يصل بها الإنسان الغيور إلى الحقيقة. ورودكا وصل. النحيل، المعوج، ذو الذراعين الطويلتين، والقوي مثل قرد، بشعره القصير ورأسه الصغير الأسود الذي يحنيه دائماً وهو ينظر بعينه الغائرة عميقاً تحت جبينه، صار مخيفاً. لقد التقط وهو في الجيش بعض الكلمات الأوكرانية وطُرُق النطق بها. وكان، إذا تجرأت مولودايا واعترضت على بعض عباراته القصيرة القاسية، يمسك بسوط

من السيور الجلدية ويقترب منها مبتسماً ابتسامة حاقدة، فيسألها وهو يصرّ على أسنانه ويسوطها كيفما اتفق:

ــ إنتي شو قلتي؟

ويظل يجرجرها حتى تظلم الدنيا في عينيها. ذات مرة رأى تيخون إيليتش، مصادفة، واحدة من حفلات التعذيب هذه، ولم يتمالك نفسه فصرخ:

ــ ما الذي تفعله يا سافل؟ غير أن رودكا جلس على الدكة الخشبية في هدوء، واكتفى بالنظر إليه.

ــ إنتَ شو قلتْ؟ سأله.

فسارع تيخون إيليتش إلى إغلاق الباب بعنف...

صارت تراوده الآن أفكار وحشية: أن يرتب الأمر، مثلاً، بحيث يسقط في مكان ما سقف أو كوم من التراب على رودكا فيسحقه... ولكن، مضى شهر وتلاه آخر والأمل، ذلك الأمل الذي كان ينتشي بتلك الأفكار، خاب بقسوة؛ مولودايا لم تحبل! فلماذا يستمر بعد هذا في اللعب بالنار؟ صار لزاماً عليه أن يتخلص من رودكا، ويطرده في أقرب وقت.

ولكن من سيحلّ محلّه؟

أسعفته المصادفة. تصالح تيخون إيليتش فجأة مع أخيه وأقنعه بأخذ إدارة دورنوفكا على عاتقه.

لقد علم من أحد معارفه في المدينة أن كوزما خدم فترة طويلة محاسباً عند الإقطاعي كاساتكين، والأمر الأكثر إدهاشاً، هو أنه

صار "مؤلفاً". نعم، طبعوا له كتاباً كاملاً من أشعاره وكتبوا على الغلاف "حقوق الطبع للمؤلف".

ــ هكذا إذن! قال تيخون إيليتش بصوت ممطوط حين سمع ذلك. هو ــ كوزما، لا بأس! طيب، اسمح لي أن أسأل، هل طبعوا حقاً عبارة تأليف كوزما كراسوف؟

ــ هكذا تماماً ــ أجاب الرجل المعرفة، الذي كان، على كل حال، يؤمن إيماناً راسخاً، كالكثيرين في المدينة، أن كوزما "يسلخ" أشعاره من الكتب والمجلات.

عندئذ كتب تيخون إيليتش لأخيه، دون أن يغادر مكانه على الطاولة في خمارة داييف، رسالة قصيرة وحازمة: آن الأوان كي يندم، ويتصالح العجوزان. وفي اليوم التالي كانت المصالحة والحديث عن العمل في خمارة داييف.

كان الوقت صباحاً، والخمارة ما تزال خالية من الزبائن. ونور الشمس يمرّ عبر النوافذ المكسوة بالغبار فيضيء الموائد المغطاة بأغطية حمراء ــ رمادية، والأرضية القاتمة المغسولة لتوها بمكانس القش التي تفوح منها روائح الإصطبل، والنوادل بقمصانهم البيضاء وسراويلهم البيضاء. وكان ثمة كناريٌّ في قفص يغرّد تغريداً متنوعاً متواصلاً وكأنه ليس طائراً حياً، بل آلة مدارة. جلس تيخون إيليتش إلى الطاولة متوتر القسمات جدّي الملامح، وما إن طلب كأسين من الشاي حتى علا فوق أذنه صوت يعرفه منذ زمن بعيد:

ــ هِهْ، مرحبا.

كان كوزما أقصر منه قامة، بارز العظام، جاف البشرة. وجهه كبير ونحيل ومغضّن قليلاً، وحاجباه رماديان متصلان وعيناه خضراوان واسعتان. بدأ الحديث، ولكن ببساطة.

ــ سأشرح لك في البداية يا تيخون إيليتش، ــ بدأ الكلام فور انتهاء تيخون إيليتش من صبّ الشاي، ــ سأشرح لك من أنا كي تعرف... ــ اصطنع ضحكة قصيرة: ــ مع من تتعامل...

كان من عادة كوزما التشديد على مقاطع الكلمات، ورفع الحواجب، وفكّ وتبكيل الزر الأعلى في سترته في أثناء الكلام. بكَّلَ زر السترة وتابع:

ــ أنا، لو تعلم، ــ فوضوي... رفع تيخون إيليتش حاجبيه دهشة.

ــ لا تخف. أنا لا أعمل في السياسة. ولكن الإنسان حرّ بأفكاره. وهذا لن يسبب لك أي أذى. سأدير الأمور إدارة سليمة، ولكني، أقول بصراحة، لن أسلخ جلد أحد.

ــ الزمن تغير على كل حال، ــ قال تيخون إيليتش بحسرة.

ــ ههْ، الزمن مازال هو نفسه. مازال بالإمكان سلخه ولكن لا، هذا لا ينفع.

سأدير العمل، وسأخصص وقت الفراغ لتطوير نفسي... أي، لأقرأ.

ــ أوه، حطّ في بالك: من يقرأ زيادة ــ لا يلقى إفادة! قال تيخون إيليتش وهو يهز رأسه ويمطّ شفتيه. ــ أعتقد أن هذا ليس شغلنا.

ــ طيب، أنا لا أرى هذا الرأي، ــ قال كوزما معترضاً. ــ أنا يا أخي، ــ كيف أشرح لك ذلك؟ ــ نموذج روسي غريب.

ــ أنا نفسي إنسان روسي أيضاً، حطّ في بالك، ــ قال تيخون إيليتش مقاطعاً.

ــ ولكنك مختلف. لا أريد أن أقول إني أفضل منك، ولكني مختلف. أنت، كما يبدو لي، فخور بكونك روسياً، أما أنا يا أخي، آه، فبعيد جداً عن القوميين السلافيين! كثرة الكلام لا تليق، ولكني أقول شيئاً واحداً: لا تفخروا، كرمى للرب، بأنكم روس. نحن شعب متوحش!

عبس تيخون إيليتش وراح يطرق الطاولة بإصبعه، ثم قال:

ــ أظن أن ما قلته صحيح ــ شعب متوحش، مخبول.

ــ هَهْ، هو ذا الواقع. أستطيع أن أقول إني تجولت كثيراً في الدنيا ــ وما النتيجة؟ ــ بصراحة، لم أجد في أي مكان نماذج أكثر إثارة للضجر، وأشد كسلاً، ومن ليس كسولاً ــ هنا رمق كوزما أخاه بنظرة جانبية ــ فلا جدوى من نشاطه. يجهد نفسه، يبني لنفسه عشاً، وما الفائدة؟

ــ ماذا تعني بسؤالك عن الفائدة؟

ــ أعني، بناؤه، بناء العش يجب أن يكون له معنى. أبنيه، إذن، وأعيش عيشة إنسانية. بهذا، وبهذا.

ودق كوزما بإصبعه صدره ثم جبينه.

ــ يبدو لي يا أخي أن هذا ليس لنا، ــ قال تيخون إيليتش ــ "عش في القرية، واشرب حساء الملفوف النيّئ، والبس أحذية اللباد المثقوبة!"

ــ أحذية اللباد! ــ ردّ كوزما هازئاً. ــ للألف الثانية من السنين، نجرجرها، لعنها الرب ثلاثاً! ومن المسؤول؟ يزعمون أن التتار سحقونا! ويزعمون، انتبه، أننا شعب حديث السن! ولكن، ظني أنهم هناك أيضاً، في أوروبا ذاتها، سحقهم كثيرون ــ شتى أنواع المغول. وما أظن أن الألمان أكبر منا سناً... حسناً، هذا حديث آخر!

ــ صحيح! ــ قال تيخون إيليتش ــ هيا نتحدث في العمل، فذلك أفضل!

ولكن كوزما راح يتابع حديثه:

ــ أنا لا أذهب إلى الكنيسة...

ــ أنت إذن، من طائفة المولوكان؟ سأله تيخون إيليتش وهو يقول لنفسه: "أنا... ضعت! يبدو أنه لا بد من التخلص من دورنوفكا!"

ــ شبيه بالمولوكان، ــ قال كوزما ساخراً ــ، ولكن هل تذهب أنت؟ لولا الخوف والحاجة، ــ لكنت نسيت ذلك تماماً.

ــ أنا لست الأول، ولست الأخير، قال تيخون إيليتش معترضاً، عابساً، ــ كلنا آثمون. ولكن يقال، كما تعلم، : تنهيدة واحدة، ويغفر الرب كل شيء.

هزّ كوزما رأسه، وقال بصرامة:

ــ تقول ما اعتدتَ قوله! ولكن توقّفْ وفكِّر: كيف يحدث ذلك؟ عشت، عشت خنزيراً طول حياتك، ثم تنهدت فانتهى كل شيء، كأنما يد سحرية مسحته! هل في هذا معنى أو لا؟

صار الحديث ثقيلاً. وقال تيخون إيليتش في سره وهو ينظر إلى الطاولة بعينين براقتين: "وهذا صحيح أيضاً". لكنه أراد كعادته، أن يبتعد عن الأفكار والحديث عن الرب والحياة فنطق بأول عبارة جرت على لسانه:

ــ يبهجني أن أكون في الجنة، ولكن خطاياي لا تسمح بذلك.

ــ ها، ها، ها! ــ التقط كوزما زمام الحديث وهو يطرق الطاولة بظفره. ــ أكثر ما نحب في الوجود، أكثر سماتنا تدميراً لنا: القول ــ شيء، والفعل ــ شيء آخر! المعزوفة الروسية يا أخي هي: العيش قذر كعيش الخنازير، ومع ذلك أعيش وسأعيش كالخنازير! طيب، قل بعد هذا شيئاً عن العمل. صمت طائر الكناري. وبدأ الناس يتجمعون في الخمارة. وبات الآن يسمع من البازار صوت عزف كان يأتي من أحد الدكاكين واضحاً رناناً إلى حد يثير الدهشة. وكان كوزما، في أثناء الحديث عن العمل، يصغي إليه، ويردد أحياناً بصوت منخفض: "رائع"! وبعد أن اتفقا ضرب بكفه على الطاولة وقال بعزم:

ــ حسن، هكذا إذن ــ لا داعي للإكثار في الكلام! ــ ثم دسّ يده في جيب سترته الجانبي فأخرج رزمة من الأوراق والقصاصات، استل من بينها كتيباً ذا غلاف مرمري ــ رمادي ووضعه أمام أخيه، وقال:

ــ هاك! ــ نزولاً عند رغبتك وضعفي. الكتيب رديء، والأشعار غير مدروسة وقديمة... ولكني لا أستطيع فعل شيء. هاك، خذه، وخبّئه.

ومن جديد حرّك مشاعر تيخون إيليتش كون أخيه هو المؤلف، ولكونهم طبعوا على هذا الغلاف المرمري ــ الرمادي: "أشعار ك. إي. كراسوف". قلّب الكتاب بين يديه ثم قال متهيباً:

ــ ليتك تقرأ لنا شيئاً... آ؟ كن لطيفاً واقرأ ثلاث أو أربع قصائد!

طأطأ كوزما رأسه، ووضع النظارة، ثم أبعد الكتيب عنه، ونظر إليه بصرامة عبر الزجاج، وشرع يقرأ ما يقرؤه عادة من لم يتعلموا في المدارس: محاكاة كولتسوف ونيكيتين[1]، شكوى من المصير والفقر، نداءات للغيمة الراحلة والطقس الماطر. غير أن بقعاً وردية ظهرت على قسماته الناحلة وكان صوته يرتعش أحياناً. أما تيخون إيليتش فالتمعت عيناه. لم يكن ما يهمه جودة الأشعار أو رداءتها، ــ المهم أن من ألّفها هو أخوه الشقيق، الإنسان البسيط الذي تفوح منه رائحة الماخوركا والجزمة القديمة...

ــ نحن يا كوزما إيليتش، ــ قال، حين صمت كوزما وطأطأ رأسه بعد أن نزع النظارة، ــ نحن عندنا أغنية واحدة... ولسبب غير مفهوم عضّ على شفته بحسرة:

---

[1] ـ شاعران من كتّاب الشعر الشعبي

ـــ عندنا أغنية واحدة: هذا بكم؟ وهذا بكم؟

ولكنه، بعد أن حشر أخاه في دورنوفكا، أقبل على هذه الأغنية إقبالاً يفوق ما كان عليه في الماضي. قبل أن يضع دورنوفكا بين يدي أخيه، تحرش برودكا وطرده من العمل، بسبب لجام جديد التهمته الكلاب. فردّ رودكا على ذلك بضحكة قصيرة وقحة، ثم مضى بهدوء إلى كوخه يجمع أشياءه. وبدا أن مولودايا تلقت قرار الطرد بهدوء أيضاً. فبعد أن افترقت عن تيخون إيليش استردت عادة الصمت اللامبالي، وعدم النظر إلى عينيه. ولكن رودكا الذي جمع أشياءه في نصف ساعة، جاء إليه بصحبتها يطلبان العفو. وقفت مولودايا في العتبة شاحبة متورمة الجفون من كثرة البكاء وصامتة؛ أما رودكا فطأطأ رأسه وهو يدعك قبعته، ويحاول البكاء أيضاً فيرسم على وجهه تعابير مقرفة؛ بينما جلس تيخون إيليتش مقطب الجبين، يطقطق خَرَزات المحساب. ولم يرحمهما إلا في أمر واحد ـــ لم يحسم ثمن اللجام.

لقد صار الآن صلباً. فبعد أن تخلص من رودكا، وسلّم العمل لأخيه، أحسّ أنه نشيط ومتوازن. "أخي لا يعتمد عليه، أظنه رجلاً فارغاً، ولكنه يصلح إلى حين!" وانهمك، بعد عودته إلى فورغول، في العمل دون كلل طول شهر تشرين الأول (أكتوبر). وفي تشرين الأول كله كان الطقس رائعاً وكأنه يجاريه في مزاجه. غير أنه انقلب فجأة ـــ تحول إلى عواصف وأمطار غزيرة، أما في دورنوفكا فحدث ما لم يكن متوقعاً أبداً.

عمل رودكا في شهر تشرين الأول في السكة الحديد، أما مولودايا فبقيت في البيت دون عمل، إلا أنها كانت، في أحوال نادرة، تكسب خمسة عشر أو عشرين كوبيكاً، من العمل في حديقة العزبة. وكان سلوكها غريباً: في البيت، تظل صامتة تبكي، أما في الحديقة، فتبدو شديدة المرح، تقهقه، وتغني مع كوزا دونكايا، وهي صبية فلاحة غبية وجميلة جداً تشبه المصريات. كانت كوزا تعيش مع ضمّان للحديقة قادم من المدينة، أما مولودايا، التي صادقتها لسبب ما، فكانت تلاحق أخاه الصبي الوقح بنظرات مثيرة، وتلمّح في أغانيها، وهي ترمقه، إلى أنها تذوب عشقاً لأحدهم. لم يكن ثمّة ما يبيّن وجود شيء ما بينهما، غير أن ذلك كله انتهى بمصيبة كبيرة: أقام الرجلان عشية سفرهما إلى المدينة أمسية وداعية في كوخهما في ضواحي كازانسكايا، ــ دعَوَا إليها كوزا ومولودايا. ظلاّ الليل كلّه يعزفان على آلتيهما الموسيقيتين، ويطعمان الفتاتين الكعك ويسقيانهما الشاي والفودكا، وفي الفجر، بعد أن أعدّا العربة للسفر، طرحا مولودايا السكرى فجأة على الأرض، ثم قيّدا يديها، نزعا تنورتها، وجدلاها حبلاً أوثقا به ذراعيها خلف رأسها. أما كوزا فانطلقت هاربة، غير أنها سقطت بسبب الخوف في دغل من النباتات الطفيلية المبتلة، وحين أطلت من بينها ــ بعد أن غادرت العربة الحديقة مسرعة والرجلان على متنها ــ رأت مولودايا معلقة على شجرة، وعارية حتى الخصر. كان الفجر ضبابياً حزيناً، والمطر الخفيف يهسهس في الحديقة، وكانت كوزا

تجهش بالبكاء وأسنانها تصطك فلا يقع سنّ منها على سنّ، وهي تفك وثاق مولودايا وتقسم بأبيها وأمها أنها تفضل أن تقتلها الصاعقة على أن يعرفوا في القرية ما الذي جرى في الحديقة... ولكن، بعد أقل من أسبوع سرت الشائعات في دورنوفكا حول العار الذي لحق بمولودايا.

كان من المستحيل، طبعاً، التأكد من هذه الشائعات: "فما من أحد رأى، أما كوزا فكذبها "لا يكلّف كثيراً"". غير أن الأقاويل التي أثارتها الشائعات لم تتوقف، وصار الجميع ينتظرون بفارغ الصبر عودة رودكا وتأديبه لزوجته. وكان بين المنتظرين لهذا الانتقام تيخون إيليتش الذي خرج عن طوره من جديد حين سمع من عماله قصة ما جرى في الحديقة: هذه القصة كان يمكن أن تنتهي بجريمة قتل! ولكنها انتهت بحادثة. لا أحد يعلم حتى اللحظة ما الذي يمكن أن يكون أشد إدهاشاً لأهالي دورنوفكا أتلك الحادثة التي أنهت القصة أم القتل؟: عشية عيد القديس ميخائيل جاء رودكا إلى البيت "ليغير قميصه"، فمات نتيجة "ألم في بطنه"! وصل الخبر إلى فورغول مساءً في وقت متأخر، ولكن تيخون إيليتش أمر أن يسرجوا له الحصان في الحال، وانطلق في الليل، تحت المطر، إلى أخيه. وبعد أن شرب بسرعة زجاجة عنبرية بدل الشاي، راح يعترف لأخيه وقد ارتسمت على وجهه تعابير الهياج العاطفي وتراقصت عيناه:

ـ إنه ذنبي، يا أخي، إنه ذنبي.

جال كوزما طويلاً في أرض الغرفة وهو صامت يصغي إلى أخيه ويطقطق سلاميات أصابعه واحدةً واحدةً. وأخيراً قال دون مقدمات:

ــ حسن، فقط فكّر معي: هل هناك من هو أشد قسوة من شعبنا؟ في المدينة، تطارد الجماعة النهمة كلها لصاً صغيراً خطف عن البسطة فطيرة زهيدة الثمن، تطارده وتلحق به وتطعمه قطعة من الصابون رغماً عنه. المدينة كلها تركض لمشاهدة حريق أو عراك، وكم يأسفون إذا انتهى الحريق أو العراك سريعاً! لا تهز، لا تهز رأسك بالنفي: نعم، يأسفون! وكم يستمتعون حين يضرب أحدهم زوجته ضرباً مبرّحاً، أو يسلخ جلد طفل وكأنه عنزة سيدوروف[1]، أو يتسلى بتعذيبه؟ إن هذا أكثر المواضيع مرحاً عندهم.

فقاطعه تيخون إيليتش بحرارة: حطّ في بالك، السيئون كثيرون دائماً في كل زمان ومكان.

ــ طيب. وأنت نفسك، ألم تجلب هذا... ماذا كان اسمه؟ أعني ذلك المخبول؟

ــ هل تعني موتيا رأس الإوزة؟ سأل تيخون إيليتش.

ــ هِهْ، هو ذا، هو ذا... ألم تجلبه لتتسلى به؟

ضحك تيخون إيليتش ضحكة قصيرة: نعم، جلبته. بل إنهم نقلوا موتيا إليه بالقطار ذات مرة ــ في برميل لنقل السكّر. كان

---

[1] - عنزة سيدروف عنزة كان صاحبها، كما تقول الحكاية، يضربها ضرباً مبرّحاً كل يوم.

مدير المحطة من أصحابه، فنقلوه إليه. وكتبوا على البرميل: "توخَّ الحذر ــ مخبول مضروب".

وتابع كوزما كلامه بمرارة: وهم، من أجل التسلية، يعلّمون هؤلاء المخابيل الأذى! فيدهنون بوابات بيوت العرائس الفقيرات بالقطران! ويحرّضون الكلاب على الشحاذين! وللتسلية، يقتلون الحمام على أسطح البيوت بالحجارة! ولكنهم يزعمون أن أكل هذه الطيور إثم عظيم. الروح القُدُس نفسه يتخذ، في زعمهم، صورة طير الحمام!

برد السماور منذ زمن، وذابت الشمعة، وسرى في الغرفة دخان أزرق شاحب، وامتلأت سلة النفايات بأعقاب السجائر ذات الرائحة الكريهة. كان شرّاق التهوية الموصول بأنبوب معدني في الزاوية العليا من النافذة ــ مفتوحاً، ومن حين لآخر يتعالى منه زعيق شيء ما يدور ثم يشرع يئن أنيناً مضجراً ــ مضجراً ــ فقال تيخون إيليتش لنفسه: "كم يشبه هذا الدائرة الحكومية". غير أن دخان السجائر كان كثيفاً لا تجدي معه عشرة شرّاقات. وكان المطر يصخب فوق السطح، أما كوزما فراح يذرع المكان من زاوية إلى أخرى كالنواس، وهو يقول:

ــ أو هوه، يا لهم من جدعان، لا يمكن قول شيء غير ذلك! تقرأ التاريخ ــ فيقف شعر رأسك هلعاً. الأخ ضد أخيه، والعديل ضد عديله، والابن ضد أبيه، غدر وقتل، قتل وغدر... والحكايات القديمة ــ بهجة خالصة أيضاً: "مزّق له صدره الأبيض"، "دلق مصارينه على الأرض"... أما إيليا، فأمسك بابنته

"داس على ساقها اليسرى، واقتلع ساقها اليمنى"... وماذا عن الأغاني؟ كلها تكرار، كلها تكرار: الخالة زوجة الأب ــ "عنيفة ودموية"، الحمو ــ "ظالم وحشري"، "يجلس في المجلس ككلب الحراسة المربوط بحبل"، والحماة "ظالمة" أيضاً، "تجلس فوق الموقد كالكلبة المقيدة بجنزير"، والكنائن "كلبات ونمّامات" حتماً، والأصهار "ساخرون أشرار"، والزوج "إما أحمق وإما سكّير"، يأمره "الحمو ــ الأب بضرب زوجته ضرباً أشدّ إيلاماً، وسلخ جلدها حتى الكعبين"، أما الكنّة فتقول لذلك الأب نفسه. "غسلت الأرض وسكبت لك الماء الوسخ في حساء الملفوف، قحّطت الوحل عن العتبة وصنعت منه فطيرة لك"، وتتوجه إلى الزوج قائلة: "هاك الماء الوسخ ــ اغسل وجهك، وهاك الممسحة ــ تنشّف، وهاك قطعة حبل ــ اشنق نفسك بها"... وفكاهاتنا يا تيخون إيليش! هل هناك من يستطيع ابتكار ما هو أكثر قذارة وابتذالاً! أما الأمثال! "مقابل كل مضروب يعطونك اثنين لمّا يضربا"... "البساطة أسوأ من السرقة"...

ــ وإذن، فبحسب رأيك، عيشة الفقراء أفضل؟ ــ قال تيخون إيليتش ساخراً.

فتلقّف كوزما كلماته بابتهاج:

ــ ههْ، هو ذا، هو ذا! ليس في الكون كله من هو أفقر منا، وفي المقابل، ليس هناك من هو أكثر شكوى من هذا الفقر. بماذا تحاول النيل مني؟ بالفقر! "إلى الشيطان! ذلك لن يفيدك بشيء..."

هاك مثلاً: دينيسكا... ذاك... ابن "سيري"[1]... الحذّاء... منذ أيام كان يقول لي...

ـ مهلاً، ـ قاطعه تيخون إيليتش، ـ كيف هي حال سيري نفسه؟ دينيسكا يقول إنه يفطس من الجوع".

ـ إنه فرخ وَغْد! قال تيخون إيليتش بحزم. ـ فلا تحاول أن تنشد لي الأناشيد عنه.

ـ أنا لا أنشد الأناشيد، ـ أجاب كوزما غاضباً. ـ الأفضل أن تسمع حكاية دينيسكا. كان يقول لي: "في عام المجاعة كنا نرحل إلى تشورنايا سلوبودا للعمل، والعاهرات هناك ـ أعداد غفيرة. جائعاتٍ كنّ، أولئك السافلات، كنّ جائعات جداً! تعطي الواحدة منهن نصف فونط[2] من الخبز لقاء العمل كله، فتلتهمه كله وهي تحتك... كم كان ذلك مضحكاً!... لاحظْ! ـ صرخ كوزما بصوت صارم، وهو ينهي كلامه: ـ"كم كان ذلك مضحكاً!"

ـ كفى، بحق المسيح، ـ قاطعه تيخون إيليتش من جديد، ـ دعني أقول شيئاً في قضيتنا! صمت كوزما برهة ثم قال:

ـ طيّب، تكلّمْ، ـ ولكن، ماذا ستقول؟ ماذا عليك أن تفعل؟ لا شيء! ادفع نقوداً ـ هذه كل الحكاية. طيّب، فكّرْ قليلاً: لا شيء توقده، لا شيء تأكله، لا نقود تدفن بها الميت! بعد ذلك يمكن استئجارها من جديد، طباخة عندي مثلاً...

---

[1] - "سيري" كلمة تعني "الرمادي" بالروسية

[2] - فونط وحدة وزن

قفل تيخون إيليتش عائداً إلى البيت في مطلع الفجر، في صباح ضبابي عابس، مازال ممتلئاً برائحة البيادر المبتلة والدخان. كانت الديكة تصيح في القرية الغارقة في الضباب بصوت ناعس، والكلاب نائمة تحت الشرفة، وديك رومي عجوز ينام متكوماً قرب المنزل فوق أغصان شجرة تفاح نصف عارية تلونها أوراق خريفية ذابلة. والضباب الرمادي الكثيف، الذي تطارده الريح في الحقل، يحجب رؤية كل شيء، ولو على بعد خطوتين. لم يكن تيخون إيليتش راغباً في النوم، لكنه أحس أنه مرهق، فراح، كعادته دائماً، يسوط الفرس بعزم لتسرع، وهي فرس شهباء ضخمة معقودة الذيل، ابتلّت فبدت أنحف، وأرشق، وأغمق لوناً. أدار ظهره للريح، ورفع الجانب الأيمن من الياقة الباردة الرطبة لمعطفه، الذي كان يتلألأ كالفضة بسبب حبات المطر الصغيرة التي غطّته كله، وراح ينظر من خلال القطرات الباردة الصغيرة التي علقت برموشه، إلى الطين الأسود اللزج الذي كان يزداد سماكة على العجلة المسرعة، وإلى نافورة كاملة انتصبت أمامه باستمرار، تشكّلها كتل الطين المتدافعة نحو الأعلى وقد غطّت ساقيه، ويلقي بطرف عينه نظرات على فخذ الفرس المنهمكة في عملها، وعلى أذنيها المضمومتين الكامدتين... وحين بلغ في طيرانه هذا المنزل أخيراً، وقد تبرقش وجهه بالطين، كان أول ما وقعت عليه عيناه حصان ياكوف عند مربط الخيل. لفّ مقود فرسه بسرعة على خشبة المربط ثم قفز

من العربة وهرع نحو باب الدكان المفتوح ــ وهناك توقف وقد تملكه الخوف.

ــ دالدو ــ ون! ــ قالت ناستاسيا بتروفنا الواقفة وراء طاولة البيع، مقلّدة، على ما يبدو، تيخون إيليتش، ولكن بصوت عليل حنون، وهي تزداد انحناء فوق درج النقود، باحثة بين القطع المعدنية المخشخشة، دون أن تتمكن من العثور في الظلمة على القطع النقدية المناسبة (للكمالة). ــ دالدون! أين هو، أين الكيروسين، هل صار حقاً أرخص في هذه الأيام؟

ولما لم تجد مبتغاها انتصبت ونظرت إلى ياكوف الواقف أمامها بطاقيته المصنوعة من الفراء ومعطفه السميك وقدميه الحافيتين، ولحيته المعوجة ذات اللون المحيّر، ثم تابعت كلامها:

ــ أتراها لم تسمّمه؟

فبرطم ياكوف عجِلاً:

ــ هذا لا يعنينا يا بتروفنا... الطاعون وحده يعلم... ما يعنينا هو البقاء بعيداً... البقاء بعيداً، على سبيل المثال...

وظلّت يدا تيخون إيليتش طول النهار ترتجفان كلما تذكّر هذه البرطمة. الجميع، الجميع يعتقدون أنها سمّمته!

ويشاء الحظ الحسن أن يبقى السرّ سراً: دفنوا رودكا. وندبته مولودايا وهي تودّع التابوت، ندبته بإخلاص خرج حتى عن حدود اللياقة ــ فالندب يجب ألا يكون تعبيراً عن المشاعر، بل أداء لطقس من الطقوس، ــ ورويداً رويداً هدأ قلق تيخون إيليتش.

في هذا الوقت كانت المشاغل تطوّقه حتى العنق وما من مساعد. لم يكن تيخون إيليتش يستخدم من الأُجراء إلا الموسميين "العاملين في الصيف" ــ حتى موعد الصوم الخريفي. وهؤلاء قد رحلوا الآن، ولم يبق سوى العاملين السنويين ــ الطباخة، والحارس العجوز المدعو جميخ، والصبي أوسكا، "الأبله ــ عطية رب السماء". ولكن ما أشدّ حاجة المواشي للرعاية! عشرون نعجة يجب إعدادها لقضاء فصل الشتاء، وفي حظيرة الخنازير ستة من الذكور السود المتجهمة أبداً والساخطة لسبب ما. وثمة في المبقرة ثلاث بقرات وعجل وعجلة حمراء رضيعة. وفي الإصطبل أحد عشر حصاناً؛ وعند المعلف مهر رمادي، نزق، صعب المراس، طويل العرف، عريض الصدر ــ غير مؤصل، قد يصل ثمنه إلى أربعمئة روبل: أبوه كان يملك شهادة ميلاد، وقد بلغ ثمنه ألفاً وخمسمئة روبل. كل ذلك كان يتطلب عيناً، وعيناً ساهرة.

انتوت ناستاسيا بتروفنا منذ زمن بعيد السفر لزيارة معارف لها في المدينة. وأخيراً جمعت حوائجها ورحلت. ومضى تيخون إيليتش، بعد أن ودعها، يطوف في الحقل بلا هدف. وعلى الطريق مرّ ساخاروف رئيس مركز البريد في أوليانوفكا متنكباً بندقية صيد، وكان من المعروف عنه تعامله الوحشي مع الفلاحين، الذين كانوا يقولون: "حين تُسلِّمه رسالة ــ ترتجف يداك ورجلاك!"، فخرج تيخون إيليتش إلى جانب الطريق

لملاقاته. ونظر إليه رافعاً حاجبيه، قائلاً في سرّه: "يا له من عجوز أحمق: إيْه، الفيلة تتنزه في الوحل".

وصاح بودّ:

ــ ألِلى الحقل يا أنطون مكاريتش؟

توقف صاحب البريد، فاقترب منه تيخون إيليتش مسلماً.

ــ هِهْ، عن أي حقل تتكلم! ــ أجاب صاحب البريد عابساً. كان ضخماً، مقوّس الظهر، ذا شعر رمادي كثيف يتدلى من أذنيه وخيشوميه، وحاجبين كبيرين مقوّسين، وعينين غائرتين عميقاً ــ أتمشّى هكذا، بسبب البواسير ــ قال ذلك مبدياً حرصاً خاصاً في لفظه الكلمة الأخيرة.

ــ ولكن، حطّ في بالك، ــ قال تيخون إيليتش متعاطفاً بحرارة غير متوقعة، وهو يمدّ يده المفرودة الأصابع ــ حطّ في بالك: منطقتنا باتت خالية تماماً! الأسماء لم يعد لها وجود ــ لا فرق بين الطيور والوحوش يا سيدي!

ــ لقد قطعوا الغابات في كل مكان، قال صاحب البريد، فالتقط تيخون إيليتش الكلام وقال:

ــ نعم، ويا له من قطع جائر! لقد اجتثوها يا سيدي! من الجذور!

ثم تابع فجأة:

ــ بهتت الألوان يا سيدي! كل شيء بهت لونه!

لم يكن تيخون إيليتش نفسه يعرف لماذا انفلت لسانه بهذه العبارة، لكنه أحس، مع ذلك، أن ما قيل لم يكن عبثاً. فردد في

سره: "كل شيء بهت لونه، كالماشية بعد شتاء طويل صعب..." وظل طويلاً، بعد أن ودع صاحب البريد، واقفاً على الطريق يتأمل ما حوله باستياء. عاد المطر يتساقط رذاذاً، وهبت ريح رطبة منفّرة. وفوق الحقول المتماوجة ــ المتروكة، والمفلوحة، والمحصودة، وفوق الأحراج الصغيرة ذات اللون البني، حلّ الظلام وراحت السماء الداكنة تهبط تدريجياً نحو الأرض. أما الطرق التي غمرها المطر فكانت تلتمع بلون القصدير. في المحطة كانوا ينتظرون قدوم قطار البريد الذاهب إلى موسكو، وقد انتشرت من هناك رائحة السماور، فأيقظ هذا فيه رغبة حزينة في الراحة، في غرفة دافئة نظيفة، في أسرة...

هطل المطر من جديد في الليل. كانت الظلمة تفقأ العين. وكان نوم تيخون إيليتش سيئاً، فقد ظل يصرّ على أسنانه صريراً مؤلماً. أصابته بَرْداء، ــ لا بد أن البرد لفحه في أثناء وقوفه على الطريق مساء، ــ انزلق المعطف السميك الذي تدثّر به على الأرض، وحينذاك حلم حلماً كان يطارده منذ الطفولة، كلما برد ظهره في الليل: الوقت مساء، وحارات ضيّقة لا يعرفها، وحشد يتراكض، ورجال إطفاء في عربات ثقيلة تجرها بغال سوداء شرسة... أفاق من نومه، أشعل عود ثقاب، نظر إلى المنبّه، ــ المنبّه يشير إلى الثالثة ــ رفع المعطف السميك عن الأرض، وتملّكه القلق وهو يحاول النوم من جديد: قد ينهبون الدكان، أو يسرقون الخيل...

كان يتوهم أحياناً أنه في الخان في دانكوفا، وأن المطر الليلي يصخب فوق مظلة البوابة، فينتفض انتفاضات متلاحقة، ويرن الجرس الصغير فوق المدخل، ــ ها قد جاء اللصوص واقتادوا في هذا الليل الدامس مهره، سيقتلونه إن عرفوا أنه هنا... ولكن وعي الواقع كان يعود إليه في أحيان أخرى. غير أن الواقع مقلقٌ أيضاً. كان العجوز يمشي جيئة وذهاباً تحت النوافذ داقّاً دفّه، فيوحي له ذلك أنه في مكان بعيد ــ بعيد، ويَسمع صوت "بويان" يزدرد لعابه وهو يعض أحدهم، ثم يركض هارباً نحو الحقل مطلقاً عواء عاصفاً، لكنه يظهر فجأة تحت النوافذ من جديد، يحاول إيقاظه، وهو يهمهم بعناد واقفاً في مكان واحد لا يغادره. آنئذ فكّر تيخون إيليتش بالخروج ليرى ماذا هناك، وهل كل شيء على ما يرام. وما إن حسم أمره وقرر النهوض، حتى شرعت حبات كبيرة من المطر تطرق بكثافة أكبر وغزارة أكبر، النوافذ الصغيرة المعتمة. كان المطر يهطل بخط مائل تسوقه الريح من الحقول المظلمة اللامتناهية. فبدا له النوم أحب من أمه وأبيه...

انفتح الباب أخيراً، وسرت في الغرفة برودة رطبة، ــ كان الحارس جميخ يثير خشخشة وهو يجرّ إلى المدخل حزمة من القش. وفتح تيخون إيليتش عينيه: الضوء عكر محمّل بالرطوبة، وزجاج النوافذ يغطيه البخار.

ــ أشعل الموقد، أشعل الموقد يا أُخيّ، ــ قال تيخون إيليتش بصوت أبح من آثار النوم ــ ثم لنذهب فنقدم العلف للماشية، وبعد ذلك، اذهب ونمْ.

أما العجوز، الذي هزل جسده في الليل، وازرقّ كله من البرد والرطوبة والتعب، فنظر إليه بعينين غائرتين ميتتين. كانت طاقيته المصنوعة من الفراء مبتلة، وسترته القوزاقية القصيرة مبتلة، وحذاؤه الممزق المصنوع من اللباد مشبّع بالماء والوحل. دمدم بصوت أجشّ عبارة ما متذمّراً، وهو يجثو بصعوبة على ركبتيه أمام الموقد، وراح يحشوه بالقش الفواح الرائحة وينفخ في الرماد.

ــ هل لاكت البقرة لسانك؟ صاح تيخون إيليتش بصوت أجش، وهو ينزل عن السرير ــ ما الذي تدمدمه تحت أنفك؟

ــ قضيت الليل كلّه متجوّلاً، والآن ــ قدِّم العلف، ــ برطم العجوز من دون أن يرفع رأسه، فبدا كمن يحدث نفسه.

فنظر تيخون إيليتش إليه بطرف عينه:

ــ شفْتك أنا، كيف كنت تتجول!

ــ أوخ! ــ قال وهو يغمض عينيه ويهز رأسه، ــ أوخ، أيتها الأم، يا ربة السماء!

ارتدى المعطف المبطّن، وخرج، متغلباً على الارتعاش الطفيف في بطنه، إلى الشرفة، إلى النضارة الجليدية لذلك الصباح الشاحب الماطر. المكان كله ممتلئ ببرك رصاصية من الماء، والجدران كلها باتت كامدة اللون بفعل المطر. كان ثمة رذاذ خفيف، فقال في سره: "ولكن، من المؤكد أن المطر سينهمر عند الظهر". ثم نظر بدهشة إلى "بويان" المشعّث الشعر، الذي اندفع نحوه من وراء إحدى الزوايا: العينان تلمعان، واللسان

نضر أحمر كالجمر، والأنفاس حارة تنشر الرائحة الكلبية بقوة... ذلك كله بعد ليلة كاملة من الركض والعواء!

اقتاد "بويان" ممسكاً بالطوق المحيط برقبته ومضى يخوض في الوحل، طاف على كل الأمكنة متفقداً كل الأقفال، ثم ربط "بويان" بسلسلة قرب العنبر، وعاد إلى المدخل، ألقى نظرة على المطبخ الكبير، والعزبة. في العزبة دفء ورائحة كريهة؛ الطباخة تنام على دكة خشبية عارية مغطية وجهها بصدريتها، كاشفة فخذها طاوية إلى بطنها ساقيها المدسوستين في حذاء عتيق من اللباد، ذي نعل سميك محّ من كثرة المشي فوق أرض الغرفة الترابية؛ أما أوسكا فنائم على المصطبة فوق الموقد بمعطفه القصير المصنوع من الفراء، وحذائه المجدول من الألياف، وقد دسّ رأسه في وسادة ثقيلة قذرة.

فقال تيخون إيليتش في سرّه وهو يشعر بالاشمئزاز: "تعالق الشيطان وابن الرب! ويحها، قضت الليل كله في الدعارة، وقبيل الصبح ــ وضعت نفسها على الرف!"

وبعد أن تأمل الجدران السوداء، والنوافذ الصغيرة، والطست الممتلئ بالماء القذر، والموقد الضخم ذا الجنبين العريضين، صاح بصوت مرتفع صارم:

ــ هـــــــيي! أيها السادة النبلاء! آن لكم أن تعرفوا الشرف!

وفي الوقت الذي كانت فيه الطباخة تشعل الموقد، وتطهو البطاطا للخنازير وتوقد نار السماور، كان أوسكا، عاري الرأس، يحمل العلف للخيل والبقرات، متعثراً في مشيته بسبب النعاس.

فتح تيخون إيليتش بنفسه بوابة الحظيرة الصدئة وكان أول من دخل فضاءها الدافئ القذر الذي توزعت فيه الأسقف المحمولة ومعالف الخيول والدفيئات. كانت الأوساخ المتراكمة في الحظيرة تعلو بطة الساق. براز الحيوانات والبول والمطر ــ كل ذلك امتزج مشكلاً كتلة هلامية كثيفة بنية اللون. والخيول التي دكن لون وبرها الشتوي المخملي راحت تتدافع تحت الأسقف الواقية من المطر. وتكومت الأغنام كتلة رمادية قذرة في زاوية واحدة. وكان ثمة بغل عجوز يغالب النوم وحيداً بالقرب من معلف فارغ ملطخ بالوحل، والمطر يهطل ويهطل خفيفاً من السماء العابسة العكرة فوق الفناء المربع. وراحت الخنازير تنقّ نقيقاً مرضياً ملحّاً، وتخرخر في دفيئتها.

"سأم" ــ قال تيخون إيليتش في سره، وفي الحال صرخ بوحشية مخاطباً العجوز الذي كان يجر حزمة من القش:

ــ ما بالك تجرّها في الوحل، أيها الــ "تراندا" العجوز؟ ألقى العجوز بالقش على الأرض، ونظر إليه، ثم قال فجأة بصوت هادئ:

ــ الــ "تراندا" هو من أسمعه.

تلفت تيخون إيليتش حوله بسرعة، ــ هل خرج الصبي، ــ وبعد أن تأكّد من خروجه، اقترب بسرعة، وبهدوء ظاهر، من العجوز ولكمه على أسنانه لكمة طوّحت برأسه إلى الخلف، ثم أمسك بياقة سترته وقذفه بكل ما أوتي من قوة في اتجاه الباب، صارخاً بصوت مخنوق، ووجهه شاحب كالحوّار:

ــ انقلع، ولتختف حتى رائحة روحك من هذا المكان أيها التافه!

طار العجوز خارج البوابة ــ وبعد خمس دقائق كان يمشي على الطريق عائداً إلى بيته، حاملاً كيساً على كتفه وممسكاً عصاً بيده. سقى تيخون إيليتش المهر بيدين راجفتين ووضع له في المعلف شعيراً طازجاً، ــ لم يأكل شعير البارحة، بعثره فقط، وبلله بلعابه، ــ ثم مشى إلى العزبة بخطوات واسعة وقدماه تغوصان في الوحل الهلامي وروث الحيوانات.

فتح الباب وصاح ــ هل الأمور جاهزة؟

فدمدمت الطباخة باستياء: طوّل بالك!

امتلأ جو العزبة ببخار حار مزّ الطعم تصاعد من قدر البطاطا. كانت الطباخة والصبي يدقان بعنف حبات البطاطا بمخابيط ويرشانها بالدقيق. وبسبب الدق لم يسمع تيخون إيليتش الجواب، فصفق الباب وذهب ليشرب الشاي.

في المدخل الصغير أزاح برجله سرج حصان ثقيل قذر كان عند العتبة، ثم توجه إلى زاوية المكان، حيث كان على طاولة صغيرة طست من القصدير ثبت فوقه صنبور من النحاس لغسل الأيدي وثمة على رفّ صغير قطعة صغيرة قذرة من صابون الكوكس[1]. نظر بطرف عينه، وهو يقرقع بالصنبور، وحرّك

---

[1] ـ نوع من الصابون الرديء

حاجبيه، ونفخ الهواء من منخريه، وعيناه الغاضبتان تدوران دون توقف، وقال بوضوح شديد:

ـــ يا لهؤلاء العمال التافهين! تقول له كلمة ـــ يجيبك بعشر كلمات، تقول له عشر كلمات ـــ يجيبك بمئة! لا، أنت تهذي! هذا ليس بسبب الصيف، لعله بسبب كثرتكم يا شياطين! حين يحلّ الشتاء ستطلب الطعام يا صاحبي، ـــ وستأتي، يا ابن الكلب، ستأتـــ ـــ ـــي، وستنحنـــــــــي أمامي!

كانت المنشفة على حالها، معلقة قرب الصنبور منذ عيد القديس ميخائيل. وكانت متسخة من كثرة الاستعمال إلى حدّ جعل تيخون إيليتش يكزّ على فكيه وهو ينظر إليها، ويقول، مغمضاً عينيه، هازّاً رأسه: آه، آه، يا أمّنا، يا سيدة السماء!

في المدخل بابان، باب إلى اليسار ـــ يؤدي إلى غرفة الزائرين، وهي غرفة مستطيلة، نصف معتمة، تطل نوافذها الصغيرة على الحظيرة؛ وفيها مقعدان مستطيلان، قاسيان كالحجر، مغلفان بمشمّع أسود، ومحشوّان بحشرات البق الحية والميتة الجافة، وعلى الجدار بين نافذتين، عُلّقت صورة جنرال انتصب شعر سالفيه على جانبي وجهه كلحية كلب الماء، وقد أحاطت به مجموعة من صور أبطال الحرب الروسية ـــ التركية، وثمة في أسفل اللوحة كتابة جاء فيها: "سيبقى أبناؤنا وإخوتنا السلافيّون زمناً طويلاً يتذكرون الأعمال المجيدة، كيف أن أبانا، المقاتل الشجاع، هزم سليمان باشا، وانتصر على الأعداء الكافرين، واجتاز، مع أبنائه، دروباً في أعالي الجبال لا

تبلغها سوى سحب الضباب وقياصرة عالم الطير". أما الباب الآخر فيؤدي إلى غرفة أهل البيت. إلى اليمين، قرب الباب، خزانة صحون يلتمع زجاجها، وإلى اليسار، موقد أبيض سطحه

دِكّة للنوم؛ موقد كان قد تصدّع ذات يوم فرقّعوا الصدع بالطين، فارتسمت فوق جداره الأبيض المتصدع ملامح شيء ما، يشبه رجلاً نحيلاً مكسور الظهر كان تيخون إيليتش قد ملّ منظره مللاً شديداً. ووراء الموقد سرير مرتفع لشخصين، عُلّقت على الجدار فوقه سجادة من خيوط الصوف الأخضر العكر والقرميدي، تصور نمراً مشورباً بأذنين منتصبتين كآذان القطط. وعند الجدار المقابل للباب خزانة صغيرة مجلّلة بغطاء مشغول يدوياً، وفوقه علبة زينة ناستاسيا بتروفنا في يوم عرسها...

- إلى الدكان! - صاحت الطباخة وهي تفتح الباب نصف فتحة. كان الضباب المشبع بالماء ممتداً حتى الأفق، وقد بدا النهار شبيهاً بالمساء، واستمر هطول المطر رذاذاً، ولكن الريح غيّرت وجهتها، وباتت تهب من الشمال - فغدا الهواء أكثر نضارة. وعلا في المحطة زعيق قطار البضائع المغادر بصوت أكثر مرحاً ورنيناً مما كان عليه في الأيام الأخيرة كلها.

- سلام يا إيليتش، - قال رجل مثلّث الشفاه، وهو يحني قلنسوته المنشورية المبللة، ويمسك لجام حصانه الأبلق المبلل الواقف عند المدخل.

- سلام، - أجاب تيخون إيليتش باقتضاب وهو ينظر بطرف عينه إلى السنّ البيضاء القوية التي كانت تلتمع تحت شفة الرجل المزدوجة. - ماذا تريد؟

أعطاه طلبه من الملح والكيروسين بسرعة، وبسرعة مشى عائداً إلى البيت، وهو يبرطم: ــ كلاب! لا يتركون لك فرصةً، حتى لرسم الصليب على جبينك!

كان السماور الموضوع على الطاولة بالقرب من الجدار بين نافذتين، يغلي ويبقبق، والمرآة الصغيرة المعلّقة فوق الطاولة تهتزّ بفعل البخار الأبيض المتصاعد، وقد تعرّق زجاج النافذتين والصورة الملوّنة المثبتة تحت المرآة، ــ صورة عملاق بقفطان أصفر وحذاء عال من الجلد أحمر اللون، يحمل بيديه راية روسية، تطل من ورائها أبراج كرملين موسكو ومحارسه. وثمة صور فوتوغرافية صغيرة في إطارات من الصدف تحيط بهذه اللوحة. وفي المكان الأكثر وجاهةً عُلّقت صورة رجل دين بروفوسلافي[1] مشهور يرتدي جبّة حريرية لمّاعة، لحيته صغيرة خفيفة الشعر، وخدّاه متورّمان، وعيناه صغيرتان نفّاذتان. نظر إليه تيخون إيليتش، ثم رسم شارة الصليب بخشوع أمام أيقونة في الزاوية. بعد ذلك، رفع عن السماور إبريق الشاي المسودّ من كثرة الاستعمال، وصبّ كأساً من الشاي فاحت منه بقوة رائحة العشب المغلي.

ــ "لا يدعون لك فرصة لرسم الصليب، ــ قال في سره، وقد تقلّصت عضلات وجهه تعبيراً عن الألم، ــ ذبحوني، لعنهم اللـــه!"

---

[1] ـ البروفوسلافية هي مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

بدا له أنّ عليه أن يتذكر شيئاً ما، أن يفعل شيئاً، أو، ببساطة، أن يتمدد ويشبع نوماً. وشعر برغبة في الدفء، والهدوء، وصلابة الأفكار. نهض واقترب من خزانة الأواني، التي قرقعت فيها الأكواب والصحون الزجاجية، فأخذ عن الرف زجاجة عنبرية مخمّرة من التوت البري، وكأساً صغيرة مكعبة كتب عليها: "يشربها حتى الرهبان"...

ــ هل يعني ذلك أنها ممنوعة؟ ــ قال بصوت مسموع، ثم ملأ الكأس وشربها، وملأها ثانية وشربها أيضاً. ثم جلس إلى الطاولة وهو يقضم كعكة ثخينة.

شرب الشاي الساخن بنهم من الصحن الصغير الذي وضع فيه الكأس، وراح يمصّ قطعة سكر ثبّتها تحت لسانه. وألقى، وهو يشرب الشاي، نظرة زائغة متشككة على الجدار بين النافذتين، والرجل ذي القفطان الأصفر، والصور المؤطرة بالصدف، وحتى على القديس ذي الجبّة الحريرية.

"لا حاجة لنا في الدين، نحن الخنازير!" ــ قال في سرّه، ثم أضاف بفظاظة وكأنه يبرئ نفسه أمام مجهول: ــ جرّبِ العيش في القرية، وغُبَّ حساء الملفوف المحمَضّ!

وشعر، وهو ينظر شزراً إلى رجل الدين، أن كل شيء مدعاة للشك... حتى إن تبجيله المعتاد لهذا القديس بدا له مثيراً للشك وغير مدروس... لو فكّر المرء جيداً...

وهنا، نقل نظره بسرعة إلى كريملين[1] موسكو.

وبرطم قائلاً: من العار أن أعترف بأني لم أزر موسكو أبداً!

نعم لم أزرها. لماذا؟ الخنازير منعتني! كانت التجارة تمنعني تارة، والخان تارة، والخمارة تارة ثالثة. والآن، يمنعني المهر، والخنازير. ولمَ الذهاب بعيداً والتفكير بموسكو! عشر سنوات وأنا أتهيأ عبثاً للذهاب إلى حرج أشجار البتولا وراء الطريق العامة. لقد كنت آمل دائماً أن أنتزع، بشكل ما، مساء لا عمل فيه، فآخذ معي بساطاً وسماور، وأجلس على العشب، في البرودة المنعشة، بين النباتات الخضراء، ــ ولم أتمكن من انتزاعه... كانت الأيام تنزلق كما ينزلق الماء من بين الأصابع، في غفلة مني بلغت الخمسين. وقريباً ــ قريباً سينتهي كل شيء، ولكن، أمن زمن بعيد كنت أركض، كما يقال، من دون سراويل؟ لكأن هذا كان البارحة!

الوجوه تطلّ ساكنة من الإطارات الصدفية. هناك، على الأرض (ولكن بين سنابل القمح الكثيفة) يتمدد اثنان ــ تيخون إيليتش نفسه والتاجر الشاب روستوفتسيف ــ يمسك كل منهما بيده كأساً ممتلئة إلى نصفها بالبيرة السوداء... ما أقوى الصداقة التي انعقدت بين روستوفتسيف وتيخون إيليتش! ولشد ما رسخ في الذاكرة ذلك اليوم الرمادي من أيام الفصح، الذي التقطت فيه هذه الصورة! ولكن، في أي عام كان ذلك؟ أين اختفى

---

[1] - الكريملين: دير موسكو المركزي الذي أصبح مقرّاً للقياصرة ثم لرئاسة الدولة.

روستوفتسيف؟ إنه ليس متأكداً الآن من أن روستوفتسيف حيّ أو ميت... وها هم ثلاثة من أبناء المدينة يقفون في صف مستقيم متحجرين، منتصبي القامة في المقدمة، شعورهم ملساء ممشطة، يرتدون قمصاناً مطرزة وسترات طويلة وينتعلون أحذية عالية نظيفة ــ إنهم بوتشنيف وفيستافكين وبوغومولوف. فيستاكفين، ذاك الذي في الوسط، يحمل أمام صدره الخبز والملح في صحن خشبي مغطى بمنشفة مطرزة بالديكة، أما بوتشنيف وبوغومولوف فيحمل كل منهما أيقونة. لقد تمّ تصويرهم في يوم عاصف، أغبر، جرى فيه تدشين صومعة الحبوب، ــ يومذاك حضر القساوسة والمحافظ، ويومها كان تيخون إيليتش فخوراً لأنه اختير بين الجمهور الذي رحّب بالقيادات. ولكن، ماذا بقي في الذاكرة من ذلك اليوم؟ لا شيء، سوى أنهم انتظروا خمس ساعات قرب صومعة الحبوب، وأن سحباً من الغبار الأبيض كانت تطير في الريح، وأن المحافظ بدا جثة طويلة ونظيفة ترتدي سراويل بيضاء عليها شريطان مذهبان، وسترة وقبعة مثلثة مطرزتين بخيوط ذهبية، وأنه سار نحو المستقبلين بهدوء غير عادي... وأنه كان مخيفاً جداً حين تكلّم، وهو يتناول الخبز والملح[1]، وأن الجميع صعق بنحول يديه غير المألوف، وبياضهما، وجلدهما الرقيق جداً واللمّاع كجلد الحية، وبالخواتم النظيفة المرصعة بالأحجار الكريمة وغير المرصعة في أصابعه

[1] ـ من عادات الروس استقبال الضيوف الكبار بالخبز والملح.

النحيلة الجافة ذوات الأظافر الطويلة الشفافة... الآن، لم يعد هذا المحافظ بين الأحياء، ولم يعد فيستافكين بين الأحياء أيضاً... وبعد خمس أو عشر سنوات سيقولون كذلك عن تيخون إيليتش:

ــ المرحوم تيخون إيليتش...

الجو في الغرفة صار أكثر دفئاً وحميمية بفضل الموقد المشتعل، صفا وجه المرآة، ولكن، لا شيء يرى من خلال النوافذ التي غطى زجاجها بخار كالح أبيض، ــ هذا يعني أن الجو في الفناء ازداد برودة. وازداد علوّاً أنين الخنازير الجائعة الرتيب، ــ وفجأة تحوّل هذا الأنين إلى زئير جماعي قوي: من المؤكد أن الخنازير سمعت صوت الطباخة وأوسكا وهما يجران طست العلف الثقيل إلى الحظيرة. رمى تيخون إيليتش سيجارته في سطل النفايات قبل أن ينهي تفكيره بالموت، ثم سوّى معطفه السميك على كتفيه وأسرع نحو الحظيرة. سار بخطا واسعة وقدماه تغوصان عميقاً في الروث اللزج، وفتح باب الدفيئة بنفسه، ثم ظل طويلاً يتأمل بعينين نهمتين، حزينتين، الخنازير التي اندفعت نحو المعلف الذي دُلق فيه الخليط وقد تصاعد منه البخار.

تخلّلت فكرة الموت فكرةٌ أخرى: المرحوم مرحوم، ولكن هذا المرحوم قد يُضرب به المثل. من كان؟ يتيماً، فقيراً، كان، في طفولته، لا يحظى، ربما طول يومين، بكسرة خبز يأكلها... والآن؟ لقد قال له كوزما ساخراً ذات يوم: يجدر بهم أن يدوّنوا سيرة حياتك.

ولكن ليس في هذا ما يثير السخرية: هذا يعني أن بين الكتفين رأساً يعمل، ما دام الطفل الفقير، الذي يكاد لا يعرف القراءة، لم يتحول إلى تيشكا(١)، بل صار تيخون إيليتش...

أما الطباخة، التي كانت تنظر بثبات أيضاً إلى الخنازير وهي تتزاحم وقد غرست أقدامها الأمامية في المعلف، فتنحنحت ثم قالت فجأة:

- آه، يا إلهي! أخاف أن تحلّ بنا كارثة لا قدّر اللـــه! إني أرى في منامي هذه الأيام، أنهم ساقوا إلينا في الخان مواشي، ساقوا نعاجاً وأبقاراً وخنازير، وغير ذلك... ولكن كلها سوداء، كلها سوداء!

انقبض قلبه من جديد. طيّب، هي ذي المواشي نفسها! بسبب المواشي وحدها قد يشنق المرء نفسه. لم تنقض بعد ثلاث ساعات، ــ ولكن عليك أن تحمل المفاتيح مرة ثانية، ومرة ثانية عليك أن تنقل العلف لكل ما في الخان. في المبقرة الجماعية - ثلاث بقرات حلاّبات ، وفي المبقرتين المنفردتين - العجلة

---

(١) تصغير لاسم تيخون ينم على الاحتقار.

الحمراء والثور بيسمارك[1]: يجب أن تقدّمَ لها التبن الآن. أما الخيول والنعاج فيجب أن تقدّم لها العشب اليابس على الغداء، وأما المهر ــ فالشيطان وحده يعرف ماذا يمكن أن تطعمه! دسّ المهر سحنته من خلال الشبك في أعلى الباب، ورفع شفته العليا كاشفاً نيرته الوردية وأسنانه البيضاء، وقلّص منخريه... فصرخ تيخون إيليتش في وجهه فجأة، بغضب لم يكن هو نفسه يتوقعه:

ــ تشيطنْ يا كافر، ليت صاعقة تقتلك!

ابتلت قدماه من جديد، فأحس بالبرد ــ هطل الثلج حبيباتٍ ــ ومن جديد شرب عنبرية التوت البري، وأكل بطاطا مغموسة بزيت عباد الشمس، وخياراً مخلّلاً، وملفوفاً مطبوخاً بمرق الفطر، وقمحاً مسلوقاً... احمرّ وجهه وأحس بثقل في رأسه.

استخدم ساقيه في خلع حذائه القذر، ثم استلقى في السرير من دون أن يخلع ملابسه، ولكن أقلقه أنه سيضطر بعد قليل إلى النهوض مجدداً: يجب أن يقدم للخيول والأبقار والنعاج القشّ والشعير، وللمهر ــ أيضاً... أو أن الأفضل أن أخلط الشعير بالتبن، ثم أبلّله وأملّحه جيداً... لكن، من المؤكد أن النوم سيغلبك إذا تركت العنان لنفسك. مدّ تيخون إيليتش يده إلى الطاولة الصغيرة، أخذ المنبه وراح يشغّله. انبعثت الحياة في المنبه،

---

[1] - بيسمارك اسم حاكم ألمانيا وموحّدها وقد سمى بونين ثور الفلاح "بيسمارك" تعبيراً عن شعور الكراهية والازدراء الذي كان الروس يكنونه للألمان آنذاك.

فشرع يتكتك، وبدا أن جوّ الغرفة صار أكثر هدوءاً بفضل تكتكته الموزونة.

واختلطت الأفكار في رأسه...

ولكن، ما إن اختلطت أفكاره، حتى تردد فجأة غناء كنسي فظ ومرتفع. ففتح تيخون إيليتش عينيه خائفاً، غير أنه لم يميّز لأول وهلة سوى شيء واحد: ثمة رجلان ريفيان يصيحان بصوت أخن، وبرد ورائحة سترات قوزاقية مبتلة يأتيان من المدخل. قفز من السرير، ثم جلس يتفحص هذين الرجلين: أحدهما كان أعمى، في وجهه نمش، أنفه صغير، وشفته العليا طويلة، ورأسه كبير كروي الشكل، أما الآخر فكان ماكار إيفانوفيتش نفسه!

فيما مضى كان ماكار إيفانوفيتش مجرد ماكاركا ـــ جميعهم كانوا ينادونه: "ماكاركا الدرويش" ـــ وقد زار خمّارة تيخون إيليتش ذات يوم. كان يهيم على الطريق ـــ منتعلاً حذاء مجدولاً من الألياف، ومعتمراً قبعة رقيقة من المخمل الأسود، ـــ مرتدياً جبّة سوداء قذرة ضيقة الأكمام، ـــ وهكذا دخل إلى الخمارة. في يده عصا طويلة مدهونة بلون نحاسي، في نهايتها العلوية صليب، وفي نهايتها السفلية رمح، ويتصالب على كتفيه نطاقان عُلّقت بهما مطرة عسكرية؛ شعره طويل أصفر؛ وجهه عريض لونه كلون العجين، ومنخراه كفوهتي جفت الصيد، وأنفه مقعر كظهر سرج الحصان، وعيناه فاتحتان، حادتا البريق، كالعيون التي تكون عادة لأصحاب الأنوف الشبيهة بأنفه، وقد بدا وقحاً فطِناً وهو يدخّن سيجاره بنهم مطلقاً الدخان عبر منخريه،

ويتحدث بخشونة حديثاً متقطعاً بلهجة تنفي تماماً كلّ إمكانية للاعتراض. هذه اللهجة عينها هي ما أعجب تيخون إيليتش كثيراً، إذ أظهرت له في الحال، أن "ابن الكلب هذا مجرّب".

أبقاه تيخون إيليتش عنده لخدمته. خلع عنه ملابس الدراويش وأبقاه. غير أن ماكاركا كان لصاً من نوع أرغمه على ضربه بقسوة وطرده. وفي خلال عام اشتهر ماكاركا في المنطقة كلها بأفعال شريرة إلى حدّ جعل الناس يخشون مجرّد قدومه، خشيتهم من النار. كان يقترب من نافذة بيت أحدهم فيلطخها باليود، ويصيح بصوت ممطوط "جعلك اللـــه مع القديسين بعد الموت"، أو يعطيه قطعة من البخور، أو قبضة من الغبار – بعد ذلك، لن ينجو البيت من موت أحد أفراده.

يقف ماكاركا الآن بثيابه المعتادة والعصا في يده، عند العتبة منشداً، فيرد عليه الأعمى بالإنشاد أيضاً وهو يرقّص عينيه الحليبيتين تحت جبينه، وبسبب انعدام التناسب بين قسماته قرر تيخون إيليتش على الفور أنه فارٌّ من المحكومين بالأشغال الشاقة، ووحش مخيف لا يعرف الرحمة. ولكنّ الأكثر إثارة للخوف هو ما كان ينشده هذان المتشردان. كان الأعمى يحرك حاجبيه المرفوعين إلى أعلى عابساً، وهو ينشد بجرأة وبصوت رفيع مقرف أخن. أما ماكاركا فكانت عيناه الجامدتان تلتمعان التماعاً حاداً وهو يهدر بصوت ثخين متوحش. وقد نتج عن ذلك إنشاد بصوت مرتفع جداً، مركّب بفظاظة، للحن كنسي قديم، مسيطر ومنذر.

ستبكي أمّنا، الأرض – الرطبة، ستنوح

يُتَرْغِل الأعمى.

ســ ــ تبــ ــ كي، ســـــ ــ تنو ــ ح

ردّد ماكاركا بإيمان

في يوم الخلاص، أمام صورة الربّ، ــ زعق الأعمى

سيندم الآثمون!

أنشد ماكاركا منذراً، وهو يفتح منخريه الوقحين، ثم تابع بصوت الواثق، مدمجاً صوته الثخين بصوت الأعمى الرفيع:

لن ينجوا من محكمة الرب
لن ينجوا من النار الخالدة

توقف فجأة ــ منسجماً مع الأعمى، ــ وصاح، ببساطة، بلهجته الوقحة المعتادة، آمراً:

ــ تكرّم علينا يا تاجر بقدح يدفئنا.

ومن دون أن ينتظر الجواب اجتاز العتبة مقترباً من السرير، ودسّ في يد تيخون إيليتش صورة ما.

كانت هذه، مجرّد صورة منزوعة من مجلة مصورة، ولكن ما إن نظر إليها تيخون إيليتش حتى شعر ببرد مفاجئ في أعلى معدته: تحت اللوحة التي تصور أشجاراً انحنت بفعل العاصفة، وخطاً أبيض متعرجاً يخترق السحب ويصيب رجلاً يسقط على الأرض، كتابة تقول: "جان ــ بول ريختر، قتلته الصاعقة".

انكمش تيخون إيليتش خوفاً.

ولكنه، على الفور، مزّق اللوحة ببطء نتفاً صغيرة. ثم نهض عن السرير وقال وهو ينتعل حذاءه:

ــ اذهب، وخوِّف من هو أكثر مني حماقة. أنا، يا صاح، أعرفك جيداً! خذ ما تُعطى، وامض برعاية اللـــه.

ذهب بعد ذلك إلى الدكان فأحضر لماكاركا والأعمى، اللذين كانا يقفان قرب المدخل، فونطين من الكعك، وسمكتين مملحتين، ثم كرّر قوله بلهجة أشد صرامة: برعاية اللـــه!

ــ وماذا عن الدخّان؟ سأل ماكاركا بوقاحة.

ــ الدخّان، نفقَ عندي من زمان، ــ أجابه تيخون إيليتش بحدة. ــ أنت، يا صاح، لن تغلبني بالكلام! ثم، بعد صمت، أضاف:

ــ الخنقُ قليل عليك يا ماكاركا جزاء مغامراتك!

فالتفت ماكاركا إلى الأعمى الذي كان يقف منتصب القامة، ثابتاً، وحاجباه مرفوعان عالياً وسأله:

ـ ما رأيك يا رجل اللـــه؟ الخنق أم الرمي بالرصاص؟

ـ الرمي بالرصاص، ـ أجاب الأعمى بلهجة جادة. ـ فهنا، على الأقل، يتم الأمر مباشرة.

حلّ المساء، فازرقت كتل الغيوم المتراكمة، وازدادت برودةً، نافثةً رائحة الشتاء. وصار الوحل كثيفاً. صرف تيخون إيليتش ماكاركا، وخبّط بقدميه اللتين قرصهما البرد على أرض الشرفة، ثم دخل إلى غرفته. وغرق في أفكاره من جديد. تذكّر الصيف، والتمرد، ومولودايا، وأخاه، وزوجته... وأنه لم يدفع حتى الآن أجور العمال.

لقد كان من عادته أن يماطل في الدفع ـ كان العاملون عنده بالمياومة، من البنات والفتيان، يقفون أياماً كاملة في الخريف، في بابه، يشتكون من الفقر المدقع، ويغضبون، ويقولون كلاماً نابياً أحياناً. ولكنه يظل صامداً، يصرخ، مشهّداً الرب أنه "لا يملك كوبيكين في بيته كله، وليفتش من لا يصدق!" ـ يقلب بطانة جيوبه ومحفظة نقوده، ويبصق متظاهراً بالغضب، وكأنه منذهل من شك المطالبين بصدقه، "وقلة حيائهم"... بدت له هذه العادة قبيحة الآن. لقد كان قاسياً لا يرحم، وبارداً في معاملة زوجته، وغريباً عنها غربة نادرة المثال. وفجأة، أصابه هذا بالذهول أيضاً: يا إلهي، إنه حتى لا يعرف شيئاً عن الإنسان الذي كانته! كيف عاشت، بماذا فكّرت، ما الذي كانت تشعر به كل هذه الأعوام التي عاشتها معه في هموم متواصلة؟

رمى سيجارته وأشعل أخرى... أوه، ذكي هذا الشيطان ماكاركا! أتراه يستطيع، مادام ذكياً، أن يتنبأ ــ من ومتى، وماذا ينتظره؟ إن ما ينتظره هو، تيخون إيليتش، شيء سيئ حتماً. فهو لم يعد فتياً! كم من أبناء جيله رحل إلى العالم الآخر! لا خلاص من الموت والشيخوخة. لا شيء ينقذه، حتى الأولاد. إنه، أصلاً، لم يعرف الأولاد. ولو عرفهم لكان غريباً عنهم غربته عن القريبين منه كلهم ــ الأحياء والأموات. الناس في العالم كالنجوم في السماء؛ ولكن الحياة قصيرة جداً، إنهم بسرعة يكبرون ويكتهلون ويموتون، لا يعرف أحدهم عن الآخر إلا القليل، وبسرعة ينسون كل ما عاشوه. إنه لأمر يدفع إلى الجنون لو فكّر المرء فيه مليّاً! ها هو ذا قد قال لنفسه بالأمس:

ــ يجب أن توصف حياتي...

ولكن ما الذي فيها يمكن أن يوصف؟ لا شيء، لا شيء، لا شيء أو لا شيء يستحق الوصف. إنه، هو نفسه، لا يذكر شيئاً تقريباً من تلك الحياة. فهو، مثلاً، نسي طفولته تماماً: قد يتذكر، مصادفة، ملامح يوم من أيام الصيف، حادثة ما، واحداً من أترابه... قطة أحدهم، أحرقها فعاقبوه بالضرب، طوقاً مجدولاً وصفارة أهديا له فأحس بفرح عارم. أباه السكران وقد ناداه يوماً بصوت حنون حزين:

ــ اقترب مني يا تيشا، اقترب يا حبيبي!

ثم جرّه فجأة من شعره...

لو كان "المشكلجي" إيليا ميرونوف حيّاً لأطعم تيخون إيليتش ذلك العجوز بدافع الشفقة وهو لا يعرفه، بل يكاد لا يلحظه. كذلك كانت حال أمه، فلو سألته الآن: أتذكر أمك؟ لأجابك: أذكر امرأة عجوزاً محنية الظهر... تجفف الروث، وتشعل الموقد، وتشرب الفودكا في السر، وتتذمر... ولا شيء غير ذلك. لقد خدم ما يقرب من عشر سنوات عند ماتورين، ولكن هذه الأعوام العشرة انصهرت في يوم أو يومين: مطر نيسان الخفيف ينقر ويرسم بقعاً على الألواح الحديدية التي كانت تقرقع وترنّ وهم يلقون بها في العربة بالقرب من الدكان المجاور... وظهيرة يوم شاحب صقيعي، تقع فيه طيور الحمام أسراباً صاخبة على الثلج بالقرب من دكان جار آخر يتاجر بالدقيق والحبوب، ـ تترغل وتتزاحم وترفّ بأجنحتها، ـ وهو وأخوه يسوطان بذيل ثور ذئباً صغيراً يهمهم عند المدخل... كان ماتورين آنذاك فتياً، قوياً، وجهه أحمر فيه سمرة، ذقنه حليقة ناعمة، وسالفاه أحمران مقصوصان إلى النصف. إنه الآن فقير، يمشي مشية العجائز مرتدياً معطفاً حالَ لونه بفعل الشمس، وعلى رأسه قبعة عميقة القاع، يتنقل من دكّان إلى دكّان، ومن رجل يعرفه إلى آخر، يلعب الضاما، ويجلس في خمّارة داييف، يشرب قليلاً فيثمل ويقول:

ـ نحن أناس صغار، شربنا، أكلنا، دفعنا الحساب، بعد ذلك إلى البيت!

ها هو ذا يلتقي بتيخون إيليتش فلا يعرفه، يبتسم بأسى:

ـــ هل أنت تيشا حقاً؟

بل إن تيخون إيليتش نفسه، لم يعرف أخاه الشقيق حين التقاه أول مرة في هذا الخريف: "أهذا، حقاً، كوزما الذي جاب معه الحقول والقرى والدساكر أعواماً عديدة؟"

ـــ لقد شخت يا أخي!

ـــ بعض الشيء.

ـــ لكن قبل الأوان!

ـــ ذلك لأني روسي. نحن، قلوبنا حية!

أشعل تيخون إيليتش سيجارة ثالثة وهو يلقي نظرة عنيدة متسائلة عبر النافذة:

ـــ أيعقل أن تكون الحال كذلك في البلدان الأخرى؟

كلاّ، هذا لا يمكن أن يكون. بعض معارفه كان في الخارج، ـــ التاجر روكافيشنيكوف مثلاً، ـــ وقد حكوا له... أستطيع، حتى من دون روكافيشنيكوف، أن أدرك الأمر. لنأخذ، مثلاً، الألمان الروس أو اليهود: إنهم يسلكون جميعاً سلوكاً عملياً، منضبطاً، يعرف بعضهم بعضاً، جميعهم أصدقاء، ـــ ليس فقط على مائدة السكر، ـــ ويساعد بعضهم بعضاً، وإذا افترقوا ـــ يتراسلون، يتناقلون صور الآباء والأمهات والمعارف من أسرة إلى أسرة؛ يعلّمون الأطفال، يحبونهم، يتنزهون معهم، يتحادثون وإياهم على قدم المساواة، ـــ يتبادلون الذكريات ويهتمون بمستقبل الأولاد. أما عندنا، فالكل متعادون، حسّاد، نمامون، لا يزور أحدهم الآخر أكثر من مرة في العام، يتدافعون مهتاجين إذا مرّ بهم زائر

مصادفة، يهرعون إلى الغرف يرتبونها... هذا ليس الأسوأ، إنهم يضنون على الضيف حتى بملعقة مربى! وهو لن يحصل على كأس إضافية، إذا لم يطلب ذلك...

مرت ترويكا مجهولة بالقرب من النوافذ، فتأملها تيخون إيليتش باهتمام. الخيول نحيفة ولكنها تبدو نشيطة. والعربة في حالة جيدة. إلى بيت من تراها أتت؟ ليس في هذه النواحي من يملك مثل هذه الترويكا. الإقطاعيون في هذه النواحي فقراء إلى حدّ أنهم قد يبقون ثلاثة أيام من دون خبز، لقد باعوا آخر ما لديهم من التماثيل والأيقونات، وليس لديهم ما يصلحون به الزجاج المكسور أو السطح، لذا يسدّون النوافذ بالوسائد، وينشرون الدلاء والقدور على أرض الغرف حين يهطل المطر، فالماء يدلف من السقوف كما لو كانت شِباكاً... بعد ذلك مرّ قرب النافذة دينيسكا ــ الحذّاء. إلى أين؟ ماذا يحمل؟ أتراه يحمل حقيبة؟ أوخ، يا له من أحمق، ليغفر الرب لي هذا الاثم!

دسّ تيخون إيليتش قدميه في الجزمة المطاطية وخرج إلى الشرفة. خرج واستنشق عميقاً الهواء النقي في المساء الضارب إلى الزرقة عشية قدوم الشتاء، ثم توقف من جديد وجلس على المصطبة... هِهْ، وهذه أيضاً عائلة ــ سيري وابنه! رسم تيخون إيليتش في ذهنه تلك الطريق التي اجتازها دينيسكا في الوحل وبيده حقيبته. رأى في خياله دورنوفكا، وعزبته، والوادي، والأكواخ، وضوءاً خافتاً عند أخيه، والأضواء في الدور... أظن أن كوزما جالس يقرأ الآن. ومولودايا واقفة في المدخل البارد

المعتم، قرب الموقد الذي مازال ينبعث منه القليل من الدفء، تدفئ يديها وظهرها وتنتظر الأمر لتقديم "العشاء". إنها الآن تزمّ شفتيها الجافتين اللتين أصابهما الهرم وتفكّر... بماذا؟ برودكا؟ هراء كل ما يقال عن أنها سمّمته، هراء! وماذا لو أنها سمّمته... سيّدي وإلهي! أيّ شعور يجب أن ينتابها إذا كانت هي من سممه؟ أي حجر من حجارة القبر يرقد فوق روحها الخفية!

نظر بعين خياله من شرفة بيته في دورنوفكا إلى القرية والأكواخ على المنحدر خلف الوادي وإلى البيادر وأدغال الشجيرات البرية في الفناءات الخلفية لبيوت الفلاحين... وراء الحقول، إلى اليسار، عند الأفق ــ محرس السكة الحديدية، الذي يمر به القطار في كل مساء ــ سلسلة من العيون المضيئة الراكضة. بعد ذلك، تضيء عيون الأكواخ. يحلّ الظلام، ويغدو الجو أكثر حميمية ــ شعور مزعج ينتابه في كل مرة ينظر فيها إلى كوخي مولودايا وسيري، اللذين يقعان في منتصف دورنوفكا تقريباً، لا يفصل بينهما سوى ثلاثة أكواخ: لا ضوء في هذا ولا في ذاك. عيون أبناء سيري تعشى كعيون الخلد، ويضجّون من الفرح والدهشة، حين يتمكن في مساء سعيد الحظ من إنارة الكوخ...

ــ لا، هذا حرام! ــ قال تيخون إيليتش بحزم ونهض من مكانه. ــ لا، هذا كفر! ــ يجب المساعدة في العمل ولو قليلاً، ــ قال ذلك وهو يمضي باتجاه المحطة.

اشتد الصقيع، وازدادت رائحة السماور المنبعثة من المحطة نفاذاً. وبات التماع الأضواء هناك أكثر نقاء، وخالط الرنين خشخشة أجراس الترويكا. الترويكا تنقلك حيث تشاء! أما خيول الحوذيين الريفيين الهزيلة، وعرباتهم الصغيرة جداً بعجلاتها المعوجة، نصف المهترئة، الملطخة بالوحل، فمنظرها يثير الشفقة! أرسل باب المحطة وهو ينفتح صريراً ثم ارتطم بصوت مكتوم بسور الحديقة. تجاوزه تيخون إيليتش وصعد إلى الشرفة الحجرية المرتفعة حيث كان يجيش سماور نحاسي كبير وقد احمرّت حلقات الشبكة المحيطة به وكأنّها أسنان من نار؛ فعثر على من كان يريد أن يلقاه ــ على دينيسكا.

كان دينيسكا واقفاً على الشرفة مطأطئ الرأس غارقاً في التفكير، يحمل بيده اليمنى حقيبة صغيرة رمادية من النوع الرخيص، مرصعة بكثافة بمسامير من التنك، ومربوطة بحبل، وقد ارتدى معطفاً سميكاً، قصيراً، عتيقاً، وثقيلاً جداً، على ما يبدو، واسعاً متهدلاً عند كتفيه، وواطئاً جداً عند الخصر، واعتمر قبعة جديدة وانتعل جزمة محَّ كعباها من كثرة الاستعمال. لم يكن دينيسكا طويل القامة، فساقاه قصيرتان جداً بالقياس إلى جذعه، وقد بدتا الآن، بالخصر الواطئ والجزمة المهترئة، أكثر قصراً.

ــ دينيس! ــ ناداه تيخون إيليتش ــ لماذا أنت هنا أيها الشقي؟

رفع دينيسكا، الذي لم يكن يدهشه شيء، ببطء عينيه السوداوين الساهيتين الطويلتي الرموش، وقد ارتسمت فيهما

ابتسامة ساخرة، خلع قبعته. كان شعره ذا لون جرذوني، وكثيفاً جداً، ووجهه ترابياً، لمّاعاً كما لو كان مدهوناً بالزيت، أما عيناه فجميلتان.

ــ مرحبا، يا تيخون إيليتش، ــ أجاب بصوت رفيع، منغّم، مَدَنيّ اللهجة، متصنّعاً الحياء، كما هي عادته دائماً. ــ مسافر... إلى هذي... تولا.

ــ أتسمح لي أن أسأل لماذا؟

ــ لعلّي أحصل على عمل ما...

تأمله تيخون إيليتش. في يده ــ الحقيبة، ومن جيب معطفه برزت أطراف كتب خضراء وحمراء ملفوفة على شكل أسطوانة. المعطف...

ــ ولكن هندامك ليس تولانياً!

تأمل دينيسكا ملابسه أيضاً.

ــ أتقصد المعطف؟ ــ أجاب بتواضع ــ لا مشكلة، سأجني نقوداً في تولا، وأشتري لنفسي معطفاً مَدَريّاً، ــ لافظاً "مَدَريّاً" بدلاً من "مجريّاً". ــ لقد نجحت في الصيف! عملت في بيع الصحف.

أومأ تيخون إيليتش برأسه إلى الحقيبة؛

ــ وهذا الشيء ما هو؟ فخفض دينيسكا رموشه وقال:

ــ اشتريت حقيبة.

ــ معك حق، لا يجوز أن ترتدي معطفاً مجرياً من دون حقيبة! قال تيخون إيليتش ساخراً. ــ وماذا في جيبك؟

ــ لا شيء محدد، كشاكيل مختلفة.

ــ أرنيها!

وضع دينيسكا الحقيبة على الأرض وأخرج الكتيبات من جيبه، فأخذها تيخون إيليتش وراح يتأملها باهتمام. مجموعة أغاني "ماروسيا"، "الزوجة ــ الداعرة"، "الفتاة البريئة في قيود الاغتصاب"، "أشعار لــ تهنئة الوالدين والمربين وفاعلي الخير"، "دور..."

هنا تلعثم تيخون إيليتش، ولكن دينيسكا الذي كان يراقبه، لقّنه بهمة وتواضع:

ــ دور البروليتاريا في روسيا. هزّ تيخون إيليتش رأسه قائلاً:

ــ شيء عجيب! ليس لديك ما تأكله وتشتري حقيبة وكتباً. وأيّ كتب! حقّاً، لم يخطئ من سمّاك مشاغباً. يقولون إنك تشتم القيصر دائماً؟ انتبه، يا صاح!

فأجاب دينيسكا مبتسماً ابتسامة ساخرة حزينة: الحمد للــه أنني لم أشتر عقاراً. أما القيصر فأنا لم أمسّه. إنهم يكذبون على لساني كما لو كنت ميتاً. أما أنا فلم تخطر مثل هذه الأفكار في بالي أبداً. أم تراني مصاباً بانفصام الشخصية؟

صرَّ قفل الباب وظهر حارس المحطة، ــ جندي متقاعد أشيب أنفاسه متقطعة يرافقها شخير وصفير، ــ وعامل البوفيه وهو رجل بدين متورّم العينين، دهني الشعر.

ــ ابتعدا، أيها السيدان التاجران، اسمحا لنا بأخذ السماور...

انتحى دينيسكا جانباً، وأمسك مقبض حقيبته من جديد.

ــ أظنك سرقتها من مكان ما؟ ــ تساءل تيخون إيليتش وهو يومئ برأسه إلى الحقيبة، ويفكر بالأمر الذي قدم من أجله إلى المحطة.

صمت دينيسكا مطأطئاً رأسه.

ــ وفارغة أيضاً؟

ضحك دينيسكا.

ــ فارغة...

ــ أطردوك من العمل؟

ــ أنا تركته من تلقاء نفسي.

تنهّد تيخون إيليتش وقال:

ــ أنت كأبيك تماماً، إنه يقول دائماً حين يصفعونه على قفاه، "أنا تركت من تلقاء نفسي".

ــ لتُفقأ عيناي إن كنت أكذب.

ــ هَهْ، طيب، طيب... هل كنت في البيت؟

ــ كنت لمدة أسبوعين.

ــ أبوك عاطل عن العمل من جديد.

ــ لا عمل عنده الآن.

ــ الآن! ــ قال تيخون إيليتش مشاكساً. ــ يا لك من فلاح جاهل! وتدّعي أنك ثوري. أنت تدسّ نفسك بين الذئاب وذيلك ذيل كلب.

ـــ "أنت نفسك من ذات الطينة" ـــ قال دينيسكا في سرّه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة دون أن يرفع رأسه.

ـــ إذن، سيري يجلس في البيت يدخن السجائر؟

ـــ إنه واحد فارغ! ـــ قال دينيسكا بلهجة المقتنع.

فوكز تيخون إيليتش رأسه بأصابعه وقال:

ـــ ليتك لا تظهر حمقك! من يتكلم على أبيه هكذا؟

ـــ الكلب كبير ولكنه لا يدعى أباً، ـــ أجاب دينيسكا بهدوء.

ـــ إنه أب ـــ إذن، أَطعمْه. ولكن، هل هو أطعمني؟

لم يكن تيخون إيليتش يصغي إليه، كان ينتقي اللحظة المناسبة ليبدأ معه حديثاً عملياً، ولذا قاطعه من دون أن يسمع ما قال:

ـــ هل عندك ثمن التذكرة إلى تولا؟

ـــ وما حاجتي إلى التذكرة؟ أجاب دينيسكا ـــ ما إن أدخل العربة، حتى أندسّ مباشرة، على بركة اللـــه، تحت المقعد.

ـــ وأين ستقرأ الكتب؟ تحت المقعد لن تستطيع القراءة.

فكّر دينيسكا قليلاً ثم قال:

ـــ هاكَ الحلّ! لن أبقى تحت المقعد طول الوقت. سأذهب إلى المرحاض، ـــ وهناك، بإمكانك القراءة حتى الصباح إن شئت.

حرّك تيخون إيليتش حاجبيه وهو يبدأ الكلام:

ـــ حسناً، أصغِ إليّ، اسمعْ: لقد آن لك أن تترك كلّ هذه الحركات. لم تعد صغيراً أيها الأحمق. ارجعْ إلى دورنوفكا، ـــ آن الأوان كي تألف العمل، وإلا فإن حالكم يثير القرف. انظر إلى ما عندي... مساعديَّ في الدار يعيشون أفضل من عيشكم،

ـ قال ذلك وهو يعني كلاب الحراسة. ـ سأساعدك، والأمر للـــه... لكن في البداية. بعد ذلك ستكسب من بضاعةٍ هنا، ومن تصليحةٍ هناك... وستطعم نفسك، وتعطي أباك لو القليلَ من المال.

فتساءل دينيسكا في سرّه: "إلامَ يقصد بكلامه؟"

أما تيخون إيليتش فحزم أمره وتابع:

ـ لقد آن لك أن تتزوج أيضاً.

"هكذا إذن!" ـ قال دينيسكا في سرّه وهو يلفّ سيجارة على مهل. وردّ عليه بهدوء يشوبه بعض الحزن خافضاً رموشه: حسناً، لن ألفَّ وأدور. الزواج ممكن. التردد على القحاب أسوأ منه.

ـ هو ذا، هذه هي المسألة، ـ أمسك تيخون إيليتش بناصية الكلام. ـ ولكن، يا أخي، حطّ في بالك، ـ الزواج يجب أن يتم بالعقل. هم، أعني الأطفال، اقتناؤهم جيد عند وجود الثروة.

قهقه دينيسكا قائلاً: ما الذي تهرف به؟ اقتناؤهم! كيف لا! كما يُقتنى الدجاج أو الخنازير.

ـ إن طلبهم للطعام ليس أقل من طلب الدجاج والخنازير.

ـ ولكن من أتزوج؟ سأل دينيسكا وهو يبتسم ابتسامة حزينة ساخرة.

ـ نعم، من؟ طيب... تزوج من تريد.

ـ أأتزوج مولودايا مثلاً؟

احمرّ وجه تيخون إيليتش بشدة.

ـ أحمق! ممّ تشكو مولودايا؟ امرأة مسالمة، شغّيلة...

ظلّ دينيسكا صامتاً ينكش بإظفره أحد مسامير الحقيبة، ثم تظاهر بالبلاهة وقال بصوت ممطوط:

ـ المولودايات كثيرات، لا أعرف عن أيهن تتحدث... هل تقصد تلك التي عاشرتها؟

ولكن تيخون إيليتش كان قد تمالك نفسه.

ـ عاشرتها أم لم أعاشرها، ـ هذا ليس شأنك أيها الخنزير. كان جواب تيخون إيليتش سريعاً وآمراً، وهذا ما جعل دينيسكا يتمتم في خضوع:

ـ هذا شرف خالص لي... لم أقصد شيئاً... ما قلته كان في سياق الكلام...

ـ طيب، إذن، لا تثرثر دون جدوى. سأجعلكما بشراً. أتفهم؟ سأعطيها بائنة... أتفهم؟

فكّر دينيسكا برهة ثم قال:

ـ طيّب، سأسافر إلى تولا...

ـ وجد الديك حبة ماس! ما حاجتك إلى تولا بحق الشيطان؟

ـ لقد جعت كثيراً في البيت...

فتح تيخون إيليتش طرفي عباءته ودسّ يده في جيب سترته ـ كان قد قرر إعطاء دينيسكا عشرين كوبيكاً، ولكنه تراجع، ـ من الغباء أن أبدد النقود، بل قد يتعزّز هذا البغل، ظنا منه أنني أشتريه بالمال، ـ وتظاهر بالبحث عن شيء ما.

ـ إيه، نسيت سجائري، أعطني كيس تبغك لألفّ واحدة.

أعطاه دينيسكا كيس التبغ. وعلى الضوء الخافت للمصباح الذي كان قد أضيء فوق الشرفة، قرأ تيخون إيليتش بصوت مرتفع الحروف الكبيرة المطرّزة بخيوط بيضاء على كيس التبغ:

"أوقدّم هاديّتي لمن أحبو أحبّك من قلبي وأوهديك هاذا الكيس إلى الأبد".

ثم قال بعد أن انتهى من القراءة ــ شاطر! فأطرق دينيسكا خجلاً.

ــ إذن، عندك صاحبة؟

ــ ما أكثر هؤلاء الكلبات الشاردات! أجاب دينيسكا بلا مبالاة. ــ لكني لا أرفض الزواج. سأعود عند انتهاء الصوم، وعلى بركة اللـــه...

قرقعت وراء السور عربة ودرجت صاخبة نحو الشرفة. كانت عربة ملطخة بالطين يجلس على كومة من القش في وسطها فلاح بصحبة خوري أوليانوفكا غفوروف.

ــ هل ذهب؟ ــ صرخ الخوري قلقاً وهو يقذف خارج القش ساقه المضمومة في جزمة جديدة.

كانت كل شعرة في رأسه المهوّش الأحمر الضارب إلى الشقرة، تتموج بشدة، وقد انزلقت قبعته إلى نقرته، وتقلص وجهه بفعل الريح والقلق.

ــ أتعني القطار؟ ــ سأله تيخون إيليتش. ــ كلا يا سيدي، إنه لما يأت يا سيدي.

ـ آهاه! طيب، الحمد للــه! ـ هتف الخوري بابتهاج، ولكنه، مع ذلك، قفز من العربة واندفع بسرعة البرق نحو الباب.

ـ هكذا إذن، اتفقنا، ـ قال تيخون إيليتش. ـ حتى انتهاء الصوم.

كانت رائحة معاطف الفراء القصيرة المبللة، والسماور، وتبغ الماخوركا، والكيروسين تنتشر في المحطة، وقد بلغ دخان السجائر حداً يجرح الحنجرة، وكانت المصابيح ترسل ضوءاً ضعيفاً في وسط الدخان والعتمة والرطوبة والبرد، والأبواب تصرّ وتصطفق، وقد تجمهر رجال ريفيون يتحادثون بصوت مرتفع وفي أيديهم سياط ـ إنهم حوذيون من أوليانوفكا ينتظرون ركّاباً، يطول انتظارهم أسبوعاً كاملاً في بعض الأحيان. وبين هؤلاء سار بائع خبز يهودي رافعاً حاجبيه، على رأسه قبعة سوداء، ويرتدي معطفاً له واقية من المطر. وقريباً من كوّة التذاكر، كان رجال يضعون على القبّان حقائب وسلالاً لأحد السادة، مغلفة بقماش مشمّع، يصيح بهم آمراً عامل التلغراف الذي كان يقوم بوظيفة مساعد رئيس المحطة، ـ وهو شاب قصير الساقين، ذو رأس كبير تكسوه قبة من الشعر الأجعد الأصفر، تدلت خصلة منه من تحت القبعة فوق صدغه الأيسر على الطريقة القوزاقية، ـ وكان ثمة كلب ضخم من صنف بوينتير مبقع كالضفدع وذو عينين حزينتين، مقعياً على الأرض القذرة وهو يرتجف بشدة.

شق تيخون إيليتش طريقه بين الرجال قاصداً البوفيه، حيث تبادل بعض الحديث مع العامل هناك ثم قفل عائداً إلى بيته. كان دينيسكا ما يزال واقفاً في الشرفة.

ــ أود أن أطلب منك شيئاً يا تيخون إيليتش، ــ قال دينيسكا بلهجة أقل حياء مما كانت عليه الحال دائماً.

ــ ما طلبك؟ سأل تيخون إيليتش بغضب. ــ تريد مالاً؟ لن أعطيك.

ــ لا، أبداً، عن أية نقود تتكلم! أريدك أن تقرأ رسالتي.

ــ رسالة؟ لمن؟

ــ لك، أردت البارحة أن أسلمك إياها، لكني لم أجرؤ.

ــ ما موضوعها؟

ــ لا شيء... لقد وصفت فيها حياتي...

أخذ تيخون إيليتش من يد دينيسكا قطعة الورق ودسّها في جيبه، ثم تابع سيره إلى البيت فوق الوحل المتصلب البارد.

لقد استولى عليه الآن شعور بالقوة وأحس برغبة في العمل، وتذكّر بمتعة أن عليه أن يقدم العلف للماشية من جديد. من المؤسف أنه غضب وطرد جميخ، وعليه هو الآن أن يبقى ساهراً طول الليل. الاعتماد على أوسكا أمر سيئ. أظنه نائماً الآن، أو أنه جالس مع الطباخة يشتم ربّ عمله. حين مرّ تيخون إيليتش بالقرب من نوافذ الكوخ المضاءة تسلل إلى المدخل وألصق أذنه بالباب، سمع ضحكاً وراءه ثم صوت أوسكا:

ـ هناك قصة أخرى وقعت أيضاً. عاش في القرية رجل فقير، فقير جداً. لم يكن في القرية أفقر منه، رحل مرة، يا أخوتي، هذا الفلاح نفسه، ليعمل في الفلاحة. فتبعه وتعلّق به كلب مبرقش. كان الفلاح يفلح والكلب ينبش الأرض ويحفرها بحثاً عن شيء ما. حفر وحفر ثم عووووى فجأة! ما القصة؟ هرع الرجل إليه، نظر في الحفرة، وإذا فيها صندوق حديد...

ـ صندوق حد يـــ...ـــدي؟ سألت الطباخة.

ـ صحيح، اسمعي، الصندوق ـ صندوق، ولكن ما فيه كان ذهباً! ذهب، لا من رأى ولا من سمع... وهكذا اغتنى الرجل...

"يا لهم من ثرثارين!" قال تيخون إيليتش في سرّه، وراح يصغي بنهم ليعرف ماذا سيحلّ بالرجل بعد ذلك.

ـ اغتنى الرجل، ورتّب عيشته كأي تاجر من التجار...

ـ ليس أقل من صاحبنا ذي الساقين المعصوصتين، ـ قالت الطباخة. ابتسم تيخون إيليتش: إنه يعرف أنهم يلقبونه بذي الساقين المعصوصتين منذ زمن بعيد... لا يوجد إنسان ليس له لقب!

وتابع أوسكا:

ـ بل أغنى منه... نعم.. وفجأة مات الكلب. ما العمل في هذه الحال؟ الأمر محيّر ـ محزن مصير الكلب، يجب أن يدفن بكل احترام...

دوّى انفجار من الضحك. وقهقه الراوي نفسه وكذلك شخص آخر يسعل سعال العجائز.

ـ أتراه جميخ؟ ـ تساءل تيخون إيليتش مضطرباً. ـ هِهْ، الحمد للـــه. لقد قلت لهذا الأحمق: ستعـــ...ــود!

ذهب الفلاح إلى القسيس، ـ تابع أوسكا، ـ ذهب إلى القسيس: كذا، وكذا وقع لنا يا أبتِ، مات الكلب، ـ يجب أن ندفنه...

لم تستطع الطباخة ضبط نفسها فصاحت بابتهاج:

ـ أووه، لتبتلعك الهاوية!

ـ طيّب، دعيني أكمل الكلام! صاح أوسكا، ثم عاد من جديد إلى لهجة الراوي، مقلّداً القسيس تارة، والرجل تارة أخرى.

ـ كذا وكذا يا أبتِ، ـ يجب أن ندفن الكلب. خبط القسيس الأرض بقدميه: "كيف تدفنه؟ تريد أن تدفن الكلب في المقبرة؟ سأزج بك في معتقل للأشغال الشاقة لو فعلت ذلك، سأقيّد قدميك بالحديد والأثقال!" ـ "ولكن يا أبتِ هذا ليس كلباً عادياً: هو، حين مات، أوصى لكم بخمسين روبلاً!" وثب القسيس من مكانه صارخاً: "يا أحمق، هل كنت أوبخك لأنك تريد أن تدفنه؟ أنا وبختك بسبب المكان الذي اخترته للدفن! هذا يجب أن يدفن في حديقة الكنيسة!"

سعل تيخون إيليتش بصوت مرتفع وفتح الباب. على الطاولة بالقرب من مصباح يرسل دخاناً أسود، زجاجه مكسور وقد لُصق من جانب واحد بورقة اسودّ لونها، كانت الطباخة جالسة محنية الرأس وشعرها المبلل يغطي وجهها كله. وهي تتمشط بمشط خشبي ثم تتفحصه من خلال شعرها في ضوء المصباح. وكان

أوسكا يقهقه والسيجارة بين أسنانه وقد ارتد بجذعه إلى الوراء وراح يؤرجح قدميه. وبالقرب من الموقد لاح في المكان نصف المعتم بصيص أحمر ــ إنه غليون. حين فتح تيخون إيليتش الباب وصار في العتبة، انقطعت القهقهة فوراً، ونهض صاحب الغليون من مكانه مرتبكاً، أخرج الغليون من فمه ثم دسّه في جيبه... نعم، إنه جميخ! وكما لو أن شيئاً لم يحدث في الصباح، صاح تيخون إيليتش بصوت وديّ نشيط:

ــ يا شباب! هيّا لتوزيع العلف...

جالوا في الحظيرة يحملون مصباحاً يسلّطون ضوءه على الروث البارد، والتبن المنثور، والمعالف، والأعمدة، ويلقون بظلال ضخمة هنا وهناك، فيستيقظ الدجاج المصطف على الجسور المعدنية تحت السقوف المستعارة. كانت طيور الدجاج

تتقافز وتقع وتنحني إلى الأمام استعداداً للجري ثم تجري في كل الاتجاهات ، وعيون الخيول البنفسجية الواسعة تلتمع وتلقي نظرات غريبة ورائعة حين تدير الخيول رؤوسها نحو الضوء، والبخار ينطلق مع الأنفاس وكأنّ الجميع يدخنون. وحين وضع تيخون إيليتش المصباح على الأرض ناظراً إلى أعلى، رأى بفرح، فوق الفناء المربّع، في السماء العميقة الصافية، نجوماً ملونة ساطعة. وتناهت إلى سمعه من فوق السطوح الخشخشة الجافة للريح الشمالية وهي تنفخ البرودة الصقيعية في شقوق الجدران... الشكر لك يا رب، إنه الشتاء!

انفصل تيخون إيليتش عن العاملين وأوصى بإعداد السماور ثم مرّ على الدكان الباردة الفواحة بالروائح، فانتقى سمكة جيدة مملّحة متبّلة بربّ البندورة - ليس سيئاً أن يتملّح المرء قبل شرب الشاي! - وأكلها كلّها وهو إلى مائدة الشاي، ثم شرب عدداً من كؤوس عنبرية التوت البري ذات الطعم الحلو المشوب بالمرارة واللون الأصفر المشرّب بالحمرة. وبعد أن صبّ لنفسه قدحاً من الشاي، عثر في جيبه على رسالة دينيسكا فراح يفكّك خربشاته.

«دينيا قبض ٤٠ روبلاً نقدي وبعدها جمع حوائجه...».

«أربعين! قال تيخون إيليتش في سره. ـــ آه منك، يا عديم السروال!».

«وجد دينيا في المحطة تولا وشلّحوه بالضبط سحبوا كل شيء بالكوبيك ما في ملجأ وأَخَذَتْه الكآبة...»

كان تفكيك هذا الهراء صعباً ومضجراً، ولكن المساء طويل، وما من شيء يعمله... السماور يبقبق بصخب، والمصباح يرسل ضوءاً هادئاً ــ ثمة حزن في هدوء المساء وسكينته وطبلة الحراسة تتحرك برتابة تحت النوافذ، صانعة برنينها في الهواء الصقيعي إيقاعاً راقصاً...

"بعد ذالك اشتقت أنا كيف أوسافر للبيت أبي رهيب..."

ــ يا له من أحمق! غفرانك يا رب! ــ قال تيخون إيليتش في سرّه. ــ سيري ــ رهيب!

"سأجد في الغابة النايمة، أختار سروة عالية وآخذ الحبل عن راس السكّر، وأتوجّه فيه إلى الحياة الأبدية بسراويل جديدة ولكن بلا جزمة..."

ــ أيعني: "من دون جزمة؟" ــ قال تيخون إيليتش وهو يبعد الورقة عن عينيه المتعبتين. ــ الحقيقة هي الحقيقة...

ألقى الرسالة في سلة النفايات واستند بمرفقيه إلى الطاولة متأملاً المصباح... يا لنا من شعب عجيب! روح متعددة الألوان. تارة يكون الواحد منا كلباً خالصاً، وتارة يحزن ويتضاءل ويتلاطف ويبكي نفسه بنفسه... مثل دينيسكا ومثله هو ــ تيخون إيليتش... عرق الزجاج، وبوضوح ونشاط، على الطريقة الشتوية دمدمت طبلة الحارس شيئاً ما منسجماً... إيه، ليت لي أطفالاً! ليت لي، مثلاً، عشيقة جميلة بدلاً من هذه العجوز المتورمة التي مللت إلى حد الجنون حكاياتها عن الأميرة، وعن

راهبة طاهرة تسميها بوليكاربي ويسمونها في المدينة بوليكاربييه! فات الأوان، فات...

فكّ تيخون إيليتش ياقة القميص، وتلمّس، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة مرّة، رقبته، تجاعيد الرقبة تمتد إلى ما وراء الأذنين... هذه التجاعيد هي أولى إشارات الشيخوخة، ـــ الرأس يتحول إلى ما يشبه رأس الحصان! وكل ما عدا ذلك لم يكن سيئاً. أحنى رأسه وأطلق أصابعه في لحيته... اللحية شيباء، جافة، مهوشة. لا فائدة، شاباش، شاباش[1] يا تيخون إيليتش!

شرب، وأعاد الكرّة، زاد من قوة كزِّه على فكّيه، ونظر بثبات أشد، وقد ضيّق حدقتيه، إلى فتيل المصباح الذي كان يشتعل اشتعالاً منتظماً... يا للعجب: يستحيل على المرء أن يزور أخاه الشقيق، ـــ ذكور الخنازير لا تسمح بذلك، الخنازير! ولكن، لو سمحت، لما أحسّ بفرح كبير، فكوزما سيلقي عليه المواعظ، وستقف مولودايا مزمومة الشفتين، خافضة رموشها،... هذه العيون المطرقة وحدها تدفعه للهرب!

توجّع قلبه، وداخ رأسه... أين تراه سمع هذه الأغنية؟

حلّ مسائي المضجر
لا أعرف من أين أبدأ
جاء صديقي الحبيب

---

[1] ـ شاباش صيحة تعني الوداع

وصار يدلّلني

آه، بلى، كان هذا في ليبيدياني، في الخان. تجلس البنات حائكات الدانتيل في مساء شتوي يغنين... يجلسن، ينسجن، ومن دون أن يرفعن عيونهن، يغنين بأصوات رنانة تخرج من صدورهن:

يقبّلني، يعانقني
يودّعني.

داخ رأسه، ــ بدا له، أن الفرح، والإرادة وانعدام الهموم، كل ذلك ما يزال أمامه، ــ ولكن قلبه أخذ يتوجع من جديد فاقداً الأمل، فيشجّع نفسه:

ــ حين تكون النقود في الجيب، ــ تنشط العمة في التجارة!
وراح ينظر إلى المصباح بحقد ويبربر قاصداً أخاه:

ــ معلم! واعظ! مشعوذ عذب الكلام... شيطان بلا سروال!

شرب العنبرية عن آخرها، ودخّن حتى داخ... ثم مشى بخطوات غير واثقة فوق الأرضية الزلقة، وخرج إلى المدخل المعتم من دون معطف، فأحس إحساساً قوياً ببرودة الهواء ورائحة القش، ورائحة الكلاب، ورأى ضوأين أخضرين التمعا في العتبة... فنادى: بويان!

استجمع كل قوته وضرب رأس بويان بحذائه ثم راح يتبول في العتبة.

ساد هدوء كهدوء القبور فوق الأرض التي اسودّت قليلاً في ضوء النجوم. والتمعت تطاريز النجوم المتعددة الألوان. وابيضت الطريق ابيضاضاً ضعيفاً وهي تضيع في ظلمة المساء. وتناهى من البعيد هدير أصمّ وكأنه قادم من تحت الأرض وراح يتعالى ويتعالى، ثم اندفع إلى السطح فجأة فارتجّ المكان: سلسلة من النوافذ الملتمعة البيضاء والمنارة بالكهرباء، تكنس أمامها، كالغولة الطائرة، جدائل دخانية، أسفلها مضاء بحمرة قانية، وتعبر الطريق مندفعة نحو الأفق. إنه قطار الجنوب الشرقي السريع.

ـ هذا بالقرب من دورنوفكا! ـ قال تيخون إيليتش وهو يفهق عائداً إلى الغرفة.

دخلت الطباخة وهي تغالب النعاس إلى الغرفة المنارة بضوء المصباح الشاحب الذي نضب زيته، والفواحة برائحة التبغ، حاملة قدراً قذراً فيه حساء الملفوف، ممسكة إياه من أذنيه المسودتين بسبب الدهن المحترق والهباب. فنظر إليها تيخون إيليتش بطرف عينه وقال:

ـ انقلعي من هنا في الحال.

استدارت الطباخة، أغلقت الباب بدفعة من قدمها واختفت.

أحس برغبة في النوم. ولكنه ظل جالساً فترة طويلة، صارّاً على أسنانه، يتأمل الطاولة بعينين ناعستين عابستين.

II

كان كوزما يحلم طول حياته أن يتعلم ويكتب.

ما قيمة الأشعار؟! الأشعار كانت مجرد وسيلة "يتسلى بها". لقد أراد أن يروي كيف كان يموت، أن يصوّر، بقسوة لا مثيل لها، فقره وتلك البيئة المخيفة ببدائيتها التي كانت تشوهه وتجعل منه "شجرة كرمة عقيمة".

كان، وهو يفكر في حياته، يحكم على نفسه بالإعدام ويبرئها.

حسناً، قصة حياته ــ هي قصة حياة جميع الروس الذين علّموا أنفسهم بأنفسهم. لقد ولد في بلاد فيها أكثر من مئة مليون أمي... كبر في تشورنايا سلوبودا، حيث مازالوا حتى الآن يقتل بعضهم بعضاً في عراك بالأيدي، في قلب التوحش الفظيع والجهل الذي لا قرار له. تعلّم الأحرف والأرقام، هو وأخوه تيخون، على يد جارهم الحذّاء بيلكين صانع الكالوشات[1]؛ وما حدث ذلك إلا لأن الحذّاء كان دائماً بلا عمل، ــ فمن ذا الذي يهتم بالكالوشات في سلوبودا! ــ ولأن شدَّ شعر "صدغيّ" أحد ما كان ممتعاً له، ولأن ذلك يخلّصه من الجلوس فوق كومة النفايات المنفلشة، حانياً ظهره، ومعرضاً رأسه المهوش للشمس، وهو يبصق من حين لآخر فوق التراب بين قدميه الحافيتين. في البازار، في دكان ماتورين، تعلّم الأخوان الكتابة والقراءة وصار

---

1 ـ الكالوشات أحذية مطاطية تحمي الحذاء الأساسي من الطين.

كوزما مولعاً بالكتيبات التي كان يهديه إياها رجل من رواد البازار متحرر الفكر غريب الأطوار، هو عازف الهارمونيكا العجوز بالاشكين. ولكن أنى له أن يقرأ في الدكان! فماتورين كان يصيح به مرات كثيرة جداً: "سأشمِّط أذنيك على وقْوَقاتك أيها الشيطان الصغير اللعين!"

هناك صار كوزما كاتباً، ــ بدأ بقصة عن تاجر سافر في يوم عاصف مخيف. وفي الليل، في غابات مورمسك، وقع، وقت المبيت، في أيدي قطاع الطرق فذبحوه. دوّن كوزما بحرارة توسلات ذلك التاجر قبل الموت، وأفكاره، وحزنه على حياته الخاطئة "التي انتهت هكذا قبل الأوان..." ولكن أهل البازار لم يرحموه بل غسلوه بالماء البارد غسلاً:

ــ يا لك من غبي! استغفر الرب! تقول "قبل الأوان"! لقد استحق هذا الشيطان المكرِش ما أصابه منذ زمن بعيد! ثمّ، كيف استطعت أن تعرف بماذا كان يفكر؟ ألم تقل إنهم ذبحوه؟

عند ذاك كتب كوزما، على طريقة كولتسوف، أغنية الأمير العجوز الذي أوصى لابنه بفرسه المخلص قائلاً في الأغنية: "لقد حملني في صباي!"

فقالوا له:

ــ طيّب! كم كان عمر هذا الفرس الذي تتحدث عنه؟ آخ يا كوزما، يا كوزما! الأفضل لك أن تؤلف شيئاً ما، ذا معنى، ــ لو أنك تكتب عن الحرب، على سبيل المثال...

وتكيّف كوزما مع الذوق البازاري فصار يكتب عمّا كان البازار يتحدث عنه، ــ عن الحرب الروسية ــ التركية، وعن كيف أنه:

في العام سبع وسبعين
فكّر الأتراك بالحرب
فحرّكوا جموعهم
وسعوا لاحتلال روسيا

وكيف أن تلك الجموع ــ

كانت تعتمر قلنسوات قبيحة
وتزحف خلسة تحت المدفع ــ القيصر...

لقد أدرك فيما بعد، بألم كبير، مدى ما كان من الغباء والجهل في هذه الأشعار التافهة، وما هي قيمة هذه اللغة الوقحة، والاحتقار الروسي لقلنسوات الأجانب.

راح الأخوان، بعد أن تركا الدكان وباعا ما تبقى بعد وفاة أمهما، يمارسان البيع والشراء. كانا يترددان كثيراً على مدينتهما، واستمرت صداقة كوزما مع بالاشكين على حالها. كان يقرأ بنهم الكتب التي يعطيه إياها بالاشكين أو ينصحه بقراءتها. لكنه، كان، وهو يتحاور مع بالاشكين حول شيللر، مثلاً، يحلم بقوة بأن يستدين منه "بعض المال". وكان مع شدة إعجابه برواية "الدخان" يؤكد أن "الذكي، غير المتعلم، فيه الكثير من النور من دون تعليم". وحين زار قبر كولتسوف كتب بإعجاب عبارة ملأى

بالأخطاء على شاهدة القبر: "تحت هاذه الشاهدة مدفون جثة الرجل والشاعر الفورونيجي أليسيي فاسيلييفيتش كولتسوف الممنوح برحمة المطلق، المتنور ــ من دون علوم تمنحها الطبيعة..."

كان بالاشكين العجوز، الضخم، النحيل الذي لا يخلع، لا صيفاً ولا شتاء، عباءته التي اخضرّ لونها وقبعته الشتوية، ذو الوجه الكبير، الحليق، المعوجّ الفم، يكاد يبدو مخيفاً بخطاباته الحاقدة، وصوته الثخين العجائزي العميق، وكتلتي الشعر الفضي الشائك الكثيف على خديه الشاحبين، وعينه اليسرى الخضراء اللماعة، الجاحظة، المائلة إلى الجانب الذي اعوجّ نحوه فمه. وكم كان جئيره قوياً حين سمع ذات يوم كلام كوزما على "التنوير من دون العلم"، وكم كان شديداً بريق تلك العين، وهو يلقي بسيجارته التي حشاها بتبغ الماخوركا فوق علبة سردين فارغة!

ــ يا حنك الجحش! ما هذا الهراء؟ هل فكرت بمعنى "تنويرنا من دون العلم"؟

أمسك بسيجارته من جديد وراح يهدر بصوت أصمّ:

ــ يا رب، يا رحيم! قتلوا بوشكين، وقتلوا ليرمانتوف، وأغرقوا بيساريف، وخنقوا ريلييف... اقتادوا دوستويفسكي إلى الإعدام رمياً بالرصاص، ودفعوا غوغول إلى الجنون... وماذا عن شيفشينكو؟ وبوليجايف! هل ستقول: الحكومة هي المذنبة؟ طبعاً، فأنت في النفاق سيد، وفي التستّر قبعة. آه، هل مازال في العالم بلد مثل هذا البلد، وشعب مثل هذا الشعب، لعنه الرب ثلاثاً؟

راح كوزما يعبث بأزرار سترته الطويلة قلقاً، يقفلها تارة ويفتحها تارة أخرى، ثم ردّ عليه عابساً، ساخراً، غاضباً، بقوله:

ــ مثل هذا الشعب! اسمح لي أن ألفت نظرك: إنه أعظم شعب، وليس مجرد "هذا".

ــ لا تتجرأ، وتوزع الجوائز! صرخ بالاشكين.

ــ بل سأتجرأ! فكل هؤلاء الكتاب ــ أبناء ذلك الشعب نفسه!

ــ ولم لا يكون من أبنائه يروشكا، لمَ لا يكون لوكاشكا؟ أنا، يا صاحبي، لو أردت نفض الأدب، لوجدت لكل رب من الأرباب الحذاء المناسب! لماذا كاراتاييف وليس رازوفاييف، وكولوباييف، لماذا ليس العنكبوت ــ ملتهم العالم، وليس الخوري المرتشي، والشماس الخائن، لم لا يكون واحداً من أبطال شيدرين، أو كارامازوف، أو أبلوموف، لم لا يكون خليستاكوف ونوزدريف، أو يكون، كي لا نذهب بعيداً، أخاك السافل؟

ــ بلاتون كاراتاييف...

ــ لقد أكل القمل كاراتاييفك هذا! أنا لا أرى فيه مثلاً أعلى!

ــ وماذا عن الشهداء القدّيسين الروس، والجوّالين، والساعين إلى مرضاة اللـــه، والدراويش المأخوذين بالمسيح، والمنشقين؟

- ما – ذا؟ ومسرح الكوليزييه، والحملات الصليبية، والحروب الدينية، والطوائف التي لا حصر لها؟ ولوثر، في نهاية المطاف؟ لا، أنت تراوغ! ولكنك لن تستطيع كسر نابي بسهولة!

بلى، إنه يحتاج شيئاً واحداً - أن يتعلم. ولكن متى، وأين؟

خمس سنوات كاملة انقضت في البيع والشراء - خمس سنوات هي أفضل سنوات عمره! كانت زيارة المدينة سعادة عظيمة في نظره. الراحة، والمعارف، ورائحة المخابز، والسقوف الحديدية، والرصيف في سوق التجار، الشاي والفطائر والمارش الفارسي في حانة «كارس»... والأرضيات الملطخة ببقع الشاي في الدكاكين، صراع الديكة الشهير عند بوابة روداكوف، رائحة دكاكين السمك، والكرافس، والماخوركا - ماركة رومانوف... ابتسامة بالاشكين الطيبة والمخيفة عند رؤيته كوزما... بعد ذلك، الرعود واللعنات تنصب على دعاة القومية السلافية، بيلينسكي والشتائم القذرة، التقاذف الحماسي، غير المترابط ، بالأسماء والمقبوسات بين الطرفين : ثم الاستنتاجات الأكثر يأساً - في نهاية المطاف. "الآن، يمكن حقاً أن نقول شاباش، - نحن نرتد بكل طاقتنا الروحية إلى الوراء، إلى آسيا! ــ قال العجوز بصوت هادر، ثم تلفت حوله وقال خافضاً صوته: - أسمعت؟ يقولون، سالتيكوف يموت. إنه الأخير! يقولون: سمّموه..." وفي الصباح - العربة من جديد، السهب، والحرّ أو الوحل، والقراءة المتوترة - المؤلمة على وقع

ارتجاج العجلات المتدحرجة... التأمل الطويل للأفق السهبي، ونغم الأشعار العذب ــ الحزين، يملأ النفس، تخترقه أفكار عن حساب السُلَف أو التشاتم مع تيخون... رائحة الطريق المزعجة ــ الغبار والزفت... رائحة الكعك بالنعناع ورائحة جلود القطط الخانقة المتصاعدة من صندوق العربة... لقد أنهكته حقاً هذه الأعوام، ــ القمصان التي قد لا يخلعها، لو مرة كل أسبوعين، والطعام الناشف، والعرج بسبب الجزمة العوجاء وكعبيه الداميين، والمبيت في أكواخ الغرباء ومداخل بيوتهم!

رسم كوزما علامة صليب واسعة حين تملّص أخيراً من هذه القيود. ولكن، كان عليه أن يبحث من جديد عن وسيلة ما للحصول على قطعة الخبز. عمل، دون جدوى، أسبوعاً عند مربي ماشية في ضواحي يلتس، ثم توجه إلى فورونيج. قصة حب قديمة في فورونيج، علاقة مع زوجة أحدهم، شدّته إلى هناك. أمضى في فورونيج نحو عشر سنوات ــ قرب مستودع القمح، يعقد الصفقات ويكتب في الصحف مقالات صغيرة في موضوع القمح، محرّضاً، أو الأدق، مسمّماً الروح بمقالات تولستوي، وهجائيات شيدرين. وقد ظلت تضنيه فكرة لم تفارقه أبداً هي أن حياته تضيع، بل ضاعت فعلاً.

في بداية التسعينيات مات بالاشكين بسبب الفتاق، وقد التقى به كوزما للمرة الأخيرة قبل موته. ويا لذاك اللقاء الذي كان!

ــ يجب أن نكتب، ــ قال كوزما عابساً مستاءً. ــ إننا نذبل كورقة نبات طفيلي في الحقل...

ــ صحيح، صحيح، ــ دمدم الآخر وهو ينظر بطرف عينه الناعسة المشرفة على الموت، ويحرّك حنكه بصعوبة، محاولاً عبثاً حشو سيجارته بالماخوركا. ــ الحكمة تقول: تعلَّمْ كل ساعة، فكّر كلّ ساعة... تأمّل من حولك ــ كل مصائبنا وغباءاتنا...

ثم ضحك ضحكة قصيرة خجلة، وضع السيجارة جانباً، ومدّ يده إلى الطاولة الصغيرة.

ــ هاك، ــ برطم وهو ينبش رزمة أوراق وقصاصات جرائد انمحى ما عليها من كتابة. ــ هاك، هنا، يا صديقي، كومة من الخيرات... لقد قرأتها كلها، وقصصتُها، ونسختُها... إذا متُّ ــ ستنفعك، مادتها عن الحياة الروسية الشيطانية.

هِهْ، انتظر، سأبحث لك الآن عن قصة مهمة...

ولكنه نبش وفتّش ــ ولم يجدها، فراح يبحث عن نظارته، ويفتش جيوبه في قلق ــ ثم طوّح بيده. بعد ذلك نشق بأنفه وهزّ رأسه:

ــ لا، لا، ــ إياك أن تمسّ هذا الموضوع الآن. أنت مازلت جاهلاً، ضعيف العقل. اقطعْ الشجرة التي تناسبك. هل كتبت حول ذلك الموضوع الذي أعطيتك إياه، موضوع سوخونوف؟ لم تكتب بعد؟ ها أنتذا تبدو حنك جحش. إنه موضوع رائع!

ــ يجب أن نكتب عن القرية، عن الشعب، ــ قال كوزما، ــ أنت نفسك تقول: روسيا، روسيا...

ـ أليس سوخونوسي هو الشعب، أليس هو روسيا؟ ـ روسيا كلها ـ قرية، انقشْ هذا على أرنبة أنفك! ـ انظر من حولك: هل هذه مدينة برأيك؟ قطعان الماشية تتدافع في الشارع كل مساء ـ فلا ترى جارك من كثافة الغبار... وأنت تقول لي: "مدينة"!

سوخونوسي... أعوام كثيرة مضت دون أن تغادر رأس كوزما صورة ذلك العجوز السلوبودي المقرف، الذي كان كل متاعه فراشاً من القش ملطخاً بآثار البق، ومعطفاً نسائياً فضفاضاً أكله العثّ، ورثه عن زوجته. كان يستجدي، ويمرض، ويجوع، ويبيت، مقابل نصف روبل، في زاوية دكان بائعة أطعمة في "بازار المطاعم"، وهو، بحسب رأي تلك البائعة، يستطيع أن يحسِّنَ أوضاعه بشكل ممتاز لو باع ما ورثه. لكنه كان يحافظ على ذلك الميراث محافظته على بؤبؤ عينه، وهو لم يكن يفعل ذلك طبعاً، بسبب مشاعره الرقيقة تجاه المرحومة؛ بل لأن الميراث يمنحه وعياً بأنه، خلافاً لما هي حال الآخرين، يملك متاعاً. وقد بدا له أن هذا المتاع غال غلاءً شيطانياً: "أنت لن تجد اليوم مثل هذا المعطف النسائي أبداً، أبداً!" إنه لم يكن يرفض البيع، ولكنه يطلب أسعاراً خيالية تجعل المشترين يجمدون مذهولين... كان كوزما يفهم هذه التراجيديا السلوبودية فهماً جيداً جداً. ولكنه حين شرع يفكر في كيفية صوغها، راح يعيش بيئة سلوبودا المعقدة كلها، وذكريات طفولته وصباه، ـ فاختلطت عليه الأمور وغرق سوخونوسوف في زحمة الصور التي حاصرت خياله، وتدلّت يداه عاجزتين وقد سحقته الرغبة في

التعبير عما في نفسه هو، في التصريح عن كل ما شوّه حياته هو، تلك الحياة التي أفظع ما فيها أنها كانت بسيطة، عادية، تتشظى نتفاً تافهة بسرعة غير مفهومة...

مرّت سنوات كثيرة عقيمة بعد ذلك. باع واشترى في فورونيج، ثم، بعد أن ماتت المرأة التي عاش معها، بحمّى النفاس، نقل أعماله إلى يلتس، واشتغل بائعاً في دكان للشموع في ليبيتسك، ثم محاسباً في متجر كاساتكين. وصار مناصراً متحمساً لتولستوي: امتنع عاماً عن التدخين، وشرب الفودكا، وأكل اللحم، واصطحب معه دائماً كتاب "الاعترافات"، وفكّر في الانتقال إلى القفقاس، والانضمام إلى النسّاك الزاهدين... ولكنهم كلّفوه بالسفر إلى كييف في بعض الأعمال.

كان الجو صحواً في أواخر أيلول (سبتمبر)، وبدا كل شيء مرحاً وجميلاً، الهواء النقي والشمس المعتدلة الحرارة، واندفاع القطار، ونوافذه المفتوحة، والغابات المزهرة التي كانت تمرق بمحاذاتها... وفجأة، في محطة نيجين، رأى كوزما حشداً كبيراً عند بوابات المحطة. كان الحشد يحيط بأحدهم والناس يصرخون ويتدافعون ويتجادلون. خفق قلب كوزما وهرع إلى الحشد، واخترقه بسرعة، فرأى قبعة رئيس المحطة الحمراء والمعطف

الرمادي لدركيّ طويل القامة يدفع إلى الخلف ثلاثة من الأوكرانيين يقفون أمامه بخضوع ولكن بعناد. كان الثلاثة يرتدون سترات قصيرة سميكة، وجزمات غير مهترئة، وقبعات من الصوف بنية اللون، استقرت بصعوبة فوق أشياء مخيفة ــ رؤوس مستديرة، ملفوفة بقطع شاش متصلبة بسبب القيح الذي جفّ فوقها، تعلو عيوناً متورّمة، ووجوهاً منتفخة متبلّرة عليها كدمات خضراء مصفرّة وجروح متقيحة ضاربة إلى السواد: لقد تعرّض هؤلاء الأوكرانيون لعضات ذئب مسعور، فأُرسلوا إلى المشفى في كييف، وكانوا في سفرهم يتوقفون قرابة يوم في كل محطة رئيسية تقريباً من دون خبز ومن دون حتى كوبيك في جيوبهم. وحين علم كوزما أنهم لا يسمحون لهم بالسفر الآن لمجرّد أن القطار يحمل اسم "سريع"، تملّكه غضب شديد مفاجئ فصاح مؤيّداً بصرخات استحسان من بعض اليهود في الحشد، ودقّ الأرض برجليه أمام الدركي، فأمسكوا به، وكتبوا ضبطاً بالحادثة، أما هو فسكر حتى الإغماء في أثناء انتظاره القطار التالي.

كان الأوكرانيون من مقاطعة تشيرنيغوفسك. لقد كان دائماً يتخيّل هذه المقاطعة منطقة نائية ذات زرقة شاحبة، متجهمة فوق الغابات. لكن هؤلاء الرجال الذين خاضوا صراعاً بالأيدي ضد وحش مسعور ذكّروه الآن بعصر فلاديمير[1]، بالحياة القديمة،

---

[1] ـ الأمير فلاديمير حاكم روسيا القديمة الذي أدخلها في المسيحية.

القاسية، بحياة رجال أشداء من الزمن القديم. شرب كأسه وصبّ أخرى بيدين راجفتين بعد المعركة التي خاضها، ثم قال بحماسة:

"آه، ما أعظم ذلك الزمن!" وشعر بحقد يخنقه تجاه الدركي وتجاه هؤلاء الحيوانات الأذلاء ذوي السترات السميكة. أغبياء، متوحشون، عليهم اللعنة... ولكن، روسيا، روسيا الزمن القديم! اغرورقت عينا كوزما بدموع النشوة والقوة اللتين يثيرهما السكر، فتشوّهان كل صورة وتضخّمانها إلى حدّ غير طبيعي. "وماذا عن اللاعنف؟" - تذكّر ذلك فهزّ رأسه وضحك ضحكة قصيرة ساخرة. ثمة ضابط فتيّ نظيف المظهر جلس يأكل إلى الطاولة العمومية مديراً ظهره له، فراح ينظر بودّ ووقاحة إلى سترته الرسمية البيضاء. السترة قصيرة جداً وخصرها أعلى من اللازم بكثير، حتى إن كوزما رغب في الاقتراب منه وشدِّها إلى أسفل. «سأقترب! - قال في سره - لكنه سيقفز ويصرخ ويصفع سحنتي! هاك، هذا هو اللاعنف...».

بعد ذلك سافر إلى كييف، وهناك أدار ظهره للعمل، وظل ثلاثة أيام يهيم سكران منتشياً في المدينة، وعلى منحدرات ضفاف نهر الدنيبر. وفي قداس الظهيرة في كاتدرائية القديسة صوفيا تأمل الكثيرون بدهشة ذلك الروسي النحيل الواقف أمام ضريح ياروسلاف. لقد كان منظره غريباً: انتهى القداس وخرج الناس، وأطفأ الحراس الشموع، أما هو فراح يصغي إلى الرنين المنغّم، المتردد بصوت مكتوم فوق الكاتدرائية، كازّاً على أسنانه

مرخياً على صدره شعر لحيته الصغيرة غير الكثيف، مغمضاً عينيه الغائرتين إغماضاً يوحي بالألم والسعادة... وفي المساء رأوه جالساً بجوار فتى عاجز، قرب الدير، ينظر وعلى شفتيه ابتسامة حزينة عكرة، إلى جدران الدير البيضاء، وإلى ذهب القباب الصغيرة اللامع في سماء الخريف. كان الفتى بلا قبعة، يتنكّب حقيبة من قماش سميك وعلى جسده الناحل مِزَق ثوب قذر، يحمل في إحدى يديه كأساً خشبية في قعرها كوبيك، وينقل بيده الأخرى رجله اليمنى المشوهة، العارية حتى الركبة، الذابلة، النحيلة نحولاً غير طبيعي، المسمرّة إلى حد السواد، والمغطاة بوبر ذهبي نما على جلدها، وكأنه ينقل شيئاً غريباً ليس من جسمه. كانت المنطقة حوله خالية، ولكنه كان يردّ رأسه الحليق الخشن بفعل الشمس والغبار إلى الخلف، مظهراً عظمتي ترقوته الطفليتين النحيلتين، غير آبه بالذباب الذي يعبث بمخاطه، وهو ينشد باستمرار بصوت ناعس مريض:

انظرن يا أمهات
كم نحن تعساء، متألمون!
آخ، لا قدّر اللـــه يا أمهات
أن تعانين مثلما نعاني

وكان كوزما يؤكد كلامه: "نعم، نعم! هذا صحيح!" لقد أدرك بوضوح في كييف أنه لم يعد الآن قادراً على البقاء طويلاً عند كاساتكين، وأن ما ينتظره هو الفقر، وفقدان الوجه الآدمي. وهذا ما حدث فعلاً. استمر في عمله بعض الوقت، ولكن في وضع مخجل وصعب جداً: نصف سكران دائماً، سيئ الهندام، مبحوح الصوت، مشبع برائحة الماخوركا، يبذل ما فوق طاقته كي يخفي عدم صلاحيته للعمل... بعد ذلك سقط إلى درك أدنى من ذلك: عاد إلى مدينته، فأنفق فيها آخر ما يملك من نقود؛ ظل طول الشتاء يقضي لياليه في مهجع عام في خان خودوف، ويقتل نهاراته في حانة أفدييتش في سوق النساء. وقد أنفق الكثير من نقوده القليلة على مغامرة غبية هي إصدار كتيّب أشعار، اضطر بعد إصداره إلى أن يتجوّل بين زوّار حانة أفدييتش ويطلب منهم بإلحاح أن يشتروا الكتيّب بنصف الثمن... والأدهى من ذلك أنه صار مهرّجاً! وقف ذات مرة في البازار بالقرب من دكاكين بيع الطحين وراح يتأمل رجلاً حافياً يتلوّى راقصاً أمام التاجر موزجوخين الذي خرج فوقف في مدخل دكانه. كان موزجوخين الناعس الساخر، بوجهه الشبيه بانعكاس وجهٍ على خاصرة السماور المحدّبة، مهتماً بقطٍّ راح يلحس جزمته النظيفة، أكثر من اهتمامه بالرجل. غير أن الحافي بذل قصارى جهده. راح يدق صدره بقبضته ويرفع منكبيه ويصيح بصوت أخن:

من يسكر بعد السكر

يفعل فعلاً ذكياً

تلقّف كوزما قوله فجأة فهتف وعيناه المنتفختان تلمعان:

ليحيا المرح
ليحيا النبيذ

غير أن امرأة عجوزاً من نساء المدينة، وجهها يشبه وجه لبوة هرمة، كانت تمر بقربه، توقفت وتأملته من تحت إلى فوق، ثم رفعت عكّازها وقالت بحقد وهي تفصل بين الكلمات:

ــ أظنك لا تحفظ دعاء الصلاة مثلما تحفظ هذا الكلام!

لم يعد هناك دركٌ أسفل من هذا يهوي إليه. غير أن هذا بالضبط ما أنقذه. لقد عانى عدداً من النوبات القلبية المخيفة ــ فترك السكر دفعة واحدة، واتخذ قراراً حازماً بأن يبدأ حياة ملأى بالعمل وبسيطة إلى أقصى حد، كأنْ يتعهد، مثلاً، بعض الحدائق والبساتين...

أبهجته هذه الفكرة، "نعم، نعم، ــ قال في سره، ــ هذا ما كان عليّ أن أفعله منذ زمن بعيد!" والحق أنه كان يحتاج إلى الراحة، إلى حياة فقيرة، ولكن، نظيفة. لقد بدأ يهرم. لحيته الصغيرة صارت فضية تماماً. وخفّ شعره المسرّح إلى الخلف، المتموّج النهايات، واكتسب لون الحديد، واكمدّ وجهه الذي ازداد هزال عضلاته العريضة...

في الربيع، قبل شهور من صلحه مع تيخون، سمع كوزما بحديقة للإيجار في قرية كازاكوف، في منطقته، فسارع إلى هناك.

كان ذلك في أوائل أيار (مايو)؛ بعد موجة من الحر، حلّ البرد والمطر، ومرّت فوق المدينة سحب خريفية دكناء. في هذا الجو سار كوزما بمعطف قديم وقبعة عتيقة وجزمة مهترئة نحو المحطة الواقعة وراء بوشكارنايا سلوبودا، هازاً رأسه، مكشراً بسبب السيجارة المعلقة بين أسنانه، عاقداً يديه وراء ظهره تحت المعطف، مبتسماً بسخرية: منذ برهة ركض نحوه فتى حافي القدمين يحمل رزمة من الجرائد منادياً وهو يعدو بحماسة بعبارة باتت مألوفة:

ــ إضراب شامل!

ــ تأخرت يا فتى، ــ قال كوزما. ــ أليس لديك ما هو أجدُّ؟

توقف الفتى وعيناه تلتمعان، وأجاب:

ــ الصحف الجديدة صادرها الحارس في المحطة.

ــ يا عيني على الدستور! ــ قال كوزما بمرارة وتابع سيره قافزاً بين الأوحال قرب الأسوار المتعفنة ونوافذ الأكواخ المتداعية المتلاصقة كجبل في نهاية شارع البلدة. "كالماء في الغربال!" قال كوزما في سره وهو يقفز من مكان إلى آخر. في الماضي، كان الناس، في مثل هذا الطقس، يجلسون في الدكاكين والحانات، يتثاءبون، ولا يتبادلون الكلام إلا نادراً. أما الآن ففي المدينة كلها أحاديث عن الدوما، وحركات العصيان، والحرائق،

وعن أن "مورمتسيف أفحم رئيس الوزراء"... طيب، لن يطول عهد الضفدعة بالذيل! في حديقة المدينة تعزف فرقة الحرس... لقد أرسلوا إلى المدينة فرقة كاملة من القوزاق... وفي اليوم الثالث لقدومهم، اقترب أحدهم ثملاً من شباك المكتبة العمومية المفتوح في الشارع التجاري، وهو يفكّ أزرار سرواله، واقترح على الآنسة ــ عاملة المكتبة شراء "الأرخميتيكا"[1] ــ وحين راح حوذي عجوز كان يقف بقربه، يؤنبه، استل القوزاقي سيفه وقطع كتفه، ثم اندفع يطارد المارة والمسافرين الذين تطايروا في كل مكان وقد أفقدهم الفزع صوابهم...

ــ سلاّخ جلود القططْ، عند السور سقطْ! هتفت فتيات صغيرات بأصواتهن الرفيعة، وهنّ يلاحقن كوزما الذي كان يقفز فوق الحجارة في غدير سلوبودا الضحل.

ــ وبعد سلخ جلودها، يعطونه أكفّها!

ــ أوه، ما أبشعكنّ! ــ صاح بهنّ مؤنباً بائع تذاكر القطارات الذي كان يسير أمام كوزما مرتدياً معطفاً طويلاً يبدو، حتى بمجرد النظر إليه، أنه ثقيل جداً. ــ هل الرجل من جيلكنّ!

ولكن كان باستطاعة المرء أن يستشف من صوته أنه يكتم ضحكه. كانت جزمة بائع التذاكر المطاطية القديمة ملطخة بالوحل اليابس، وحزام معطفه مثبتاً بزر واحد. أما هو فكان يسير فوق جسير مائل مصنوع من جذوع الأشجار، بعده، نمت

---

[1] ـ يقصد الأرْفْميتيكا بالروسية ومعناها "الحساب"

بالقرب من حفر طولانية غسلتها مياه الربيع، أعشاب هزيلة نظر إليها كوزما مكتئباً، ثم نظر إلى الأسقف المبنية من القش فوق جبل سلوبودا، وإلى السحب الدخانية اللون، الضاربة إلى الزرقة فوق رأسه وإلى كلب أحمر الشعر يعضّ عظمة محاولاً تمزيقها...

"بلى، بلى، ــ قال في سرّه وهو يصعد الجبل. ــ لن يطول عهد الضفدعة بالذيل!" حين أنهى صعوده، ورأى بين الحقول الخضراء الخالية أبنية المحطة الحمراء، ضحك من جديد ضحكة قصيرة ساخرة. برلمان، نواب! البارحة عاد من الحديقة حيث أقيمت حفلة ألعاب نارية بمناسبة العيد، انطلقت الصواريخ نحو الأعلى في خطوط متعرجة، وعزف الحرس ألحان "توريا دورا" و"عند النهر، قرب الجسر" و"ماتشيش" و"ترويكا" وكانوا يصرخون وسط أصوات عدو الخيل "هيـــــه، يا عزيزاي!" ــ عاد، وراح يقرع جرس بيته. شدّ السلك المعدني وشدّه ــ لا أحد. لا أحد حوله أيضاً غير الهدوء، وعتمة المساء، والسماء الباردة المخضوضرة عند شفق الغروب وراء الساحة التي في نهاية الشارع، ــ وفوق رأسه ــ الغيوم... ثمة أخيراً صوت خطوات أحدهم وراء البوابة، ها هو ذا يوَخْوِخ، يقرقع بالمفاتيح، ويبرطم: ــ أصابني العرج وأنا أسرجها...

ــ ممَّ هذا؟ ــ سأل كوزما.

ــ قتلتني هذه الفرس، ــ أجاب وهو يفتح البوابة على مصراعيها، ثم أضاف: ــ لا بأس، الآن بقيت اثنتان.

ـ هل تعني خيول المحكمة؟

ـ خيول المحكمة.

ـ ألا تعرف لماذا جاءت المحكمة؟

ـ لمحاكمة النائب... يقولون إنه أراد أن يسمّم النهر.

ـ النائب؟ هل النواب يقومون بمثل هذه الأعمال يا أحمق؟

ـ الطاعون أدرى بهم...

في طرف البلدة، بالقرب من مدخل بيت طيني، وقف عجوز طويل القامة ينتعل حذاء ممزقاً. كان العجوز يمسك بيده عصا طويلة من خشب الجوز، وقد سارع، حين رأى كوزما يمرّ، إلى التظاهر بهرمٍ يفوق كثيراً ما كان عليه في الحقيقة، ـ أمسك بالعصا بكلتا يديه، ورفع منكبيه، ورسم على وجهه ملامح التعب والحزن. إنه "سيري"، تداعب خصلات شعره الأشيب هبّات الريح القادمة من الحقول. تذكّر كوزما أباه وطفولته... "روسيا، يا روسيا!" إلى أين تندفعين بهذه السرعة؟" ـ وخطرت في باله صرخة غوغول: ـ "روسيا، يا روسيا!... آه، أيها الثرثارون، ليت هاوية تبتلعكم! آنذاك سيصبح العالم أنقى ـ "النائب أراد أن يسمّم النهر"... طيبٌ، ومن الذي سنحاسبه ـ ها؟ شعب شقيّ، شقيّ، قبل كل شيء!... واغرورقت عينا كوزما الصغيرتان الخضراوان بالدموع فجأة. لقد صار هذا يحدث له كثيراً في الآونة الأخيرة.

منذ زمن غير بعيد دخل إلى حانة أفديبيتش في سوق النساء. دخل إلى الفناء، وقدماه تغوصان في الوحل، ومن الفناء صعد

إلى الطابق الثاني على سلّم خشبي متعفن تماماً. تفوح منه رائحة كريهة، حتى إنه، وهو الإنسان الذي رأى ما رأى، شعر بالغثيان؛ فتح بصعوبة باباً ثقيلاً قذراً مغطى بقطع من اللبّاد ومزق من القماش العتيق بدلاً من الغلاف المنجَّد، وقد ربط به حبلٌ وقطعة قرميد بدلاً من الذراع الآلية التي تغلق الباب بعد فتحه، ــ فأعماه دخان السجائر وأصابته بالصمم قرقعة الأواني على خشبة البار، وطقطقة أحذية النوادل المتراكضين في كل اتجاه، وزعيق الغرامافون المقرف. تابع سيره إلى الغرفة المتطرفة حيث كان الناس أقل عدداً، وجلس إلى إحدى الموائد وطلب زجاجة من شراب العسل. تحت قدميه، فوق الأرض الملطخة بآثار الأقدام والبصاق، تناثرت قطع من الليمون الممصوص، وقشور بيض، وأعقاب سجائر... وقبالته، عند الجدار جلس رجل ريفي طويل القامة ينتعل حذاء مجدولاً من الألياف، وهو يبتسم مغتبطاً يهزّ رأسه المهوّش الشعر مصغياً لزعيق الغرامافون. كانت على الطاولة زجاجة فودكا صغيرة وكأس وبضع كعكات. ولكن الرجل لم يكن يشرب، بل يكتفي بهزّ رأسه، والنظر إلى حذائه. وفجأة أحس بنظرة كوزما ففتح عينيه بابتهاج، ورفع وجهاً طيباً، رائعاً ذا لحية حمراء متموّجة. "لقد طار عالياً!" ــ هتف الرجل بفرح ودهشة. ثم سارع فأضاف مفسّراً: "عندي، أيها السيد، أخ يخدم هنا... أخ شقيق...". مخط كوزما الدموع المتجمعة في أنفه، وكزّ على أسنانه. آه يا كفّار، أيَّ حدٍّ بلغتم في إذلال هذا الشعب وسحقه! "طار عالياً"! وعالياً

إلى أفدييتش! والأدهى من ذلك أن الرجل، حين نهض كوزما وقال له: ــ"طيب، وداعاً!"، وقف بسرعة وبقلب تملؤه السعادة، والامتنان العميق لفخامة المكان، ولكون أحدهم كلّمه بإنسانية، ردّ على عجل: "لا تزعل مني..."

كان الناس في الماضي لا يتكلمون في عربات القطار إلا عن الجفاف والمطر وعن أن "اللـــه هو من يتحكم بأسعار القمح". أما الآن، فأوراق الصحف تخشخش في أيدي الكثيرين والأحاديث تدور على الدوما، والحريات، ونزع ملكية الأراضي ــ لم يكن هناك من يلاحظ المطر الغزير الذي ينهمر صاخباً فوق سطوح العربات، على الرغم من أن المسافرين كلهم من المتعطشين للأمطار الربيعية ــ تجار حبوب، وأبناء قرى، وعمال زراعيون من أبناء المدن. كان ثمة جندي فتيّ مقطوع الساق، مصاب باليرقان، ذو عينين سوداوين حزينتين يتجول في العربة متعثراً يدقّ أرضها بقطعة خشب يتوكأ عليها، ويمد يده بقلنسوة منشورية ويرسم شارة الصليب كالشحاذين عند كل عطاء يناله. وعلت الأصوات في حديث صاخب غاضب تناول الحكومة والوزير دورنوفو ودوائر حكومية... تذكّر المتحدثون ساخرين ما كانوا يفاخرون به في الماضي: تذكروا كيف أن "فيتيا" كان يأمر خادمه أن يحزم له الحقائب، مهدّداً بذلك اليابانيين في بوتسثموث... اصطبغ وجه شاب حليق الرأس كفرس الماء، جالس قبالة كوزما، بالحمرة وسارع إلى التدخل في الحديث مهتاجاً:

ـ عفواً، أيها السادة! أنتم تقولون ـ الحرية... ها أنذا أعمل كاتباً عند مفتش ضرائب وأرسل مقالات صغيرة إلى صحف العاصمة... فهل هذا يعنيه؟ إنه أيضاً يؤكد تأييده للحرية، ولكنه حين عرف أنني كتبت عن الوضع السيئ في دوائر الإطفاء، استدعاني وقال لي: "سأخلع رأسك يا ابن الكلب إذا كنت ستكتب مثل هذه الأشياء!" عفواً. ما ضير أن تكون آرائي أكثر يسارية من آرائه...

ـ آراء؟ صاح فجأة بصوت قزم رفيع الصائغ تشيرنايف الجالس إلى جواره وهو بدين ينتعل جزمة منتفخة كقارورتين، كان طول الوقت يحدجه بعيني خنزير، ثم تابع صياحه دون أن يمنحه فرصة لتمالك نفسه:

ـ آراء؟ أنت عندك آراء؟ أنت أكثر يسارية؟ أنا أعرفك منذ كنت بلا سروال! أنت، كنت تفطس من الجوع، كانت حالك أسوأ من حال أبيك الشحاذ! الألزم لك أن تغسل رجلي المفتش وتشرب الغُسالة!

ـ الدو ـ ستو ـ ر ـ قال كوزما بصوت منغّم مقاطعاً المخنّث وهو ينهض من مكانه ويمضي نحو باب العربة مصطدماً برُكبِ الجالسين.

كانت قدما المخنث صغيرتين، ممتلئتين ومقرفتين كقدمي حارس مستودع أغذية عجوز، ووجهه كوجوه النساء مكتنزاً، أصفر، كبيراً، وشفتاه رقيقتين... ولم يكن يقلّ عنه جودةً بولوزوف ـ المعلم في الإعدادية، الذي كان يهز رأسه بودّ

موافقاً، وهو يصغي إلى المخنث، مستنداً إلى عكازه. كان هذا المعلم قصير القامة يعتمر قبعة رمادية ويرتدي حرملة رمادية، صافي العينين، ذا أنف مدعبل، ولحية كستنائية فاخرة تغطي صدره كله. فتح كوزما باب العربة المطل على فسحة بين العربات واستنشق بابتهاج برودة المطر العطرة المنعشة. كان المطر يهدر بصوت أصمّ على سطح الفسحة ثم يندلق من فوقه جداول تتطاير نثاراً، والعربات تتمايل وتقرقع مخترقة صخب المطر، تلاقيها، هابطة تارة، وصاعدة تارة أخرى، أسلاك التلغراف، وعلى جانبيها تمرق متراكضة ذرى أشجار الجوز بخضرتها النضرة. فجأة، برزت جماعة متنوعة من الأولاد من وراء إحدى كومات التراب وصاحت بصوت جماعي رنان قائلة شيئاً ما لكوزما الذي ابتسم بحنان وقد غطّت التجاعيد الصغيرة وجهه كله. وحين رفع بصره رأى في الفسحة المقابلة أحد الجوّالين: وجه فلاحي طيب معذب، ولحية شيباء، وقبعة عريضة الحواف، ومعطف منجّد قصير مربوط بحبل على الخصر، وكيس، وإبريق شاي من التنك معلقان على الكتف، وساقان هزيلتان ملفوفتان بالخرق. فخاطبه بصوت عال عبر الضجيج وقرقعة العربات:

ـ من أين برعاية اللـــه؟

ـ من فورونيج، ـ أجاب الجوّال بصيحة ضعيفة مظهراً استعداداً ودوداً للكلام.

ـ هل يحرقون الإقطاعيين هناك؟

ـــ يحرقونهم...

ـــ عظيم!

ـــ نعم؟

ـــ أقول: عظيم! صاح كوزما.

استدار يمسح بيدين راعشتين دموع التأثر التي سالت على خديه، ثم شرع يلف سيجارة... غير أن أفكاره اختلطت مرة أخرى. "هل الجوّال ـــ شعب، والمخنث والمعلم ـــ ليسا من الشعب؟ لم يمض على إلغاء العبودية سوى خمسة وأربعين عاماً ـــ فما الذي تنتظره من هذا الشعب؟ طيب، لكن من المسؤول عن ذلك؟ الشعب نفسه!" اكمدّ وجه كوزما من جديد وتهدلت قسماته.

في المحطة الرابعة نزل من القطار واستأجر عربة. الحوذيون ـــ القرويون طلبوا في البداية سبعة روبلات ـــ المسافة إلى كازانوفا اثنا عشر فرسخاً، ـــ ثم خفّضوا الطلب إلى خمسة روبلات ونصف. وأخيراً قال أحدهم: "أنقلك إن أعطيتني ثلاثة روبلات، وإلا فلا داعي لكثرة الكلام. فاليوم غير الأمس..." ولكنه خفّض من لهجته العالية وقال بلهجة عادية: والأعلاف غالية الثمن..." ثم وافق على نقله بروبل ونصف. كان الوحل كثيراً يصعب اختراقه، والعربة صغيرة والحصان صغير يكاد يحتضر، ـــ أذناه كبيرتان كأذني الحمار، وقواه خائرة. انطلقت العربة من المحطة ببطء. وكان القروي الجالس على مقعد القيادة يبدو مرهقاً وهو يشدّ الرسن المجدول من الحبال، راغباً بكل

كيانه، في مساعدة الحصان. في المحطة كان يتفاخر زاعماً أن حصانه سريع "تصعب السيطرة عليه"، ويبدو أنه بات يشعر بالخجل الآن. غير أن الأمر الأسوأ كان هو نفسه. شاب ضخم، ممتلئ الجسم، ينتعل صندلاً ويلفّ ساقيه بقماط أبيض، ويرتدي سترة قوزاقية قصيرة ويتمنطق بزنار من القماش المثنّى، ويعتمر فوق شعره الأصفر السابل طاقية قديمة. تفوح منه رائحة قنّ الدجاج ونبات عبّاد الشمس، ــ إنه فلاّح من عهد القيصر حُمّص![1] ــ وجهه أبيض، بلا شوارب، وحنجرته منتفخة وصوته أخنّ.

ــ ما اسمك؟ ــ سأله كوزما.

ــ ينادونني أخْفَنَاسي...

ــ "أخفناسي!" قال كوزما لنفسه، وفي قلبه غصة.

ــ وكنيتك؟

ــ مينشوف... حا، حا يا كافر!

ــ أهي مريضة؟ سأل كوزما مشيراً إلى حنجرة الرجل.

ــ هِهْ، مريضة دفعة واحدة، ــ بربر مينشوف مشيحاً بعينيه جانباً. ــ كل ما في الأمر أني شربت كفاساً بارداً.

ــ هل تتألم عند البلع؟

ــ عند البلع، لا، لا أتألم...

[1] ـ المقصود بذلك أنه فلاح من العهد القديم

ــ طيب، إذن لا تثرثر بكلام فارغ، ــ قال كوزما بصرامة.

ــ اذهب وارقد في المستشفى في أسرع وقت. أظنك متزوجاً؟

ــ متزوج...

ــ طيب، أرأيت؛ سيأتي الأولاد ــ وستمنحهم جميعاً مرضك على أفضل وجه.

ــ هذا مؤكد تماماً ــ قال مينشوف موافقاً.

وشرع يشد الرسن متحاملاً على نفسه. "تي ــ نو... لا راحة لي معك، يا كافر!" وأخيراً ترك هذا العمل الذي لا جدوى منه وهدأ. صمت طويلاً ثم سأل فجأة:

ــ هل جمعوا الدوما أو لا، أيها التاجر؟

ــ جمعوها.

ــ ومكاروف، يقولون ــ إنه حي، ــ ولكنه لا يريد أن يعلن ذلك... اكتفى كوزما بهز كتفيه: لا يعلم إلا الشيطان ما في هذه الرؤوس الريفية! "ما أعظم هذه الثروة!" قال في سره، وهو يعاني من جلوسه رافعاً ركبتيه في قاع العربة العاري فوق كومة من القش مغطاة بقماش خشن، متأمّلاً الطريق. هذي، إذن، أرض السواد! معتمة، وكثيفة... أما البيوت ــ فطينية، صغيرة، سطوحها مغطاة بالروث. وبالقرب من البيوت ــ أحواض ماء زال جفافها. ولكن ماءها يعجّ، طبعاً، بالبلاعط[1]... ها هي ذي حوش غنية. كوخ لتجفيف السنابل فوق البيدر، حظيرة، بوابة،

[1] ـ ديدان الماء الصغيرة

بناء ــ كل ذلك تحت سقف واحد مغطى برزم من القش المضغوط. البناء من القرميد المزدوج، وعلى الجدران بين النوافذ رسوم بالحوار: على أحدها رسم على شكل عصا في أعلاها ــ قرنان، ــ وشجرة سرو، وعلى الآخر رسم يشبه الديك؛ وثمة على النوافذ أيضاً رسم بالحوار على شكل خطوط مسننة. "إبداع! ــ قال كوزما في سره وهو يضحك ضحكة قصيرة ساخرة. ــ عصر الكهوف، ليعاقبني الرب، عصر الكهوف!" فوق أبواب المستودعات ــ صلبان مرسومة بالفحم، وفي الشرفة ــ شاهدة قبر كبيرة، ــ يبدو أن أحدهم، الجدّ أو الجدّة، أعدّها لحين الموت... نعم، الحوش كبيرة. ولكن الوحل يبلغ الرُّكب في المكان كله، وثمة خنزير متمدد في المدخل. والنوافذ صغيرة، لذا لا بد أن يكون الجزء السكني من البناء معتماً، ــ ضيق دائم: طُزر[1] للنوم، وآلة نسيج يدوي، وموقد ضخم ووعاء كبير للنفايات... الأسرة كبيرة، والأولاد كُثُر، وهناك في الشتاء ــ الخرفان والعجول... والرطوبة، والحرارة التي تجعل البخار الأخضر يملأ الجو. كان الأولاد يبكون ويصرخون حين يتلقون الصفعات على رقابهم؛ والكنّات يتشاتمن ــ "لتقتلك الصاعقة يا كلبة يا زقاقية!" وتتمنى كل واحدة منهن للأخرى "أن تختنق بلقمة الزقوم يوم القيامة"؛ وكانت الحماة العجوز ترمي الكنّات باستمرار بالنزّالات والأواني، وتتقض

[1] - الطُزُر جمع طزر وهو تخت خشبي ضيّق واطئ يستخدم للجلوس والنوم.

عليهن مشمّرة عن زندين أسودين، تهدّل جلدهما، وقد بُحّ صوتها من شدة زعيقها بالشتائم، ويتناثر بصاقها مع الشتائم باتجاه هذه تارة، وباتجاه تلك تارة أخرى... أما العجوز الحاقد المريض فقد أرهق الجميع بتوجيهاته.

تابعا طريقهما، فانعطفا نحو المرعى. ثمة سوق راحت تتشكل في ذلك المكان. فقد انتصبت هنا وهناك أعمدة الخيم، وانتشرت أكوام من العجلات، والآنية الفخارية، وتصاعد الدخان من موقد مبني على عجل، وفاحت رائحة الفطائر،؛ وتصاعدت الألحان من عربة الغجر الجوالين، التي جلس بالقرب من عجلاتها كلبا حراسة متأهبين. أبعد من ذلك، بالقرب من خمّارة أنيقة، وقف حشد متراصّ من القرويات والقرويين وقد تعالت أصواتهم.

ـــ الشعب يحتفل، ـــ قال مينشوف ساهماً.

ـــ وما مناسبة هذا الاحتفال؟ سأل كوزما.

ـــ يعلّقون الآمال...

ـــ على ماذا؟

ـــ هذا واضح... على العفاريت!

ـــ إي ـــ إيخ! صاح واحد من الحشد على وقع الأقدام القوي الأصمّ:

لا تفلحْ، لا تحصدْ
لا تحمل رزم السنابل للنساء

لوّح قروي قصير القامة كان يقف خلف الحشد، بيديه. كان كل ما يرتديه مرتباً ونظيفاً، ومتيناً ــ الصندل وأقمطة الساقين والسراويل الجديدة السميكة والتنورة المثنّاة القصيرة جداً والسترة المصنوعة من قماش كحلي سميك. وفجأة، ضرب الأرض بصندله بليونة ومهارة، ثم لوّح بيديه، وصاح بصوت رفيع: "أفسحوا المجال، دعوا التاجر يرى!" ــ قفز إلى قلب الدائرة التي اتسعت، ورجّف سرواله ترجيفاً شديداً أمام فتى طويل القامة أمال قبعته، وراح يرقّص ساقيه رقصاً شيطانياً، ثم خلع، وهو يرقص، قميصه الشيت الجديد، وسترته السوداء. كان وجه الفتى عابساً وشاحباً يغطيه العرق.

ــ يا بني! يا حبيبي! ــ صاحت عجوز ترتدي تنورة منسوجة منزلياً من الصوف رافعة يديها، فاخترق صوتها صخب الأقدام التي كانت تدق الأرض برتابة ــ كفاك بحق المسيح! يا حبيبي، كفى ــ ستموت!

ولكن الولد ردّ رأسه إلى الخلف بسرعة، وضغط قبضتيه وأسنانه، ثم ضرب الأرض بقدميه وصرخ ووجهه يشتعل غضباً:

اخرسي يا امرأة، لا تتعقي كالبوم...

ــ لقد باعت آخر ما تملك من أجله، ــ قال مينشوف وهو يقود العربة ببطء عبر المرعى. ــ إنها تحبه بجنون، ــ شغل

أرامل، ــ أما هو فيسكر ويشبعها ضرباً في كل يوم... أظنها، تستحق ذلك.

ــ ولماذا هي "تستحق ذلك"؟ ــ سأل كوزما.

ــ لأنها تستحق...

ــ لا تمغمغ الكلام...

على مقعد خشبي بالقرب من أحد الأكواخ جلس قروي طويل القامة ــ يضعون في التوابيت من هم أفضل منه حالاً: ساقاه تقفان في حذاء من اللباد كأنهما عصوان، ويداه الكبيرتان الميتتان ترقدان مستقيمتين على ركبتيه الحادتين، اللتين يغطيهما سروال كاحت. وقبعته تغطي نصف جبينه، على طريقة العجائز. عيناه منهكتان، مستجديتان، ووجهه، الناحل نحولاً غير آدمي، ممطوط، وشفتاه اللتان بلون الرماد، مفتوحتان نصف فتحة...

ــ هذا تشوشين[1]، ــ قال مينشوف مشيراً إلى الرجل المريض. ــ إنه يموت منذ عامين لمرض في بطنه.

ــ تشوشين؟ ما هذا، أهو لقب؟

ــ لقب...

ــ غباء! قال كوزما.

وأشاح بوجهه كي لا يرى فتاة قرب الكوخ التالي: كان جذع الفتاة مرتداً إلى الخلف، وهي تحمل بين يديها طفلاً على رأسه طاقية من القماش، وتحدّق بالمارة، وقد مدّت لسانها وهي تلوك

---

1 ـ اسم مشتق من كلمة "الدمية المخيفة".

قطعة من الخبز الأسود، تصنع منه مصاصة للطفل... وعلى بيدر متطرّف خشخشت الأعشاب الطويلة بفعل الريح، وخفقت فزّاعة مائلة بكميها الفارغين. البيدر المجاور للسهب غير مريح وكئيب دائماً، وما زاد الطين بلّة هنا، هذه الفزّاعة، وغيوم الخريف التي أضفت زرقة خفيفة على كل الأشياء، كانت الريح تصفر قادمة من الحقول، مبعثرة ريش ذيول الدجاج المتجول في ساحة البيدر حيث نمت الأعشاب والنباتات البرية، بالقرب من عرزال[1] لتجفيف السنابل لم يبق منه غير الهيكل...

ثمة غابة صغيرة لاحت زرقاء في الأفق ــ جرفان طويلان نمت فيهما أشجار البلوط، ــ كان هذا المكان يعرف باسم بورتوشكي. وبالقرب من بورتوشكي هذه وقع كوزما تحت سيل من المطر والبَرَد رافقه حتى كازاكوفا نفسها. راح مينشوف يقود الحصان عدواً في ضواحي البلدة، أما كوزما فتكوّر وجلس تحت الشادر المبلل البارد. تجمّدت يداه من البرد، وسالت تحت ياقة معطفه جداول صغيرة جليدية، وفاحت من الشادر الذي ازداد ثقله تحت المطر، رائحة عفن المستودعات. كانت حبات البرد تتساقط على رأسه، وقطع الطين تتطاير، والماء يصخب في الأخاديد التي تشقها العجلات، وفي مكان ما علا ثغاء خرفان صغيرة... أخيراً صار الجو خانقاً، الأمر الذي جعل كوزما يزيح الشادر عن رأسه. خفّت غزارة المطر، وحلّ المساء، وتراكض

---

[1] ـ كوخ من أغصان وأوراق الشجر.

قطيع من الماشية في المرعى الأخضر قرب العربة، متجهاً نحو البيوت. وضلّت نعجة سوداء ناحلة الساقين، طريقها، فطاردتها امرأة حافية تغطي رأسها بتنورة مبللة، كاشفة بطتي ساقيها اللامعتين. انقشعت الغيوم في الجهة الغربية وراء البلدة، أما في الشرق فارتسم فوق غيمة غبراء ضاربة إلى الزرقة خيّمت على حقول القمح، قوسان تمازج فيهما اللونان الأخضر والبنفسجي. وضاع بكثافة في الجو الرطب أريج خضرة الحقول، ودفء البيوت.

ــ أين بيت السيّد؟ ــ نادى كوزما مخاطباً امرأة ذات منكبين عريضين ترتدي قميصاً أبيض وتنورة حمراء من الصوف.

كانت المرأة واقفة على العتبة الحجرية لبيتها ممسكة يد بنت تبكي بصوت عال، بل تزعق بصوت حاد لا يحتمل.

ردت المرأة مستفسرة: بيت؟... من؟

ــ السيد.

ــ من؟ لا أسمع شيئاً... اخرسي أنتِ، وأنتَ، يا حبيب، امضِ عني! ــ صاحت المرأة، وجذبت البنت بقوة جعلتها تدور في مكانها.

سألا سكان بيت آخر. اجتازا شارعاً عريضاً، وانعطفا يساراً، ثم يميناً، بالقرب من مزرعة على نمط مزارع النبلاء القديمة، فيها بيت مغلق بإحكام، وراحا يهبطان عن جبل شديد الانحدار نحو جسر فوق نهر صغير. كان الماء يقطر من وجه مينشوف وشعره وسترته، وقد بدا أكثر غباء بوجهه السمين المبلل

ورموشه الطويلة البيضاء. كان ينظر بفضول إلى مكان ما في الأمام. فاتجه كوزما بنظره إلى هناك أيضاً. في الجهة المقابلة، عند حافة المرعى، ــ حديقة قوزاقية معتمة وفناء واسع تحيط به أبنية مدمَّرة وسور حجري مهدّم؛ في وسط الفناء، خلف ثلاث سروات جافة ــ بيت محاط بزنار رمادي، تحت سقف صدئ أحمر. وفي الأسفل، عند الجسر ــ مجموعة من القرويين. أما في الأمام، على الطريق المبتلة الشديدة الانحدار فكانت ثلاثة خيول شغّالة، مشدودة إلى عربة خفيفة، تصارع الوحل محاولة الصعود إلى أعلى، وقد وقف إلى جانب العربة فلاح ممزق الثياب ولكنه جميل، شاحب الوجه، ذو لحية حمراء فاتحة، وعينين ذكيتين، يشدّ مقود الخيول ويدفعها إلى السير قدماً وهو يشرع في الصعود إلى العربة: "نوــ نوــ و! نوــ نو!"، فيرد القرويون على صرخته بالصخب والصفير: "تبْ رو! تبْ رو!" وتبسط سيدة شابة كانت تجلس في العربة في ثياب الحداد، يديها في حركة يائسة، وقد علقت برموشها الطويلة دمعتان كبيرتان. كما أن اليأس بدا في العينين الفيروزيتين لرجل بدين ذي شاربين أحمرين كان يجلس إلى جانبها، وقد التمع خاتم الزواج في يده اليمنى التي كانت تقبض على مسدس، أما اليسرى فكان يلوّح بها باستمرار، لأنه يشعر بالحرّ الشديد بسبب سترته المصنوعة من جلد الجمل والقبعة المصنوعة من الجوخ، التي أزاحها إلى مؤخرة رأسه. وفي المقعد المقابل كان يجلس طفلان: ــ ولد وبنت ــ شاحبان وقد التفا بشال وراحا يتلفتان بفضول خجول.

ـ هذا ميشكا سيفيرسكي، ـ قال مينشوف بصوت أخنّ مرتفع وهو يتجاوز الترويكا ناظراً إلى الطفلين بلا مبالاة. ـ لقد أحرقوا أملاكه البارحة يا سيدي... يبدو أنه يستحق ذلك.

مدير أعمال السادة في كازاكوفا المختار كان جندياً سابقاً في سلاح الفرسان، طويل القامة وفظّ. وكان على كوزما أن يتوجه إليه في الديوان. هذا ما أخبره به عامل دخل إلى الفناء بعربة محملة بعشب نام، أخضر، مبتلّ. لقد حلّت مصيبة بالمختار في هذا اليوم ـ مات له طفل ـ ولذا لم يحظ كوزما باستقبال ودود. حين ترك مينشوف خارج البوابة واقترب من الديوان، كانت زوجة المختار قادمة من الحديقة وعلى وجهها آثار البكاء وملامح الجد، وقد حملت دجاجة مرقشة استقرت مسالمة تحت إبطها. وبين الأعمدة في الشرفة المتداعية وقف شاب طويل القامة ينتعل جزمة عالية الساق ويرتدي قميصاً من الشيت، رأى زوجة المختار فناداها:

ـ أغافيا... إلى أين تأخذينها؟

ـ إلى الذبح، أجابت زوجة المختار جادةً، حزينة.

ـ هاتيها أذبحها لك.

توجه الشاب إلى غرفة المؤونة غير عابئ بالمطر الذي بدأ ينهمر مجدَّداً من السماء العابسة. فتح باب غرفة المؤونة وتناول من عتبتها ساطوراً، وبعد دقيقة، سُمع صوت طرقة سريعة، ركضت بعدها الدجاجة مقطوعة الرأس، ممزقة الرقبة، فوق العشب، فتعثرت ودارت حول نفسها مصفقة بجناحيها، فتطاير

منها الريش والدم في كل الأنحاء. ألقى الشاب الساطور جانباً وتوجه نحو الحديقة، أما زوجة المختار فأمسكت بالدجاجة واقتربت من كوزما:

ــ ماذا تريد؟

ــ جئت من أجل الحديقة، ــ قال كوزما.

ــ انتظر فيدور إيفانيتش.

ــ أين هو؟

ــ سيعود من الحقل بعد قليل.

وقف كوزما ينتظر قرب الديوان. نظر إلى الداخل فرأى في الغرفة نصف المعتمة، موقداً وسريراً خشبياً بلا حواف وطاولة وقصعة خشبية صغيرة فوق مقعد قرب النافذة هي تابوتٌ صغيرٌ يرقد فيه طفل صغير رأسه كبير وخال من الشعر تقريباً، ووجهه أزرق شاحب... فلاحة عمياء بدينة راحت تلتقط قطع الخبز والحليب من وعاء على الطاولة بملعقة خشبية كبيرة. كان الذباب، كالنحل في خليته، يطنّ فوقها ويدبّ فوق الوجه الميت، ثم يسقط في الحليب، ولكن العمياء الجالسة مستقيمة الظهر كالتمثال، المحدّقة في فضاء الغرفة نصف المعتم بعينيها الضريرتين، كانت تأكل وتأكل. شعر كوزما بالخوف فأشاح بوجهه. الريح تهب متقطعة، والجو يزداد عتمة بسبب الغيوم، وثمة عمودان ينتصبان في وسط الفناء يصل بينهما جسر خشبي عُلّق عليه، كالأيقونة، لوح من الحديد الصبّ: هذا يعني أنهم كانوا يخافون في الليل فيقرعون اللوح الحديدي. وفي أرجاء

الفناء انتشرت كلاب حراسة هزيلة، راح يركض بينها طفل في الثامنة تقريباً، وهو يجرّ أخاه الصغير ذا الرأس الأبيض والشكل غير المتناسق، والقبعة السوداء الكبيرة، في عربة كانت تصرّ صريراً حاداً. لقد بدا البيت رمادياً ثقيلاً، كئيباً، حتماً، إلى حد شيطاني في ذلك المساء. "ليتهم أشعلوا ناراً!" قال كوزما في سرّه. كان مرهقاً إلى حدّ الموت، وقد بدا له أنه غادر المدينة منذ ما يقرب من عام...

قضى مساءه وليله في الحديقة. فالمختار الذي قدم من الحقل على ظهر حصانه قال بغضب: "الحديقة مؤجرة منذ زمن"، وردّاً على طلب كوزما للمبيت، أبدى دهشته وقال بوقاحة: "ما شاء اللـــه ما أذكاك! وجدت خاناً تبيت فيه! لقد كثر عدد المشردين أمثالك في هذه الأيام..." غير أنه تكرّم وسمح له بالنوم في الحديقة، في الحمّام. دفع كوزما حساب مينشوف، ومشى بالقرب من المنزل نحو مدخل درب تحفّ بجانبيه أشجار الزيزفون. من النوافذ المفتوحة المظلمة، ومن وراء الشباك الحديدية التي تمنع دخول الذباب، علا عزفٌ على البيانو يرافقه صوت رائع، يؤدي أنغاماً معقدة لا تنسجم أبداً مع هذا المساء، أو مع هذه العزبة. وفوق الرمل القذر للدرب المنحدر الذي في آخره تبدو السماء المغطاة بغيوم انقشعت قليلاً كأنها حافة العالم، كان قروي يحمل دلواً في يده، يسير مكشوف الصدر، منتعلاً جزمة ثقيلة في ملاقاة كوزما.

ــ أوخ، أوخ، ــ قال القروي ساخراً، مصغياً للنغمات دون أن يتوقف. ــ أوخ، إنه يغرّد.

ــ من هذا الذي يغرد؟ ــ سأل كوزما. فرفع القروي رأسه وتوقف.

ــ إنه السيد الصغير، ــ قال بمرح وهو يلثغ بشدة بحرف الراء. ــ يقولون: إنه على هذه الحال منذ سبعة أعوام!

ــ أهو ذلك الذي ذبح الدجاجة؟ ــ لا، إنه غيره... هذا ليس كل شيء! إنه في بعض الأحيان يصرخ: "اليوم ــ أنت، و غداً ــ أنا" مصيبة حقيقية!

ــ هو يتعلّم، صحيح؟

ــ يا سلام على العلام!

كل ذلك قيل من دون اهتمام، بشكل عابر، وغير متواصل، ولكن بلثغة شديدة وسخرية مُرّة، الأمر الذي دفع كوزما إلى أن يتأمل بعمق الرجل الذي لاقاه. إنه يبدو أحمق. شعره سابل محدّب، ووجهه صغير، ليس فيه ما يثير الاهتمام، وجه روسي قديم، كوجوه أهل سوزدال. جزمته ضخمة وجسمه هزيل، يبدو وكأنه خشبي. له عينان صقريتان تحت حاجبين عريضين. حين يخفض حاجبيه يبدو أحمق عادياً، أما حين يرفعهما، فمنظره مخيف بعض الشيء.

ــ هل أنت مقيم في الحديقة؟ ــ سأل كوزما.

ــ في الحديقة، وإلا فأين؟

ــ ما اسمك؟

ــ اسمي؟ أكيم... وأنت؟

ــ أنا أردت استئجار الحديقة. لكني تأخرت!

هز أكيم رأسه ساخراً، وتابع سيره.

استمرت الريح تهب متقطعة، فتُساقط رشاشَ الماء عن الشجر ذي اللون الأخضر الساطع، وفي مكان ما منخفض وراء الحديقة، ارتفع صوت رعد متوتر، ــ وراح بريق اللّمع الأزرق الشاحب يشعّ على الدرب، والبلابل تغرّد في كل المكان. لم يكن مفهوماً أبداً كيف تستطيع البلابل أن تغرّد بهذه العذوبة والقوة في هذا المكان المهجور، وكيف تستطيع التجمع والانتشار تحت هذه السماء المثقلة بالغيوم الرصاصية اللون، بين الأشجار المتمايلة بفعل الريح، في الأدغال الكثيفة المبتلة. ولكن الأمر الأكثر إبهاماً هو كيف يقضي الحراس لياليهم في هذا الجو العاصف، كيف ينامون على القش المبلل تحت سقف العرزال المتداعي!

كانوا ثلاثة، كلهم مرضى. الأول شاب، كان يعمل خبازاً، وهو الآن صعلوك متشرد يشكو من الحمى؛ والثاني، ميتروفان، متشرد أيضاً يشكو من السل، على الرغم من أنه يقول إنه لا يشكو من شيء، "ولكنه يشعر بالبرد بين لوحي كتفيه"؛ أما أكيم فيشكو من "عمى الدجاج" ــ فهو لا يرى في الأماسي بسبب ضعف بصره. كان الخباز، حين اقترب منه كوزما يجلس القرفصاء شاحباً وديعاً قرب العرزال، وقد شمّر عن ساعديه الضعيفين الهزيلين أكمام كنزة قطنية، وراح يغسل بعض القمح في وعاء خشبي. وكان ميتروفان المسلول، وهو رجل مربوع

القامة، عريض المنكبين، أسمر الوجه، ثيابه ممزقة مبتلة وحذاؤه مهترئ ماحٌّ من كثرة الاستعمال وقاسٍ كحدوة حصان قديمة، يقف إلى جانب الخباز رافعاً منكبيه، ناظراً إلى عمله من دون أي تعبير في عينيه الشهلاوين اللامعتين المفتوحتين إلى أقصى مدى. أما أكيم فقرّب الدلو إليه وحرّك ما في داخله، وراح بعد ذلك ينفخ في النار تحت موقد طيني مواجه للعرزال. ثم دخل إلى العرزال فانتقى بعض القش الأكثر جفافاً وعاد مرة أخرى إلى النار التي فاحت رائحتها وتصاعد دخانها تحت القدر، وهو يبرطم بكلام غير مفهوم ويرسل صفيراً من صدره حين يتنفس، ويبتسم بسخرية وغموض وعدم مبالاة بحوار زميليه اللذين كان يقاطعهما أحياناً بحقد ومهارة. أغمض كوزما عينيه وراح يصغي إلى الحديث تارة وإلى البلابل تارة أخرى، جالساً على مقعد رطب بالقرب من العرزال، يتساقط عليه رذاذ صقيعي كلما هبت الريح الرطبة على الدرب المحاط بالزيزفون، في عتمة المساء تحت قبة السماء الراعدة، المنتفضة كلما لمع البرق الشاحب.

أحس بألم في معدته بسبب الجوع وكثرة التدخين، وبدا له أن السليقة لن تنضج أبداً، واستقرت في رأسه لا تغادره فكرة أنه، هو نفسه، قد يعيش مثل هذه الحياة المتوحشة التي يحياها هؤلاء الحراس... فأحسّ بهبات الريح تستفزه، وكذلك صوت الرعد الرتيب الآتي من بعيد، والبلابل ولثغة أكيم البطيئة، الساخرة، غير المبالية، وصوته الحاد كالصرير.

ـ ليتك يا أكيموشكا، تشتري زنّاراً، ـ قال الخباز ببساطة متصنعة مداعباً، وهو ينظر إلى كوزما، ـ داعياً إياه أيضاً لسماع حديث أكيم.

ـ طيب، انتظر، ـ أجاب أكيم ساخراً، ساهماً وهو يخرج ملعقة طويلة ممتلئة بالمرق، من القدر الذي كان يغلي. ـ سأشتري لك جزمة تزقزق، إذا بقينا الصيف القادم عند السيد.

ـ "تزقزقزق"! أنا لم أطلب منك ذلك.

ـ ولكن، أنت نفسك في مِزَق حذاء!

وراح أكيم يتذوق بعناية المرق الذي في الملعقة.

اضطرب الخباز وتنهّد:

ـ من أين لنا الجزمات يا حسرة!

- كفاكما، - قال كوزما، - الأفضل أن تقولا لي كيف تعيشون هنا. أيعقل أن يكون طعامكم في كل يوم سليقة؟

- وأنت ماذا تريد، أتريد سمكاً ولحم خنزير مدخّناً؟ ــ سأل أكيم وهو يلحس ما علق بالملعقة من دون أن يلتفت. ــ لا بأس بذلك طبعاً: قليل من الفودكا، ثلاثة فونطات من سمك السوم، شريحة لحم خنزير مدخّن، وشاي بالفواكه... هذه، على كل حال، ليست سليقة بل "قمحية مريقة".

- ألا تطبخون حساء الملفوف؟

- كان عندنا، يا صاح، حساء ملفوف، وأي حساء! لو أطعمت منه كلباً لوقف شعره!

- أنت حاقد إلى هذا الحد لأنك مريض! ليتك تعالج نفسك، ولو قليلاً...

لم يردّ أكيم بشيء. النار شرعت تخمد، واحمرّت تحت القدر كومة من الجمر، وازدادت عتمة الحديقة، وصار اللمع الأزرق أقل إضاءة للوجوه بسبب هبوب الريح التي كانت تنفخ في قميص أكيم. كان ميتروفان يجلس إلى جانب كوزما مستنداً على عصاه، أما الخباز فجلس على جذع شجرة مقطوع تحت شجرة زيزفون، وتحوّل إلى الجدّ، حين سمع كلمات كوزما الأخيرة.

- أنا أعتقد، قال بلهجة منكسرة حزينة، أنه ما من شيء إلا من عند الله. إذا لم يعطك اللــه الصحة فليس بمقدور الدكاترة كلهم أن يساعدوك. أكيم يقول الحق: لن تموت قبل حلول أجلك.

ــ الدكاترة! ــ التقط أكيم الحديث وهو يتأمل الجمرات. وقد نطق هذه الكلمة بمرارة استثنائية: دكاتغة!.. ــ الدكاترة يا صاحبي، يغذّون جيوبهم. لو كان الأمر لي لبقرت بطن ذلك الدختور جزاء أفعاله!

ــ ليس الكل من يفعل ذلك، ــ قال كوزما.

ــ أنا لم أرَ الكل.

ــ طيّب، لا تثرثر إذن، ما دمت لم ترَ الكل، ــ قال ميتروفان بلهجة صارمة. تخلّى أكيم عن هدوئه الساخر على غير توقع. فتح عينيه الصقريتين إلى أقصى حد، ووثب فجأة وهو يصرخ بغضب مجنون:

ــ ماذا؟ تقول لي أنا، لا تثرثر؟ هل كنت في مستشفى؟ أنا كنت! بقيت فيها سبعة يوم، ــ فهل أعطاني دوختورك الكثير من الخبز الإفرنجي؟ الكثير؟

ــ أنت أحمق، ــ قال ميتروفان مقاطعاً، ــ لا يعطى الخبز الإفرنجي للجميع: إنه يعطى بحسب المرض.

ــ ها! بحسب المرض! إذن فليختنق به، ولتنفجر بطنه! ــ صاح أكيم وهو يتلفت مهتاجاً، ثم رمى الملعقة الطويلة في "القمحية المريقة" ودخل إلى العرزال.

هناك، أضاء، وهو يتنفس مرسلاً الصفير من صدره، مصباحاً، فصار الجو في العرزال مريحاً. ثم أخرج من مكان ما تحت السقف ملاعق رماها على الطاولة وصاح: "هاتوا، إذن السليقة!" نهض الخباز ومشى نحو القدر. وحين مرّ بالقرب من

كوزما قال "تفضّلْ". غير أن كوزما لم يطلب سوى قطعة خبز، ملّحها، وقفل عائداً إلى المقعد وهو يلوكها متلذّذاً. أظلم الجو تماماً. وصار النور الأزرق الشاحب يضيء الأشجار الصاخبة على نحو أوسع وأسرع وأكثر سطوعاً، فبدا وكأنه منقاد لنفخ الريح، وكانت أوراق الشجر ذات اللون الأخضر خضرة الموت، تظهر للحظة وكأنها في وضح النهار عند كل لمعة برق، ثم، بعد ذلك، يغرق كل شيء في سواد كظلمة القبور. صمتت البلابل، ثمة واحد فقط ظل يزقزق ويغرد بانسجام وقوة فوق العرزال تماماً. وقال كوزما في سره: "لم يسألوني حتى من أنا؟ ومن أين؟ يا لهذا الشعب! ليمحقه الربّ محقاً!" ثم صاح لمن في العرزال ممازحاً:

ـــ أكيم، أنت لم تسأل حتى من أنا؟ ومن أين؟ فأجابه أكيم:

ـــ وما حاجتي لك حتى أسأل؟

ـــ أنا أود أن أسأل عن شيء آخر، ـــ كان ذلك صوت الخباز، ـــ أنا أسأل كم من الأرض يتوقع أن تعطيه الدوما؟ كم يا أكيموشكا؟ ها؟ فقال أكيم: ـــ أنا لست متعلماً. أنت تعرف أكثر من خلال الروث.

ارتبك الخباز من جديد على ما يبدو، فخيّم الصمت برهة. ثم تكلم ميتروفان: ـــ إنه يقصد بكلامه أصحابنا. لقد حدثته مرة أن الشعب الفقير في روستوف، أي البروليتاريا، يحتمي في الشتاء بالروث... فهتف أكيم بابتهاج: ـــ يخرج من المدينة ويرمي نفسه في الروث! يغوص فيه كالخنازير، وتخفّ المصيبة.

ـ أحمق! ـ قاطعه ميتروفان. ـ ما هذا الهراء؟ حين يطبق عليك الفقر، ستطمر نفسك!

أنزل أكيم الملعقة، وألقى عليه نظرة ناعسة. ثم، مرّة أخرى، فتح عينيه الصقريتين الخاليتين من أي معنى بغضب شديد وصرخ مهتاجاً:

ـ ها ـ ها! الفقر! هل تريد عملاً مأجوراً بالساعات؟

ـ وكيف لا؟ صاح ميتروفان، نافخاً منخريه الواسعين، ومحدّقاً مباشرة في أكيم بعينين لامعتين. ـ عشرين ساعة مقابل عشرين كوبيكاً؟

ـ ها ـ ها! أتريد روبلاً مقابل كل ساعة؟ أنت طمّاع جداً، فزر الرب بطنك!

غير أن المعركة هدأت بسرعة، كما اشتعلت. وبعد دقيقة كان ميتروفان يتكلم بهدوء وقد أحرقت السليقة الساخنة فمه:

ـ أما هو فليس طمّاعاً! إنه شيطان أعمى، يشنق نفسه على المذبح مقابل كوبيك واحد. هل تصدق أنه باع زوجته بخمسين كوبيكاً! وحقّ الرب، أنا لا أمزح. هناك، عندنا في ليبيتسك عجوز يدعى بانكوف كان يعمل في الحدائق أيضاً، وهو الآن ميت. وقد كان يحبّ هذه الشغلة...

فسأل كوزما: هل أكيم من ليبيتسك أيضاً؟

ـ من قرية ستودينكي، ـ أجاب أكيم من دون مبالاة وكأنّ الحديث لا يدور حوله.

وقال ميتروفان مؤكداً كلامه: ــ كان يعيش مع أخيه، يملكان معاً أرضاً وداراً، ولكنه، مع ذلك، كان إلى حد ما، يبدو أحمق، هربت منه زوجته، هربت طبعاً، ولكن المهم لماذا هربت ــ بالضبط بسبب هذا، بسبب أنه عرض على بانكوف، النوم محلّه في الليل مقابل خمسين كوبيكاً، وقد فعل.

كان أكيم صامتاً ينقر على الطاولة بالملعقة وينظر إلى المصباح. لقد شبع، ومسح فمه ويديه، وهو الآن يفكر في أمر ما.

ــ الكذب، يا ولد، ليس فلاحة، ــ قال أخيراً. ــ ولنفترض أني سمحت له، هل كانت هي ستقبل؟

كان يصغي مبتسماً مكشّراً عن أسنانه، رافعاً حاجبيه، وقد اختلطت على وجهه السوزدالي[1] ملامح البهجة والحزن، وغطته تجاعيد كبيرة متخشبة:

ــ لو أُطلقت عليه رصاصة! ــ قال بصوت ساحج ولثغة واضحة ــ لرأيته يتدحرج دحرجة!

فسأله كوزما: ــ عمّن تتكلم؟

ــ عن هذا البلبل...

صرّ كوزما على أسنانه، ثم قال بعد تفكير:

ــ لئيم أنت أيها الفلاح، أنت وحش.

---

[1] - سوزدال مدينة روسية قديمة اشتهرت بكنائسها المبنية من الخشب.

ــ تعال وقبّل طيــ... الآن، ــ ردّ أكيم. وتجشّأ ثم نهض واقفاً:

ــ هيّا، ما الداعي لإشعال الناغ بلا مبغِّغ؟

شرع ميتروفان يلف سيجارة، والخباز يجمع الملاعق، أما هو فانسلّ من وراء الطاولة وأدار ظهره للمصباح ثم رسم بسرعة شارة الصليب ثلاث مرات، وانحنى انحناءة كبيرة نحو الزاوية المعتمة من العرزال، ثم نفض شعره السابل الخشن، وراح يتمتم بالدعاء رافعاً وجهه، وقد انعكس ظله على بعض الصناديق المضلّعة، متعرجاً وكبيراً. وعاد من جديد فرسم شارة الصليب على عجل، ومن جديد انحنى انحناءة كبيرة، ــ كان كوزما ينظر إليه نظرة كراهية في هذه الأثناء. ــ ها هو ذا أكيم يصلي ــ ولو حاولت أن تسأله هل يؤمن باللــه، لقفزت عيناه الصقريتان من محجريهما! أهو تتري حتى تسأله مثل هذا السؤال!

لقد بدا له أن عاماً انقضى مذ غادر المدينة، وأنه، الآن، لن يتمكن من العودة إليها أبداً. القبعة المبتلة تثقل رأسه، وساقاه الباردتان المضغوطتان في الجزمة القذرة تؤلمانه، ووجهه أصابه الجفاف والتهب في هذا اليوم. نهض كوزما من مقعده ومشى ملاقياً الريح نحو البوابة المؤدية إلى الحقل، إلى الأرض البور التي كانت مقبرة وهُجرت منذ زمن بعيد. كان ثمة ضوء ضعيف يسقط على الوحل آتياً من العرزال، ولكن أكيم أطفأ المصباح فور ذهاب كوزما، فاختفى الضوء في الحال وهجم الليل. والتمع شهاب مائل إلى الزرقة بجرأة أكبر وعلى غير توقع، فكشف

ضوؤه السماء كلها، وعمق الحديقة حتى أبعد شجرات السرو فيها، حيث كان الحمّام، وفجأة غرق كل شيء في سواد أشعره بالدوار. وتناهى إليه من جديد صوت منخفض لرعد بعيد. توقف وميّز ضوءاً خافتاً عند البوابة مكّنه من بلوغ طريق ممتدة بموازاة تل، بجانب أشجار الزيزفون والدلب العتيقة الصاخبة، حيث راح يتمشى جيئة وذهاباً. انهمر المطر على قبعته ويديه من جديد، ومن جديد انكشفت الظلمة الحالكة، فالتمعت حبات المطر فوق الأرض البور، وارتسمت في الضوء الأزرق البارد ملامح فرس مبللة، نحيلة العنق. ولاح وراء الأرض البور حقل حبوب ذو لون معدني أخضر شاحب، على خلفية غامقة كالحبر، ورفعت الفرس رأسها فشعر كوزما بالخوف، وارتدّ عائداً نحو البوابة، متلمّساً طريقه إلى الحمّام بين أشجار السرو، وحين بلغه، انهال المطر على الأرض بقوة بعثت لديه، كما في طفولته، أفكاراً مخيفة عن الطوفان. أشعل عود ثقاب، فرأى سريراً خشبياً عريضاً قرب النافذة. طوى معطفه وألقى به عليه في مكان الوسادة، ثم تسلقه في العتمة وتمدّد فوقه مرسلاً زفرة عميقة. تمدد على ظهره كعادة العجائز، وأغمض عينيه المتعبتين. يا إلهي، يا لها من سفرة غبية وصعبة! ما الذي أتى به، هو، إلى هذا المكان؟ الظلام يخيم الآن على بيت السيد أيضاً، والزيزان المضيئة تتطاير فتنعكس خيالاتها خلسة على المرايا... وفي العرزال، تحت المطر الغزير، ينام أكيم... وهنا، في هذا الحمام شياطين رآها كثيرون، طبعاً. ترى، هل يؤمن أكيم إيماناً صادقاً

ولو بالشيطان؟ لا. ولكنه، مع ذلك، يروي بثقة كيف أن جده المتوفى ـــ الجد حتماً، والمتوفى حتماً ـــ ذهب إلى البيدر لجلب القش، فرأى الشيطان جالساً على مقود العربة مشبكاً ساقيه، مهوّش الشعر كالكلب... ثنى كوزما إحدى ركبتيه وغطّى جبينه بإحدى ذراعيه وراح يتنهد ويتحسّر وهو يغرق في النوم...

قضى الصيف في انتظار فرصة عمل. وقد تبين له أن أحلامه بالحدائق غبية جداً. فبدأ، بعد عودته إلى المدينة ودراسة وضعه جيداً، يبحث عن مكان وكيل أو محاسب؛ ثم صار يقبل أي عمل شرط أن يؤمن له لقمة الخبز. غير أن بحثه ومساعيه ورجاءاته كلها ضاعت بلا جدوى. لقد كان مشهوراً في المدينة منذ زمن بعيد جداً، أنه مخبول كبير. فالسكر والتسكع بلا عمل حوّلاه إلى مسخرة. في البداية أدهشت حياته المدينة، ثم صارت مثيرةً للشكوك. وبالفعل: أين يمكن أن يوجد رجل مدني في مثل سنه يعيش في مداخل الحانات، عازباً وفقيراً مثل موسيقي متجول: كل متاعه صندوق ومظلة ثقيلة عتيقة! وهكذا صار كوزما ينظر إلى نفسه في المرآة: من، حقاً، هذا الإنسان الذي يقف أمامه؟ إنه ينام في "مهجع عمومي" بين الناس الغرباء القادمين والراحلين، يطوف صباحاً في الجو الحار في البازار على الحانات حيث يتلقط أخبار أماكن العمل، وينام بعد الظهر، ثم يجلس قرب النافذة ويقرأ، متأملاً الشارع الأبيض المغبّر والسماء الزرقاء الشاحبة بفعل الحر... من أجل من، ومن أجل أي شيء، يعيش في هذه الدنيا هذا الرجل النحيل الذي صار

أشيب من الجوع والأفكار الصارمة، وقد سمى نفسه فوضوياً وهو أعجز من أن يشرح معنى كلمة ــ فوضوي؟ إنه يجلس، يقرأ، يتنهد، يجول في الغرفة، يجلس القرفصاء، يفتح صندوقه، يرتب بعناية أكبر الكتيبات والمخطوطات المهترئة من كثرة الاستعمال، وقميصين أو ثلاثة من الكتان، ومعطفاً طويلاً قديماً وصدرية وشهادة ميلاد امّحى ما كتب فيها... وماذا يفعل بعد ذلك؟

امتد الصيف طويلاً بلا نهاية. وساد في المدينة جفاف جهنمي. البيت الذي في زاوية الخان كانت تشويه الشمس. تتصاعد بسبب الجو الخانق في الليل، نبضات الدم إلى رأس النائم، ويوقظه كل صوت خارج النوافذ المفتوحة. أما النوم على كومة القش فكان مستحيلاً بسبب البق وصياح الديكة ورائحة الفناء الممتلئ بالروث. طول الصيف لم تغب فكرة السفر إلى فورونيج عن بال كوزما. كان يتمنى لو يقضي الوقت ما بين وصول القطار إلى فورونيج ومغادرته لها، متجولاً في شوارع المدينة، متأملاً شجرات الحور التي يعرفها، وذلك البيت ذا اللون السماوي خارج المدينة... ولكن لماذا؟ لماذا يضيّع عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلاً ثم يحرم نفسه شراء شمعة أو رغيف خبز؟ زد على ذلك أنه من المخجل لعجوز مثله أن يستسلم للذكريات الغرامية. أما كلاشا، فهل هي مازالت ابنته؟ لقد رآها منذ نحو عامين: كانت تجلس قرب النافذة تنسج الدانتيل، وجهها لطيف ومتواضع ولكنها تشبه أمها فقط...

حين حلّ الخريف كان كوزما قد اقتنع بضرورة أن يرحل إلى الأماكن المقدسة فيدخل أحد الأديرة، أو ـ وليغفر اللـه ـ أن يحزّ حلقَه بشفرة حادة. حلّ الخريف. وفاحت رائحة التفاح والخوخ في البازار وجاء طلاب المدارس. صارت الشمس تغيب وراء ساحة شيبنايا: تخرج من البوابة مساء فتعشى عيناك وأنت تقطع المفارق الأربعة: الشارع الذي عن يسارك، الشارع المنتهي في الساحة البعيدة غارق في لمعان خافت كئيب. والحدائق التي خلف الأسوار مكسوّة بالغبار وبيوت العنكبوت. وفي الجهة المقابلة يمشي نحوك بولوزوف ـ الرجل يرتدي حرملة، ولكنه يضع بدل القبعة المصنوعة من الجوخ قبعة من الفراء تحمل شعاراً رسمياً. لا أحد في حديقة المدينة. منصّة الموسيقيين البيضاوية مغلقة تماماً، ومغلق أيضاً الكشك الذي كان يبيع اللبن والليمونادة في الصيف، والبوفيه المصنوع من الألواح الخشبية مغلق كذلك.

وذات يوم أحس كوزما حين كان جالساً قرب المنصة البيضاوية، باكتئاب شديد فراح يفكر بجد في الانتحار. كانت الشمس تغرب، فبدأ ضوؤها أحمر. وتطايرت أوراق الأشجار الوردية في الممر وهبّت ريح باردة. وفي الكاتدرائية دقت أجراس القداس الليلي، وعلى وقع رنينها الرتيب، الثخين، المحلي، السبتي، أحس في روحه بوجع لا يطاق. وفجأة، سمع تحت المنصة سعالاً وهمهمة... فخطر في باله "موتكا". وبالفعل، ظهر من تحت السلم موتيا ـ رأس الإوزة. كان ينتعل جزمة

عسكرية حمراء، ويرتدي سترة مدرسية رسمية طويلة جداً، ملطخة بالطحين، ـ يبدو أن أهل البازار داعبوه: ـ ويعتمر قبعة من القش، وقعت مرات عديدة تحت العجلات. مرّ موتيا من دون أن يفتح عينيه وهو يبصق ويتمايل من السكر، بالقرب من كوزما الذي ناداه وهو يحبس دموعه:

ـ موت! تعال نتحدث وندخن...

وعاد موتيا، جلس على المقعد وشرع، وهو يغالب النعاس ويحرك حاجبيه، يلفّ سيجارة، ولكنه، على ما يبدو، لم يكن يدرك جيداً من هذا الذي يجلس معه، ويشكو له مصيره...

وفي اليوم التالي حمل موتيا نفسه إلى كوزما رسالة تيخون.

وفي أواخر أيلول (سبتمبر) انتقل كوزما إلى دورنوفكا.

III

في ذلك الزمن البعيد، حين عاش إيليا ميرونوف قرابة عامين في دورنوفكا، كان كوزما طفلاً صغيراً، ولم يبق في ذاكرته من تلك الأيام سوى نباتات عباد الشمس الفواحة التي كانت دورنوفكا تغرق فيها، وليلة صيفية شديدة العتمة: أضواء القرية كلها مطفأة، والناس يمرّون بالقرب من كوخ إيليا فتتلامح في الظلمة قمصانهم البيضاء، "تسع صبايا، تسع نساء، والعاشرة أرملة"، جميعهم حفاة، شعورهم غير مسرّحة، يحملون المقشّات والهراوات والمذاري، وثمة رنين وطرق على القدور والمقالي

يطغى عليه صوت أغنية جماعية متوحشة: أرملة تحمل مجرفة، تسير إلى جانبها صبية تحمل أيقونة، والآخرون يقرعون الأواني ويدقّون... وحين أنشدت الأرملة بصوت غليظ:

أنت، أيتها الميتة البقرية
لا تمرّي بقريتنا

ردّدت المجموعة بصوت جنائزي ممطوط:

نحن نلوّح –

وتابعت بأصوات حادة حزينة صادرة من الحناجر:

بالبخور، بالصليب...

منظر حقول دورنوفكا عاديٌّ الآن. غادر كوزما فورغول مرحاً، ثملاً بعض الشيء، ــ فقد قدّم له تيخون إيليتش عنبرية على الغداء وكان اليوم طيّباً جداً، ــ وراح يتأمل، مستمتعاً، خطوط الفلاحة الرمادية الجافة في السهل المحيط به. الشمس صيفية تقريباً، الهواء شفاف، والسماء صافية، زرقاء ــ شاحبة، ــ كل شيء كان بهيجاً ويَعِد بهدوء مديد. شجيرات الدفلى الشيباء الكثيرة الاعوجاج، المقتلعة من جذورها بالمجارف، كانت

كثيرة جداً، حتى إنهم كانوا ينقلونها أحمالاً. وعند العزبة تماماً وقفت في الأرض المفلوحة فرس صغيرة الحجم مزيّنة العنق، شُدّت إليها عربة عليها حمل مرتفع من نباتات الدفلى، يتمدد بالقرب منه ياكوف حافياً، مرتدياً سروالاً قصيراً يكسوه الغبار وقميصاً طويلاً من الكتان، يضغط بخاصرته كلباً أشيب ضخماً ممسكاً بأذنيه. كان الكلب يهرُّ مرسلاً نظرات غاضبة.

ــ هل يعضّ؟ ــ سأل كوزما بصوت عال.

ــ فظيع ــ أهلكني! ــ أجاب ياكوف بلهجة سريعة وهو يرفع لحيته المعوجّة. ــ يريد مهاجمة سحنات الخيل...

فضحك كوزما من فرط المتعة. حقاً، إن الفلاح هو الفلاح، والسهب هو السهب.

امتدت الطريق متلويّة وضاق خط الأفق. وبدا أمامه السقف الحديدي الأخضر الجديد لكوخ تجفيف السنابل، غارقاً في حديقة واطئة مهجورة. ووراء الحديقة، على المنحدر المقابل امتد صف طويل من الأكواخ المبنية بالقرميد الطيني المجفف والمسقوفة بالقش. وإلى اليمين وراء الحقول المفلوحة امتد جرف طويل متداخل مع آخر يفصل العزبة عن القرية. وهناك عند التقاء الجرفين امتد لسان من الأرض كالرأس البحري انتصبت فوقه أجنحة مشرّعة لطاحونتي هواء يحيط بهما عدد من الأكواخ لمجموعة من الفلاحين الغرباء ــ أكواخ الرأس، كما يسميها أوسكا، ــ وفي المرعى لاح بياض المدرسة المطروشة بالحوّار.

سأل كوزما: ــ عالْ، وهل يتعلم الأولاد؟

ــ حتماً، قال أوسكا. ــ التلميذ عندهم نشيط!

ــ أي تلميذ؟ هل تقصد المعلم؟

ــ طيب، المعلم، الحال واحد. تلْمذَهُم، أقول، الواحد منهم صار يصلح جندياً. يضربهم ضرباً أشد من عذاب القيامة، ولكن كل شيء عنده صار على التمام! ذات يوم مررت مع تيخون إيليتش ــ قفزوا جميعاً، دفعة واحدة، وصاحوا: "نتمنى لكم الصحة!" ــ بصوت لا يستطيعه حتى الجنود!

وضحك كوزما مرّة ثانية.

اجتازا البيدر وتابعا السير في طريق معبّدة بالقرب من حديقة صغيرة ثم انعطفا يساراً فدخلا فناء مستطيلاً جافاً بدا بلون الذهب تحت أشعة الشمس؛ فخفق قلب كوزما: ها هو ذا أخيراً في بيته. صعد إلى المدخل، واجتاز العتبة، ثم انحنى انحناءة كبيرة أمام الأيقونة في زاوية الممر المعتمة...

في الجهة المقابلة للمنزل، انتصبت العنابر، جدرانها الخلفية في مواجهة دورنوفكا، وواجهاتها الأمامية تطل على الجرف الواسع. ومن مدخل المنزل تُرى دورنوفكا منحرفة قليلاً إلى اليسار، وإلى اليمين يظهر جزء من الأرض التي كالرأس البحري: طاحونة الهواء والمدرسة. غرف المنزل صغيرة وخالية. على أرض المكتب كومة من القمح، وفي الصالون وغرفة الضيوف كراسٍ قليلة العدد مقاعدها ممزقة. نوافذ غرفة الضيوف تطلّ على الحديقة، وقد ظلّ كوزما الخريف كله يبيت في تلك الغرفة على ديوانٍ تقعّر من كثرة الاستعمال، تاركاً

نوافذها مفتوحة. أرضيتها لم تكنس أبداً: في البداية شغلت الأرملة أدنودفوركا، التي كانت عشيقة الإقطاعي الشاب دورنوفو مكان الطباخة. وكان عليها أن ترعى أولادها، وأن تقوم ببعض الأعمال الخاصة بها، وتعتني بكوزما وعامل المزرعة في الوقت نفسه.

كان كوزما يحضّر السماور بنفسه في الصباحات، ثم يجلس قرب النافذة في الصالون يشرب الشاي بالتفاح: الدخان يتصاعد بكثافة في ضوء الصباح اللامع فوق أسطح بيوت القرية وراء الجرف، ورائحة النضارة تضوع في الحديقة. وحين تغمر الشمس القرية في الظهيرة يغدو الجو حارّاً في الفناء، وتتهدل أشجار الزيزفون والدلب فتتساقط أوراقها الملونة في هدوء. وتقف طيور الحمام، التي أدفأتها الشمس، نهارها كله نائمة على سطح المطبخ المنحدر الذي تلتمع صفرة قشه الجديد تحت قبة السماء الزرقاء الصافية، ويذهب العامل ليرتاح بعد الغداء، وتذهب أدنودفوركا إلى بيتها. أما كوزما، فيتجوّل، يذهب إلى البيدر، مبتهجاً لمنظر الشمس، والطريق الصلبة، والأعشاب البرية الجافة، وسيقان شتلات الشوندر البنية الداكنة، واللون الأزرق اللطيف لشجيرات الهال في أواخر موسمها، وزغب نباتات عصا الراعي المتطاير في الهواء بهدوء، وخطوط الفلاحة في الحقل، وقد التمعت فوقها في ضوء الشمس شبكات خيوط العنكبوت الحريرية الممتدة على مساحات لا يحدّها البصر.

كانت الحساسين الملونة تقف على أفرع النباتات الطفيلية الجافة في الحاكورة. والزيزان تئزّ بحماسة على البيدر الذي ساده الهدوء العميق في ذروة القيظ...

... تسلّق كوزما الجرف عائداً من البيدر إلى العزبة ماراً بالحديقة وأشجار السرو. في الحديقة، تبادل الحديث مع المزارعين المدنيين اللذين استأجراها، ومع مولودايا وكوزا، اللتين كانتا تجمعان الثمار الساقطة من الشجر، ثم دخل دغلاً من نبات القرّيص حيث سقطت أكثر الثمار نضجاً. وذات مرة تجوّل في القرية والمدرسة... كان الجندي ـــ المعلم غبياً بطبيعته، وفي الخدمة العسكرية أضاع عقله تماماً. إنه رجل ريفي عادي تماماً من حيث المظهر، ولكنه كان دائماً يتكلّم بكلام غير عادي، فيقول هراء. يقف المرء أمامه عاجزاً باسطاً يديه. كان دائماً يبتسم لشيء ما بدهاء عظيم، وينظر إلى محدّثه بتواضع متكلّف مغمضاً عينيه نصف إغماض، ولا يجيب أبداً عن الأسئلة إجابة مباشرة.

سأله كوزما في أول مرة زار فيها المدرسة:

ـــ ما اسمك؟

ضيّق الجندي عينيه مفكراً.

ـــ من دون الاسم لا فرق بين النعجة والكبش، ـــ قال أخيراً على مهل. ـــ ولكني أسألك أيضاً: أليس آدم اسماً؟

ـــ اسم.

ـــ طيّب. وكم، مثلاً، مات من البشر منذ ذلك الزمن؟

ــ لا أعرف، ــ قال كوزما. ــ ولكن لمَ أنت تسأل؟

ــ لأننا، بالضبط، لن نفهم ذلك أبداً! أنا، مثلاً، جندي وبيطري. ذهبت إلى السوق منذ فترة قريبة ــ وفجأة رأيت حصاناً مصاباً بمرض معدٍ. هرعت في الحال إلى الرئيس: الأمر كذا وكذا يا صاحب السموِ. "وهل تستطيع ذبح هذا الحصان بالريشة؟" ــ "بكل سرور!"

ــ بأية ريشة؟ ــ سأل كوزما.

ــ بريشة إوزة. أخذت واحدة، بريْتُها، غرستها في وريد الحصان، نفخت فيها قليلاً، في الريشة طبعاً، ــ وقضي الأمر. المسألة تبدو بسيطة، ولكن، جِدْ لي من يملك هذه المهارة!

وغمز الجندي بعينه غمزة ماكرة وهو ينقر على جبينه بإصبعه:

ــ ما زال هذا يحتفظ بخبرة ما!

هزّ كوزما كتفيه ولزم الصمت. وحين مرّ بالقرب من كوخ أدنودفوركا، عرف من ابنها سينكا، اسم الجندي، وهو بارمين.

ــ ما الوظيفة التي أعطوكم ليوم غد؟ ــ سأل كوزما وهو ينظر بفضول إلى شعر سينيشكا الأشقر كاللهب، وإلى عينيه الخضراوين الممتلئتين بالحيوية، ووجهه المتطاول كوجه الحصان، وجسده الناحل، ويديه وساقيه المتشققة بسبب الوسخ والخدوش.

ــ مسائل، وأشعار، ــ قال سينكا وهو يمسك بيده اليمنى رجله المثنية إلى الخلف ويقفز في مكانه.

ـــ أية مسائل؟

ـــ أن نحسب عدد الإوزات. طار سرب من الإوز...

ـــ أها، أعرفها، ـــ قال كوزما. ـــ وماذا أيضاً؟

ـــ والفئران...

ـــ أن تعدّوا الفئران أيضاً؟

ـــ صحّ. سارت ست فأرات تحمل كل منها ست قطع نقدية، ـــ برطم سينكا بسرعة وهو ينظر بطرف عينه إلى السلسال الفضي لساعة كوزما. ـــ واحدة كانت ضعيفة فحملت قطعتين... كم مجموع القطع...

ـــ رائع. وما هي الأشعار؟

أرخى سينكا ساقه المثنية.

ـــ الأشعار ـــ "من هو؟"

ـــ هل حفظتها؟

ـــ حفظتها...

ـــ هاتِ أسمعني!

زاد سينكا من سرعة برطمته متحدثاً عن فارس سار بحصانه فوق نهر نيفا، في الغابات حيث لم يكن سوى...

أشجار الأرز والسرو والطحلب الأشوب...

ـــ الأشيب، ـــ قال كوزما، ـــ وليس الأشوب.

ـــ طيّب، الأشياب، ـــ قال سينكا موافقاً.

ـــ والفارس، من هو؟

فكّر سينكا برهة ثم قال:

ــ إنه ساحر.

ــ طيّب. قل لأمك أن تقصّ شعر سالفيك. هذا أفضل لك حين يعاقبك المعلم.

ــ لكنه، سيجد الأذنين، ــ قال سينكا دون مبالاة، وعاد فأمسك بساقه المثنية إلى الخلف وراح يقفز في الساحة.

الرأس ودورنوفكا قريتان متلاصقتان. وكما يحدث دائماً بين القرى المتلاصقة، عاشتا في عداء دائم واحتقار متبادل. فالرأسيون كانوا يعدّون الدورنوفيين قطاع طرق ولصوصاً، والعكس بالعكس. دورنوفكا قرية "إقطاعية أصيلة" أما قرية الرأس فتعيش فيها "حثالة" ممن لا أصل لهم. ولم يكن بلا عداوات ولا نزاعات سوى أدنودفوركا. كانت أدنودفوركا امرأة صغيرة الحجم، نحيلة، مرتّبة، حيوية، متوازنة وهنيّة في تعاملها، وشديدة الملاحظة، تعرف كل أسرة، سواء في الرأس أو دورنوفكا، كما تعرف نفسها، وهي أول من يخبر العزبة بكل حدث قروي مهما صغر شأنه. كذلك كان الجميع يعرفون حياتها معرفة ممتازة، فهي لم تخفِ عن أحد شيئاً في يوم من الأيام، بل تتحدث ببساطة عن زوجها وعن دورنوفو، فتقول، وهي تطلق زفرة خفيفة: ــ وما العمل؟ كان الفقر رهيباً، وموسم القمح كان شحيحاً في السهب. رجلي، والحق يقال، كان يحبني، غير أن الرجال تستسلم. السيد أعطى ثمناً لي ثلاثة أحمال كاملة من القمح. سألت رجلي "ما العمل؟". فأجاب: "الأمر واضح، اذهبي"،

ومضى لإحضار القمح. راح ينقل القمح مُدّاً بعد مدٍّ، ودموعه تتساقط دمعة بعد دمعة، دمعة بعد دمعة...

كانت تعمل في النهار دون كلل، وفي الليل ترقّع أو تخيط الثياب، وتسرق الحطب من فوق الموقد. فذات مرة، كان كوزما عائداً من عند تيخون إيليتش مساء، في وقت متأخر، صعد إحدى التلال وكاد يموت من الخوف: فوق الحقول المفلوحة الغارقة في الظلام، وفي حزام من ضوء المغيب المتخامد، نبق واندفع منساباً نحوه شيء ما عظيم الحجم...

ـ من هذا؟ صرخ بصوت ضعيف وهو يشد مقود الفرس.

ـ أويْ! صاح بصوت ضعيف مرعوب، ذلك الشيء الذي اندفع نحوه منساباً بسرعة في الفضاء، ثم تداعى مقرقعاً.

استرد كوزما وعيه وعرف أدنودفوركا فوراً على الرغم من العتمة. لقد كانت هي التي تركض نحوه بقدميها الخفيفتين الحافيتين، وقد انحنت تحت وطأة قطعتين كبيرتين من الحطب يغطيهما الهباب، من تلك القطع التي يضعونها بمحاذاة القدر كحماية له من هبات الهواء. وحين تمالكت نفسها همست ضاحكة بصوت منخفض:

ـ أخفتني حتى الموت. تركض الواحدة منا في الليل وهي ترتعد كلها، ولكن ما العمل؟ القرية كلها تحصل على الوقود بهذه الطريقة، فلا شيء سواها ينقذنا...

أما عامل المزرعة كوشيل فكان رجلاً لا يثير الاهتمام أبداً. ليس ثمة مادة للحديث معه، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يحب

الإكثار في الكلام. وهو، كمعظم الدورنوفيين، يكتفي في كلامه بتكرار أقوال قديمة وغير ذكية، مؤكداً المؤكد منذ زمن بعيد جداً. يتردى الطقس، ــ فينظر إلى السماء ويقول:

ــ الطقس يسوء. المطر الآن أهم شيء للزرع.

ويعلّق على فلاحة الأرض فلاحةً ثانية قائلاً:

ــ لا تبالغ في الفلاحة فتبقى من دون قمح. هكذا يقول الأسلاف. خدم كوشيل في الجيش، وكان آنذاك في القفقاس. غير أن الخدمة العسكرية لم تترك فيه أي أثر. فهو لم يكن يستطيع أن يقول عن القفقاس سوى أنه جبال تعلوها جبال، وأن مياهاً عجيبة فظيعة الحرارة تنبع من الأرض: "تضع فيها لحم الغنم ــ فينطبخ في دقيقة، وإذا لم تخرجه من الماء في الوقت المناسب ــ يعود نيئاً من جديد..." وهو لم يكن يفاخر أبداً بكثرة تجواله في البلاد؛ بل إنه كان ينظر بازدراء إلى من طافوا في البلدان، فالناس، في رأيه، "يجولون" إما على الرغم منهم وإما بسبب الفقر. ولم يكن يصدق أية شائعة ــ "ذلك كله هذيان!" ولكنه كان يؤمن، ويقسم الأيمان مؤكداً أن غولة على شكل عجلة طنبر كانت تتدحرج مساء في أطراف قرية باسوفو، رآها قرويّ فهيم، أمسك بها، وغرس في وسطها لجاماً وشدّ وثاقها.

ــ وماذا بعد ذلك؟ ــ سأل كوزما.

ــ ماذا تظن؟ ــ أجاب كوشيل. ــ أفاقت هذه الغولة باكراً، فرأت أحد طرفي اللجام يتدلى من فمها والآخر يتدلى من مؤخرتها، ويلتف على بطنها...

ــ ولماذا لم تفكّ هذا الوثاق؟

ــ يبدو أن العقدة كانت على شكل صليب.

ــ ألا تخجل من إيمانك بهذه السخافات؟

ــ وما الذي يجب أن يخجلني؟ الناس تكذب، وأنا أيضاً. لكن كوزما كان يحب أن يصغي إلى دندناته. تجلس في العتمة قرب النافذة المفتوحة، ليس ثمة بصيص ضوء في المكان كله؛ القرية خيال أسود يكاد لا يُرى وراء البساتين، والهدوء طاغٍ، حتى إنك تسمع صوت سقوط ثمار التفاح عن أغصان الشجر خلف البيت، وهو يتجول بخطا بطيئة في الفناء قارعاً طبلته، منشداً بصوت شاكٍ، مسالم، مرتفع: "اصمتْ يا طير الكنار..." كان يحرس العزبة حتى الصباح، وينام في النهار، إذ لا عمل لديه تقريباً، ففي هذا العام عجّل تيخون إيليتش في إنهاء أعمال دورنوفكا، ولم يُبقِ من المواشي غير حصان وبقرة واحدة.

تتالت الأيام صاحية، باردة، زرقاء ــ رمادية، ساكنة... وصارت الحساسين وطيور السنونو تزقزق في الحديقة العارية، وطيور الدغناش وطيور أخرى صغيرة بطيئة الحركة تطير أسراباً متنقلة من مكان إلى آخر فوق البيدر الذي نبتت على حوافه أعشاب خضراء ساطعة؛ ويحطّ، من حين لآخر، طائر خفيف صامت، وحيداً فوق تبة من التراب في الحقل... كانوا يقتلعون آخر حبات البطاطا في الحقول خلف دورنوفكا؛ وقد صار الظلام يحلّ مبكراً، فيقولون في العزبة: "القطار يمرّ متأخراً جداً في هذه الأيام" ــ مع أن مواعيد القطار لم تتزحزح

قيد أنملة... كان كوزما يقضي النهار كله جالساً عند النافذة يقرأ الصحف ويدوّن أحداث رحلته الربيعية إلى كازاكوفا وأحاديثه مع أكيم، ويسجل ملاحظاته في دفتر يوميات قديم، حول ما رآه وسمعه في القرية... وكان سيري يشغل تفكيره أكثر من الجميع.

وسيري هو أكثر رجال القرية فقراً وعطالة، يؤجّر أرضه ولا يستقر في مكان، يعاني في بيته من الجوع والبرد، ولا يفكر في النار إلاّ لكي يشعل سيجارته. ولكنه كان يحضر التجمعات كلها، فلا يفوّت عرساً أو قدّاس عماد، أو جنازة. ولم تكن الحفلات تمرُّ من دونه أبداً، فهو لم يكن يكتفي بحضور تجمعات المناسبات العامة، بل يحضر في كل المناسبات ــ بعد البيع، أو الشراء، أو التبادل. كان مظهر سيري يسوّغ اللقب الذي لُقّب به، فهو رمادي، نحيل، مربوع القامة، متهدّل الكتفين، معطفه ممزق وملطخ بالأوساخ، حذاؤه المصنوع من اللباد مهترئ ومربّط بحبال غليظة، أما طاقيته، فحدّث ولا حرج. حين يجلس في كوخه لا يخلع هذه الطاقية، ولا يفارق الغليون فمه، فيبدو دائماً وكأنه ينتظر شيئاً ما، ولكنه، بحسب زعمه، سيئ الحظ جداً، لم يصادف عملاً حقيقياً، وهذا كل ما في الأمر! إنه لا يحب لعبة البيريولكا[1] التي لا معنى لها، ولكن كل من هبّ ودبّ يمنح نفسه الحق، طبعاً، في تأنيبه...

---

[1] ـ لعبة شعبية تشبه "الضاما".

ويعلّق سيري على ذلك قائلاً: اللسان طليق لا عظام فيه. أعطني، أولاً، عملاً، ثم ثرثر بعد ذلك!

إنه يملك أرضاً لا بأس بها ــ ثلاثة دونمات. ولكن الضرائب فاقت ما يجبى عن عشرة. تخاذلت يداه عن العمل في الأرض: "أنت مرغم على تأجيرها، الأرض: هي الأم، يجب أن تعامل بنظام، ويا لهذا النظام الذي عندنا!" لم يكن، هو نفسه، يزرع أكثر من نصف أرضه، ولكنه كان يبيع الموسم سلفاً قبل حصاده، ــ "أنت تبادل الغالي بالرخيص" يقول له ياكوف، فيردّ بلهجة مقنعة: انتظرْها حتى تعطيك، جرّبْ إن كنت تستطيع! ــ "الجميع، على سبيل المثال، الانتظار أفضل..." ــ يبرطم ياكوف مشيحاً ببصره، مرسلاً ضحكة قصيرة غاضبة. ولكن سيري يضحك ضحكة قصيرة أيضاً ــ إنما حزينة وتنم على احتقار.

ــ أفضل! ــ يقول ساخراً. ــ الكلام سهل عليك: تخلّصتَ من البنت، وزوّجتَ الولد. أما أنا فعندي ــ انظر، كومة من الأطفال. هؤلاء ليسوا غرباء. لقد اقتنيت، من أجلهم، عنزة، وأسمّن خنّوصاً... وهما، على ما أظن، يطلبان طعاماً وشراباً أيضاً.

ــ طيّب، العنزة، على سبيل المثال، لا علاقة لها بهذه المسألة، ــ يعترض ياكوف بلهجة متوترة. ــ السبب هو أننا، على سبيل المثال، لا نفكّر إلا بالفودكا والغليون... بالغليون والفودكا...

قال ذلك وابتعد مسرعاً عن سيري كي لا يتخاصم مع جاره عبثاً. ولكن سيري لاحقه قائلاً بلهجة هادئة وجادة:

ـ السكران، يا صاحبي، ينسى فينام، أما الأحمق فلا ينسى أبداً.

تنقّل سيري كثيراً بعد أن انفصل عن أخيه، وعمل في المدينة وفي المزارع. واشترك حتى في قَطع البرسيم. وهنا، في حصاد البرسيم، حالفه الحظ ذات مرة، فقد استؤجرت جماعة انضم إليها سيري، لحصاد كمية كبيرة منه لقاء ثمانية غريفينات للبود. ولكن البرسيم أعطى ما يفوق البودين بدلاً من البود الواحد. حصدوه، ـ وكان سيري يعمل في فصل الحَبّ عن القشور بالمخباط. ملأ الأكياس حبوباً واشتراها، فأثرى جراء ذلك. وفي خريف ذلك العام بنى بيتاً من الآجر. غير أنه أخطأ في الحساب: البيت يحتاج إلى تدفئة، فمن أين يأتي بالوقود، وهو لا يملك ثمن الطعام؟ وهكذا اضطر إلى استعمال سقف البيت وقوداً، وظل البيت سنة كاملة من دون سقف، وقد غطاه الهباب الأسود.

أما عمود البيت فاحتفظ به سيري محوراً لعربته. صحيح أنه لا يملك حصاناً، ولكن لا بدّ له من أن يبدأ في تكوين ثروة ما... غير أن الملل سرعان ما أصابه، فقرر بيع البيت، وبناء، أو شراء، بيت طيني أرخص ثمناً. وقد ناقش الأمر على النحو التالي: في البيت عشرة آلاف قرميدة، على أقل تقدير، وثمن الألف منها خمسة، وربما ستة روبلات؛ وهكذا يكون ثمن القرميد أكثر من خمسمئة روبل... ولكن تبين فيما بعد أن عدد

قطع القرميد في البيت ثلاثة آلاف وخمسمئة قرميدة فقط، لم يبعها بخمسة روبلات لكل ألف، بل اضطر لبيع كلّ ألف بروبلين ونصف... انهمك بعد ذلك في البحث عن بيت جديد، فظلّ عاماً كاملاً لا يساوم لشراء بيت إلاّ من تلك البيوت التي لا تكفي نقوده لشراء أيّ منها، ولم يقنع بالبيت الذي يسكنه الآن إلا وفي نفسه أمل راسخ بمنزل مستقبلي ــ متين وواسع ودافئ.

ــ بصراحة، هذا البيت لا يليق بي! قال ذات يوم بلهجة حادة. نظر إليه ياكوف باهتمام، وقال وهو ينفض قبعته:

ــ هكذا إذن، تنتظر أن تبحر إليك السفن؟

ــ وستبحر، ــ أجاب سيري بلهجة غامضة.

ــ آه، دعك من هذا الحمق، ــ قال ياكوف، ــ اعمل أجيراً حيث يتيسّر لك ذلك، وبأسنانك، على سبيل المثال، عضّ على مكان عملك...

لكن الحلم بالبيت الجيد، والحياة المرتّبة، والعمل الحقيقي المرضي، كان يسمّم حياة سيري كلها، فيحسّ بالضجر في كل مكان يعمل فيه.

ــ واضح أن العمل ليس عسلاً. يقول له الجيران.

ــ أظنه يكون عسلاً، لو كان صاحبه رشيداً!

وفجأة، يتحمس سيري فينزع الغليون البارد من بين شفتيه، ويشرع يقصّ روايته المفضلة: كيف اشتغَل، حين كان عازباً، فقضى عامين كاملين يعمل بنبل وشرف عند قسيس في ضواحي يلتس.

ـ... لو ذهبت الآن إلى هناك لتخاطفتني الأيدي! ـ صاح سيري. يكفي أن أقول: جئت يا أبتي لأعمل عندكم.

ـ طيب، على سبيل المثال، اذهب إلى هناك...

ـ أذهب إلى هناك! وعندي هذه الكومة من الأولاد تملأ البيت! صدق من قال: مصيبة غيرك، هيّنة عليك، حتى لو هلك فيها الإنسان عبثاً...

وأهلك سيري تلك السنة عبثاً. قضى الشتاء كله متظاهراً بالانشغال، قابعاً في البيت بلا تدفئة، يعاني البرد والجوع. وفي الصوم الكبير وجد، بشكل ما، عملاً عند آل روسانوف في ضواحي تولا، فالجيران في القرية ما عادوا يستأجرونه. ولكنه ما كاد يقضي شهراً في عمله حتى بات يشعر أن العمل في مزرعة آل روسانوف أشد مرارة من العلقم.

ـ هيي، يا ولد! ـ صاح رئيس العمال. ـ أنا أراك حتى الأعماق: تدعي أنك تصلح الزلاجات. تأخذون النقود مقدّماً يا أولاد الكلب، ثم تختبئون في الأدغال.

فقاطعه سيري قائلاً: قد يفعل ذلك متشرّد، أما نحن فلا.

غير أن رئيس العمال لم يفهم ما قاله سيري، الأمر الذي أرغم الأخير على العمل بمزيد من الحزم.

وذات مرة، أجبروا سيري على نقل العلف إلى الماشية في المساء. فذهب إلى البيدر وراح يعدّ حملاً من القش. فاقترب منه رئيس العمال وسأله: ألم أطلب منك باللغة الروسية أن تحضر علفاً؟

فأجاب سيري بحزم: هذا ليس وقت تقديم العلف.

ـ ولماذا؟

ـ الملاّك الخبراء يقدمون العلف في الظهيرة، لا في الليل.

ـ ومن أنت، حتى تتصبّب نفسك معلّماً؟

ـ أنا لا أحب قتل المواشي. ذلك كلّ ما أعلّمه.

ـ وتنقل القش؟

ـ يجب أن تعرف أنّ لكلّ شيء أوانه.

ـ توقّف عن تحميل القش في الحال!

شحب وجه سيري.

ـ لا، لن أترك عملي. لا يجوز لي أن أترك العمل.

ـ هات المذراة يا كلب، وابعدْ عن الشر.

ـ أنا لست كلباً، بل مسيحي عمّدتني الكنيسة. سأنقل هذا الحمل، وأبتعد، بل أذهب من دون رجعة.

ـ ما أظنك تفعل ذلك يا أخ! ستذهب، ولكنك ستعود سريعاً، إلى هذا المكان متوسلاً.

قفز سيري من فوق الحمل، وألقى بالمذراة في القش.

ـ أنا أعود متوسّلاً؟

ـ نعم، أنت!

ـ آه، يا حبيبي! إياك، أنت، أن تتوسل! أظنّنا نعرف عنك بعض الأشياء. والمالك لن يمدحك يا أخ...

اصطبغ خدّا رئيس العمال السمينان بلون الدم القاني وجحظت عيناه:

ــ آ ــ ها! هكذا إذن! لن يمدحني؟ قل لي فوراً متى ولماذا؟

ــ ليس عندي ما أقوله، ــ برطم سيري وقد شعر بثقل في قدميه بسبب الخوف.

ــ لا يا أخ، لا تتهرب، ــ ستقول ما عندك!

ــ أين اختفى الطحين؟ ــ صاح سيري على غير توقع.

ــ الطحين؟ ما هذا الطحين؟ أي طحين؟

ــ المسروق، من المطحنة...

أمسك رئيس العمال بياقة قميص سيري ضاغطاً عنقه بعنف، سأخنقك ــ وجمد الرجلان برهة.

ــ ما هذا الذي تفعله ــ لماذا تمسك بعنقي؟ ــ سأل سيري بهدوء. ــ أتريد خنقي حقا؟

وفجأة صاح بصوت مسعور:

ــ هِهْ، اضرب، اضرب ما دام قلبك يغلي.

ثم وثب فتخلص من قبضته وأمسك بالمذراة.

ــ يا شباب! ــ صاح رئيس العمال، مع أن المكان كان خالياً.

ــ نادوا المختار! اسمعوا: إنه يريد طعني، ابن الكلب!

ــ لا تقترب، وإلا جدعت أنفك، ــ قال سيري ممسكا بالمذارة في وضع الهجوم. ــ أظنك تدرك أن هذا الزمن غير ذاك!

هنا لوّح رئيس العمال بيديه، فطار سيري إلى القش محاولاً الغوص فيه وقد طامن رأسه...

قضى سيري الصيف كله قاعداً في البيت، منتظراً الرحمة من مجلس الدوما. ثم تسكع طول الخريف من حوش إلى حوش آملاً

أن ينضم إلى جماعة ما ذاهبة لحصاد البرسيم... وذات يوم، اشتعلت النار في تلة من القش الجديد عند أطراف القرية فكان سيري أول من ظهر في مكان النار وقد بُحّ صوته من شدة الصراخ واحترقت رموش عينيه، وابتلت ثيابه تماماً وهو يوجّه ناقلي الماء وأولئك الذين اندفعوا بمذاريهم في قلب اللهيب الوردي ــ الذهبي الضخم وهم يلوّحون في كل الاتجاهات بقبعاتهم المشتعلة، والرجال الهائمين دون هدف وسط الحر وطقطقة القش المشتعل، والماء المنسكب، والصخب، وما تكوم قرب الأكواخ من الأيقونات والبراميل الخشبية والمغازل اليدوية، وأسرجة الخيل، والنساء المجهشات بالبكاء والأوراق المسودّة المتساقطة من الشجيرات المحترقة...

وفي يوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر)، بعد مطر غزير وعاصفة شديدة البرودة، تجمّد الماء في بركة تتجمع فيها مياه المطر، فانزلق خنزير الجيران المسمَّن من فوق تبة متجمدة وسقط على سطح البركة فكسر جليده وراح يغرق. هرع سيري إليه قبل الجميع، فألقى بنفسه في الماء محاولاً إنقاذه... غرق الخنزير على كل حال، ولكن ذلك أعطاه الحق في الهرولة من البركة إلى غرفة الخدم مطالباً بالفودكا والتبغ وبعض الطعام. في البداية كان لونه أزرق داكناً، وكان يرتعد فلا يقع له سنّ على سنّ، ويكاد يعجز عن تحريك شفتيه المبيضّتين الشاحبتين، وقد تدثّر بكل ما وقعت عليه يده من ملابس الآخرين دون تمييز. لكنه انتعش فيما بعد، وثمل، وراح مرة أخرى يتحدث متباهياً

عن عمله بنبل وشرف عند الخوري، وعن مهارته في تزويج ابنته في السنة الماضية. كان يجلس إلى المائدة، يلوك بنهم ثم يبتلع قطع لحم الخنزير المملح النيئ، ويتكلم بلهجة المعجب بنفسه:

ـ طيب. علقت البنت، أعني ماتروشكا، مع هذا، المدعو إيغوركا.. علقتْ، وعلقتْ. بلا طول سيرة، كنت جالساً ذات يوم، قرب النافذة، وإذا بإيغوركا يمرّ بجوار المنزل، مرّة... ثم أخرى... وتلك التي عندي تطل برأسها من نافذتها مرة بعد مرة... معنى ذلك أنهما ينويان القيام بعمل ما، هذا ما خمّنْته. قلت لامرأتي: قومي، أنت، بإطعام الماشية، فأنا ذاهب ـ هناك اجتماع. جلست في كومة القش خلف البيت، جلست، وانتظرت. بدأ الثلج يتساقط، ها هو ذا إيغوركا يتسلل من جديد من أسفل الطريق... ولكن أين هي؟ ها هي ذي! التفّ الاثنان حول القبو، ثم وثبا بسرعة إلى منزل جديد فارغ في الجوار. وبقيت أنتظر بعض الوقت...

ـ يا لها من قصة! ـ قال كوزما وهو يطلق ضحكة قصيرة مستهجنة.

غير أن سيري رأى في تلك الضحكة استحساناً وإعجاباً بذكائه ودهائه. فتابع كلامه رافعاً صوته تارة وخافضاً إياه بلؤم تارة أخرى:

ـ انتظر، اسمع ما الذي حدث بعد ذلك. قلت لك: انتظرت قليلاً ـ ثم لحقت بهما... قفزت من فوق العتبة ـ وأمسكت به

وهو فوقها تماماً! خاف الاثنان إلى حد الهلع. انزلق هو عنها كخيشة فارغة، أما هي فظلت هامدة، ممدة، كبطة... "طيب، اضربني الآن!" كان هو المتكلم، فقلت له: "لا حاجة لي بضربك..." أخذت معطفه وسترته القصيرة وتركته عارياً إلا من سراويله الداخلية ــ والصدق أني تركته كما ولدته أمه... وقلت له: "اذهب الآن إلى حيث تشاء..." ثم مشيت نحو البيت. نظرت، فإذا هو يمشي خلفي: الثلج أبيض، ــ وهو أبيض أيضاً، يتبعني، وينشق بأنفه... لا مكان يلجأ إليه، ــ إلى أين يمضي؟! أما حضرة البنت، ماتريونا ميكولافنا، فما إن خرجت من ذلك البيت حتى طارت إلى الحقل! واندفعت تركض ــ إلى أن أوقفتها بالقوة إحدى الجارات عند أطراف قرية باسوفو، أمسكت بكمّ ثوبها واقتادتها إليَّ. تركتها تلتقط أنفاسها، ثم قلت لها: "هل نحن فقراء أو لا؟" ظلت صامتة. "هل أملك امرأة درويشة أو ذكية؟" ظلّت صامتة أيضاً. "كيف ألحقت بنا العار؟ها؟ ويلك يا بنت الـــ... تريدين ملء البيت ببناديقك، ترمين بهم إليّ، وأنا أتطلع وعيني تطرف؟" هكذا، رحت أعنّفها، ــ وكان عندي سوط صغير من الجلد... الكلام غير الفعل! مزّقت خصرها تمزيقاً! أما هو فكان جالساً على المقعد يولول. التفتُّ إليه فيما بعد، إلى صاحبنا...

ــ وهل زوّجته؟ سأل كوزما.

ــ هو ذاك! ــ هتف سيري وقد شعر أنّ السكْر تملّكه، فراح يجمع قطع لحم الخنزير من الصحن ويدسّها في جيبه. ــ ويا للعرس الذي أقمناه! أنا، يا أخْ، لا أبخل في الإنفاق...

"يا لها من حكاية!" ــ ظل كوزما طويلاً يفكّر بعد ذلك المساء. ــ ساء الطقس، ولم يكن راغباً في الكتابة، وقد ازداد الجو كآبة. لم يكن ثمة ما يبهج، لا شيء سوى قدوم بعضهم يطلب شيئاً ما. زاره غولولوبي عدداً من المرات، ــ وهو رجل من قرية باسوفو، أصلع الشعر تماماً ويضع على رأسه طاقية ضخمة، ــ طالباً منه أن يكتب له شكوى على صهره الذي كسر له عظم ترقوته. وجاءت إليه الأرملة بوتيلوشكا من قرية الرأس، مبتلة كلها بماء المطر ومتجمدة من البرد، كي يكتب لها رسائل لابنها. تشرع بالإملاء، فتنهمر دموعها.

ــ مدينة سيربوخوف، حمّام النبلاء، منزل جيلتوخين...

وتبكي.

ــ وماذا بعد؟ سأل كوزما، وهو يقطّب حاجبيه بأسى، ناظراً إلى بوتيلوشكا من فوق إطار نظارته كالعجائز. طيّب، كتبت ذلك، وماذا بعد؟

ــ ماذا بعد؟ ــ تسأل بوتيلوشكا همساً، وتواصل كلامها وهي تحاول السيطرة على صوتها:

ــ بعد ذلك، اكتب يا بنيّ، بخط مرتّب... يُسلَّم، إذن، باليد لميخال نازاريتش خلوسوف...

وتتابع ــ تارة بكلام متقطع، وتارة بكلام متواصل دون توقف.

ــ رسالة إلى ابننا الحبيب الغالي ميشا، ما بالك نسيتنا يا ميشا، لا نسمع أي خبر عنكم... أنت نفسك تعرف، نحن في شقة، والآن يطردوننا منها طرداً، إلى أين سنلتجئ الآن... ابننا الغالي ميشا، نرجوكم، بحق السيد الرب، أن تعودوا إلى البيت بما ليس ممكناً من السرعة...

ثم تعود فتهمس من بين الدموع:

ــ نحن لو حفرنا معكم ملجأ في الأرض، لكنا سكنّا في بيتنا الخاص...

العواصف والأمطار الصقيعية الغزيرة، والنهارات الشبيهة بالأماسي، والوحل في الحاكورة، التي امتلأت بأوراق الأكاسيا الصغيرة الصفراء، والحقول المفلوحة والمزروعة بالمواسم الشتوية، الممتدة على مدّ البصر حول دورنوفكا، والسحب المتراكضة فوقها بلا نهاية، كل ذلك كان يضني القلب حقداً على هذه البلاد الملعونة، حيث تستمر العواصف الثلجية ثمانية أشهر في السنة وتهطل الأمطار في الأشهر الأربعة الباقية، ويضطر المرء بسبب الحاجة للذهاب إلى الحظيرة أو الحديقة. حين تردّى الطقس، اضطر كوزما إلى إغلاق غرفة الضيوف إغلاقاً محكماً والانتقال إلى الصالون ليظل الشتاء كله ينام فيه ويأكل ويدخن فيه أيضاً، ويقضي الأماسي الطويلة وهو يذرع المكان من زاوية إلى أخرى في ضوء فانوس المطبخ الشاحب، معتمراً قبعته

الفرائية ومرتدياً معطفه السميك، اللذين لا يكادان يحميانه من برد الريح المتسللة من شقوق الجدران. وكان يحدث أحياناً أن ينسوا التزود بالكيروسين، فيضطر كوزما إلى قضاء المساء من دون إضاءة، ثم يشعل، حين يعمّ الظلام، سراجاً صغيراً يتناول في ضوئه عشاءه، قصعة صغيرة من حساء البطاطا وصحناً دافئاً من الحبوب المطبوخة، كانت مولودايا تقدمه له بصمت ووجه صارم.

كان يتمنى أحياناً لو يجد أحداً يزوره، ولكن الجيران القريبين منه ثلاثة فقط: الأميرة العجوز شاخوفا التي لم تكن تستقبل حتى عميد النبلاء وتعتبره قليل تربية؛ والدركي المتقاعد زاكرجيفسكي وكان رجلاً شرساً يعاني من البواسير ولا يسمح لأحد حتى بالاقتراب من عتبة بيته؛ وأخيراً، النبيل باسوف وهو ملاّك صغير متزوج من امرأة فلاحة ويعيش في بيت متواضع ولا يتكلم إلا على العلف والماشية. أما الأب بيوتر من كولودينريا الذي كان أهل دورنوفكا من رعايا كنيسته، فقد زار كوزما ذات مرة، ولكن الزيارة لم تخلق لدى هذا أو ذاك رغبة في التعارف. لم يقدم كوزما لضيفه القسيس غير الشاي ـ "سماور؟ ممتاز! أنت، كما أرى، لست مسرفاً في الضيافة!" لم يكن ضحكه منسجماً مع مظهره أبداً، فبدا وكأن الذي يضحك رجل آخر، غير هذا الرجل الطويل، النحيل، العريض الكتفين، ذي الشعر الغليظ الأسود، والعينين الدائمتي الحركة.

ولم يكن كوزما يزور أخاه إلا نادراً. أما أخوه فلم يكن يأتي إليه إلا إذا كان معكَّر المزاج لسبب ما. هكذا عاش كوزما في عزلة يائسة، حتى إنه عدّ نفسه دريفوس في جزيرة الشياطين، وقارن نفسه بسيري. إنه، هو أيضاً، مثل سيري، فقير، ضعيف الإرادة، ظل طول حياته ينتظر أياماً سعيدة غير واضحة المعالم تمكنه من العمل!

في بداية موسم الثلج اختفى سيري نحو أسبوع، ثم ظهر في بيته عابس الوجه.

ـ هل ذهبت ثانية إلى آل روسانوف؟ ـ سأله الجيران.

ـ ذهبت، ـ أجاب سيري.

ـ لماذا؟

ـ حاولوا إقناعي بالعمل عندهم.

ـ وأنت، لم توافق؟

ـ لست أشد حمقاً منهم، ولن أقبل العمل عندهم ما حييت!

ومن جديد جلس سيري طويلاً على مقعده في البيت من دون أن يخلع طاقيته. كان منظر كوخه في الأماسي يبعث الكآبة في النفس. في الأماسي، تبدو دورنوفكا، وراء الوادي المغطى بالثلج، قاتمة وكئيبة بساحاتها وشجيراتها المزروعة في حواكير البيوت. ولكن، ما إن يحلّ الظلام، حتى تشع الأضواء فتبدو الحياة في البيوت هادئة ومريحة. ولا يبدو قاتماً ومنفّراً إلا كوخ سيري، الذي يوحي بالجمود والموت. كان كوزما يعرف سلفاً أنه حين يدخل الممر المعتم نصف المسقوف، سيشعر وكأنه على

عتبة وكر أحد الوحوش ــ رائحة الثلج تملأ الجو، وتطل السماء العابسة من ثقوب السقف، وتخشخش، حين تهب الريح، بقايا الروث، وأوراق الأشجار الذابلة والعيدان الملقاة كيفما اتفق حول أعمدة السقف، يكتشف كوزما الحائط المائل باللمس، ويفتح الباب، فيلاقيه البرد والظلام وتلتمع في العتمة نافذة صغيرة غطاها الجليد... أنت لا ترى أحداً، ولكنك تخمّن أن صاحب البيت على مقعده، ــ ها هو ذا! غليونه يشع كبصيص جمرة؛ أما صاحبة البيت، وهي امرأة هادئة، صموتة ضعيفة العقل، فتهز بهدوء سريراً يرسل صريراً، يترجح فيه طفل شاحب منتفخ البطن وقد أعياه الجوع. وثمة أطفال تكدسوا قرب الموقد الفاتر يتهامسون. وفوق القش المتعفن تحت مصطبة الموقد، يحرطق ويحوص خنّوص صغير وعنزة كصديقين حميمين. تتحني خشية أن يصطدم رأسك بالسقف. وتستدير في حذر: المسافة بين العتبة والحائط المقابل خمس خطوات.

ــ من هناك؟ ــ يسأل صوت غير مرتفع عبر الظلمة.

ــ أنا.

ــ أأنت كوزما إيليتش؟!

ــ أنا هو نفسه.

يتحرك سيري مفسحاً مكاناً على المقعد. فيجلس كوزما، ويشعل سيجارة. ويتنامى الحديث بينهما، فيعترف سيري البسيط، الحزين، الذي تضطهده الظلمة، بضعفه، ويرتجف صوته أحياناً...

حلّ الشتاء الطويل المثلج.

صارت الحقول ببياضها الشاحب أعرض وأوسع وأكثر وحشة تحت السماء الزرقاء الداكنة. وبرزت ملامح البيوت وحظائر التبن والشجيرات والبيادر بروزاً حادّاً بعد ثبات الغطاء الثلجي الأول. ثم هبت العواصف الثلجية فذرّت وقذفت من الثلج ما جعل القرية تكتسب منظراً شمالياً موحشاً، فلم يعد يظهر منها غير سواد الأبواب والنوافذ الصغيرة التي تكاد لا ترى تحت القباب البيضاء المهوّشة المكونة من الثلج المتراكم بكثافة. وهبّت بعد العواصف الثلجية رياح قاسية فوق الحقول التي تجمدت تربتها الرمادية، فاقتلعت آخر الأوراق الذابلة عن أغصان شجيرات الدلب في الوديان غير المحمية، ومضى القروي الغريب تاراس ميليايف المغرم بالصيد منذ القدم، يغوص في أكوام الثلج التي انحفرت فيها آثار أقدام الأرانب، وتحوّلت أحواض المياه إلى كتل من الجليد، ونبقت تبابٌ من الماء المتجمد الزلق حول الفتحات المحفورة فيه، وتكدست أكوام الثلج في الدروب، ــ لقد استقرّت أيام الشتاء. وشرعت أمواج من الأمراض تجتاح القرية: الحصبة، الحمى، الخناق... كانت النسوة يقفن حول الفتحات المحفورة في الجليد التي تشرب منها دورنوفكا كلها ماء عكراً ذا لون غامق ورائحة منفرة، أياماً بطولها محنيات الظهر بتنوراتهن المرفوعة إلى ما فوق ركبهن العارية المزرقة، وصنادلهن المبتلة، ورؤوسهن الكبيرة الملفوفة بالأغطية، يسحبن من براميل الغسيل الحديدية المغطاة بالهباب

الأسود، قمصانهن الرمادية المتسخة، والسراويل الرجالية ذات الحمّالات، وأقمطة الأطفال الملوّثة، فيقمن بفضّها في الماء ويضربنها بالمخابيط، ويتنادين، يخبر بعضهن بعضاً أن "أيديهن تجمدت" وأن امرأة تموت بالحمى في بيت آل ماتيوتين، وأن كنّة ياكوف مصابة بمرض في الحنجرة... كان المساء يحلّ في الثالثة، وتجلس الكلاب المشعثة الشعر على أسطح البيوت فتكاد تتساوى وأكوام الثلج. ولم يكن هناك مخلوق يعرف ماذا تأكل تلك الكلاب، ولكنها كانت حية وشرسة أيضاً.

استيقظ الناس في العزبة باكراً. في الفجر، في العتمة الضاربة إلى الزرقة، حين أُشعلت الأضواء الخافتة في البيوت، وأوقدت المواقد وتسلل الدخان الحليبي الكثيف ببطء عبر رفاريف الأسقف، وصار الجو في المبنى الملحق ذي النوافذ الرمادية التي غطاها الجليد، بارداً كما المدخل، أيقظ كوزما طرقٌ على الباب ترافق وخشخشة القش المتجمد الممتزج بالثلج الذي كان كوشيل ينقله من كومة في الخارج، وقد سُمع صوته الخافت الأبحّ ــ صوت رجل استيقظ باكراً، معدته خاوية، وجسده يرتعد من البرد. قرقعت مدخنة السماور وتبادلت مولودايا الحديث مع كوشيل في همس صارم. لم تكن تنام في غرفة الخدم حيث أدمت الصراصير يديها وساقيها، وإنما في الممر. كانت القرية كلها مقتنعة بأنها لم تغيّر مكان نومها عبثاً، فالقرية تعرف جيداً ما الذي كابدته مولودايا في الخريف. كانت مولودايا الصموت، أكثر صرامة وحزناً من راهبة زاهدة. ولكن ما أهمية ذلك؟ لقد عرف

كوزما من أدنودفوركا ما يقولونه في القرية. وكان، كلما استيقظ، يتذكر ذلك بخجل وقرف. طرق الجدار بيده، معلناً أنه ينتظر السماور، وأشعل سيجارة وهو يوخْوِخ: كان ذلك يبعث الهدوء في قلبه، ويريح صدره. تمدد تحت فروته غير راغب في التخلي عن الدفء، وراح يفكّر: "يا لوقاحة هؤلاء الناس! هم يعرفون أنها في عمر ابنتي..." وهي في النهار جدية، قليلة الكلام، وحين تنام توحي بشيء ما طفلي، وحزين ووحيد. ولكن هل بمقدور القرية أن تصدّق ذلك الحنان؟ لم يصدّقه حتى تيخون إيليتش، الذي كان يطلق من حين لآخر ضحكات قصيرة غريبة جداً. إنه عديم الثقة، شكاك دائماً، وفظّ في شكوكه، أما الآن فقد فَقَدَ عقله تماماً، ولم يعد لديه سوى جواب واحد على أي شيء تقوله له:

ــ أسمعت يا تيخون إيليتش؟ يقولون إن زاكرجيفسكي يموت نتيجة التهاب الأغشية، وقد نقلوه إلى أريول.

ــ هراء. نحن نعرف هذه الالتهابات!

ــ لقد أخبرني الطبيب بذلك.

ــ إذن، استمع إليه أكثر...

تقول له:

ــ أريد الاشتراك في جريدة. أعطني، من فضلك، عشرة روبلات سلفة على الراتب.

ــ همْ! لست راغباً في حشو دماغ أي إنسان بالهراء. أضف إلى ذلك أنني لا أملك من النقود سوى ورقة بخمسة روبلات، فما بالك بالعشرة...

وتدخل مولودايا مسبلة رموشها:

ــ الطحين، يا تيخون إيليتش، لم يبق عندنا سوى...

ــ كيف ذلك، كيف لم يبق سوى؟ آه، أنت تهذين يا امرأة!

ويقطب حاجبيه، وينقّل نظره بسرعة بين كوزما ومولودايا، وهو يبرهن أن الطحين كان يجب أن يكفي لمدة يومين أو ثلاثة أيام أخرى على الأقل. وفجأة يسأل وهو يطلق ضحكة قصيرة:

ــ وكيف تنامان، أليس فراشكما دافئاً؟

احمر وجه مولودايا بكثافة، فأحنت رأسها وخرجت، أما كوزما فقد شعر ببرودة في أصابع يديه من شدة الخجل والغضب.

ــ عيب عليك يا أخي تيخون إيليتش، برطم كوزما وهو يستدير نحو النافذة. ــ ولاسيما بعد كل ما كشفته لي...

ــ ولماذا احمر وجهها؟ يسأل تيخون إيليتش بحقد، وهو يبتسم مرتبكاً خجلاً.

الاغتسال أبشع أعمال الصباح. فالقش في المدخل، ينفث الصقيع، والجليد يعوم كقطع الزجاج المكسور في المغسلة. لذا كان كوزما يكتفي، أحياناً، بغسل يديه فقط قبل تناول الشاي. إنه يبدو، بعد النوم، عجوزاً هرماً. فبسبب القذارة والبرد هزل كثيراً وقد ازداد شيباً في الخريف... نحلت يداه، وبات جلدهما أكثر رقة وشحوباً، وغطته بكثرة شامات ليلكية صغيرة الحجم.

حلّ الصباح شاحباً. وتحت الثلج الرمادي المتصلب، كانت القرية شاحبة أيضاً. وبدت ألواحاً رمادية متجمدة قطعُ الغسيل

المنشورة على العيدان تحت أسقف حظائر القش، وتجمد عند مداخل البيوت ما كانوا يرمونه من زبالة ورماد متفحم. ومشى الأولاد بثيابهم الممزقة مسرعين في الطريق بين البيوت والحظائر إلى المدرسة، يصعدون متراكضين فوق أكوام الثلج، ثم يتزحلقون من فوقها بصنادلهم، وقد تمنطق كل منهم بكيس من القماش الخام يضم لوحاً حجرياً وبعض الخبز. ومن الجهة المقابلة يأتي العجوز المريض ذو الوجه الكامد اللون تشوغونوك متعثراً منتعلاً حذاء مهترئاً قبيح المنظر من اللباد المغلف بجلد الخنزير، ولا يستر جسده غير قفطان سميك، وقد أحنى ظهره حاملاً على كتفيه عصا عُلّق بطرفيها دلوان؛ وكان ثمة برميل ماء لأحدهم سُدّت فوهته بالقش، يتدحرج من تبّة إلى تبّة فيتطاير منه رشاش الماء؛ وتمرّ النسوة، تستعير إحداهن من الأخرى بعض الملح، أو القمح، أو الطحين لصنع الرقائق أو الفطائر. كانت البيادر خالية، إلا بيدر ياكوف، حيث كان الغبار يتصاعد عند بوابة كوخ تجفيف السنابل: لقد كان ياكوف يقوم بدراس المحصول في الشتاء مقلّداً بذلك أغنياء المزارعين. ووراء البيدر، وأدغال النباتات البرية في الحواكير، امتدت تحت ابيضاض السماء الواطئة حقول يغطيها ثلج كامد اللون، صحراء من البلورات الثلجية المتموجة.

كان كوزما يذهب في بعض الأحيان إلى كوشيل في غرفة الخدم ليتناول طعام الإفطار ـــ بطاطا حارة كالجمر، أو حساء ملفوف محمضاً من بقايا طعام البارحة: يتعجب حين يتذكر

المدينة، حيث عاش معظم عمره، من أنه لا يشعر أبداً بالحنين إليها. إن المدينة هي الحلم الدائم لتيخون الذي يحتقر القرية ويكرهها بكل جوارحه. أما كوزما فكان يحاول أن يكره. إنه الآن ينظر بخوف أكبر من ذي قبل، إلى حياته: لقد توحّش تماماً في دورنوفكا، ــ يهمل الاغتسال في كثير من الأحيان، ويظل متدثراً عباءته طول اليوم، ويأكل من صحن واحد مع كوشيل. ولكن أسوأ ما في الأمر، أنه، وهو الخائف من حياته التي تقوده إلى الشيخوخة بالساعات لا بالأيام، كان يشعر بأنها تروقه رغم كل شيء، لأنه يعود، على ما يبدو، إلى ذلك المسار الذي قد يكون مقدّراً له منذ ولادته: ليس ذلك عبثاً، فقد يكون الدم الذي يجري في عروقه هو دم الدورنوفيين.

وكان، بعد الإفطار، يتجول في العزبة أو في القرية، يزور ياكوف في البيدر، أو سيري في بيته، أو كوشيل في بيته حيث تسكن وحيدةً زوجته العجوز التي اشتهرت بأنها ساحرة، وهي امرأة طويلة القامة، ونحيلة نحولاً مخيفاً، وذات أسنان كبيرة كأنها الموت، تتكلم بخشونة وحزم، وتدخن الغليون كالرجال: تشعل الموقد، وتجلس على المصطبة فوقه، تدخّن وهي تهزّ ساقها الطويلة وقد انتعلت صندلاً أسود ثقيل الوزن. لم يسافر كوزما طول فترة الصوم سوى مرتين ــ إلى مركز البريد وبيت أخيه. كانت السفرتان صعبتين، فقد عانى كوزما من البرد، حتى أنه لم يعد يشعر بأن له جسداً. المعطف المصنوع من فروة الخروف خدمه طويلاً وتساقط وبره كله تقريباً، والريح في

السهل قاسية شرسة. وقد صعب عليه، بعد طول المكوث في دورنوفكا، أن يملأ صدره بالنضارة القوية للهواء الشتوي. وصَعَقه، بعد طول تأمّلٍ للقرية، الفضاء الثلجي ــ الرمادي، فبدت له الأمداء الضاربة إلى الزرقة في الشتاء، جميلة وبلا حدود، وكأنها لوحة من صنع رسام.

انطلقت الفرس تتقافز بنشاط في وجه الريح القاسية فتتطاير مطقطقة تحت حدوات حوافرها وعند مقدمة العربة، قطع الجليد. وراح كوشيل الذي اصطبغ خده المتجمد بلون ليلكي قاتم، يوخْوِخ بنشاط ويقفز عن مقعده عند المنعطفات ثم يعود إليه راكضاً بقفزة جانبية. اخترقت الريح حتى العظم قدمي كوزما المغطاتين بالقش الممتزج بالثلج، وانتابه شعور بألم ممضّ في جبهته وعضلاته المتجمدة ووجع في مفاصله... كان الجو في دائرة البريد ذات السقف الواطئ في أوليانوفكا، مضجراً كما هي الحال في الدوائر الحكومية في المناطق النائية. رائحة العفن وشمع الأختام تفوح في المكان. وعامل البريد ذو الملابس المهترئة يطرطق بختمه، ويصرخ ساخاتروف المتجهم في وجه القرويين، وقد تملكه الغضب لأن كوزما لم يفطن فيرسل إليه خمس دجاجات أو مُدّاً من الطحين. وبالقرب من بيت تيخون إيليتش أثارت مشاعره رائحة دخان القاطرات، وذكّرته أن في الدنيا مدناً، وبشراً، وجرائد، وأخباراً. لقد كان مما يطيب له أن

يحادث أخاه، ويرتاح عنده، ويتدفأ. ولكن التحادث لم ينجح، فزبائن الدكان كانوا يقطعون حديثهما في كل دقيقة، وكذلك القادمون لأمور تتعلق بالعمل. وأخوه أيضاً، لم يكن يتكلم إلا عن العمل وثرثرة القرويين ونذالتهم وحقدهم، وعن ضرورة أن يتخلص بأسرع، أسرع ما يمكن من أملاكه. أما ناستاسيا بتروفنا فمسكينة. لقد صارت، على ما يبدو، تخاف زوجها خوفاً فظيعاً: تتدخل في الحديث، تدخلاً غير موفق، وتمدح زوجها مدحاً في غير محله ــ تمتدح عقله، ونظرته الثاقبة إلى العمل، وتؤكد أنه يعرف كل شيء، ويفهم كل شيء من دون مساعدة.

ــ يا له من فهيم في كل شيء، يا له من فهيم! ــ قالت هي ــ فأسكتها تيخون إيليتش بفظاظة. وبعد ساعة انقضت في مثل هذا الحديث، بدأ كوزما يشعر بالرغبة في العودة إلى البيت، إلى العزبة.

"لقد انهبل، أقسم إنه انهبل!" ــ هكذا برطم كوزما في طريق عودته إلى البيت، وهو يتذكر وجه تيخون المتجهم الحاقد، وتكتّمه وشكّه وتكراره الممل للكلام نفسه. ثم صاح بكوشيل والفرس، مستعجلاً العودة إلى بيته الصغير لإخفاء كآبته وثيابه العتيقة الباردة فيه...

في الأيام التي تلت عيد الميلاد تردد على كوزما إيفانوشكا من قرية باسوف. وهو قروي من رجال العهد القديم، أصابه الخرف بسبب طول العمر. وقد اشتهر فيما مضى بقوة دببية. كان أنفه مقوّساً، وكان لا يرفع رأسه ذا الشعر الكستنائي أبداً، ويضم مقدّمتي قدميه إلى الداخل حين يمشي. في عام اثنين

وتسعين مات بالكوليرا جميع أفراد أسرة إيفانوشكا الكبيرة، ولم ينجُ سوى ابنه الجندي الذي يعمل الآن حارساً على الخط الحديدي غير بعيد عن دورنوفكا. لقد كان بمقدور إيفانوشكا أن يعيش عمره عند ابنه، ولكنه فضّل أن يتشرّد ويتسوّل. اجتاز الفناء بخطا متعثرة ممسكاً عصاه وقبعته بيده اليسرى، وكيساً بيده اليمنى، وقد غطّى الثلج رأسه المكشوف ــ ولسبب غير معروف لم تهاجمه كلاب الحراسة. دخل البيت وبرطم محيياً: "ليبارك الرب هذا البيت، والسيد في هذا البيت"، وجلس على الأرض قرب الجدار. ترك كوزما الكتاب ونظر إليه بخوف ودهشة من فوق نظارته، وكأنه ينظر إلى وحش سهبي يبدو وجوده في الغرفة أمراً مستغرباً. وظهرت مولودايا تخطو برفق، صامتة مسبلة الجفون، فقدمت لإيفانوشكا، وهي تبتسم ابتسامة خفيفة حانية، وعاء مملوءاً بالبطاطا المسلوقة وقرصاً كاملاً من الخبز بدا رمادياً من كثرة الملح، ثم وقفت في الباب. كانت تنتعل صندلاً، وكان منكباها عريضين مكتنزين، وبدا وجهها الجميل الشاحب عريقاً وبسيطاً بساطة فلاّحية شديدة إلى حدٍّ جعلها لا تستطيع أن تخاطب إيفانوشكا إلا بكلمة "يا جدي"، فابتسمت له - لم تكن تبتسم إلا له وحده - وقالت بصوت خفيض:

- كل، كل، يا جدي.

أجابها بأنّة خافتة من دون أن يرفع رأسه وقد أحس بودّها من خلال صوتها وحده. في بعض الأحيان كان يتمتم: ربي يحميكي يا بنيتي، ثم يرسم شارة الصليب بحركة عريضة مرتبكة من يده

التي تشبه كف الدب، ويشرع يأكل بنهم. بدأ الثلج يذوب عن شعره الكستنائي الغليظ الكثيف كثافة غير إنسانية. وسال على الأرض الجليد الذائب عن صندله. وفاحت من معطفه البني القصير الذي ارتداه فوق قميص متسخ من الخام المنسوج يدوياً، رائحة كرائحة قن الدجاج. وراحت يداه اللتان شوهتهما سنوات العمل الطويلة وأصابعه المعوجة المتصلبة، تلتقط حبات البطاطا بصعوبة.

ــ ألا تشعر بالبرد في هذه السترة القصيرة؟ سأله كوزما بصوت مرتفع.

ــ نعم؟ ــ ردّ إيفانوشكا بصوت ضعيف كالأنين، موجهاً نحوه أذنه التي كساها الشعر.

ــ أسألك، ألا تشعر بالبرد؟

فكّر إيفانوشكا برهة ثم أجاب متمهلاً:

ــ أين البرد؟ ليس هناك أي برد... في الماضي كان البرد أكثر بكثير.

ــ ارفع رأسك، ولملم شعرك!

هزّ إيفانوشكا رأسه ببطء

ــ لن تستطيع رفعه الآن يا أخ... إنه يشدّك نحو الأرض...

ويجهد رافعاً وجهه المخيف الذي غطّاه الشعر وعينيه الصغيرتين المزمومتين وهو يبتسم ابتسامة باهتة.

شبع، فتنهّد ورسم شارة الصليب، وراح يجمع فتات الطعام عن ركبتيه ويلوكها؛ ثم مرّ بيده على ما بقربه باحثاً عن الكيس

والعصا والطاقية، وحين وجدها وهدأ، بدأ حديثه غير مستعجل. لقد كان بمقدوره أن يجلس صامتاً طول اليوم، غير أن كوزما ومولودايا ظلاّ يسألانه، وهو يجيب وكأنه في حلم، أو كأنه يتكلم من مكان بعيد. تكلم بلغته القديمة غير الرشيقة على أن القيصر، كما يزعمون، مصنوع كله من الذهب، وأن القيصر لا يستطيع أن يأكل السمك ــ "السمك مالح جداً"، وأن النبي إيليا كسر السماء ذات مرة فسقط على الأرض: "لقد كان رهيباً جداً"، وأن يوحنا المعمدان وُلِد أجعد الشعر كالخروف، وأنه كان، حين يقوم بالعماد، يضرب المعمّد على رأسه بعكاز حديدي لكي "يصحو"؛ وأن كل فرس تحاول مرة في العام، في عيد فلورا ولاورا، أن تقتل إنساناً، وروى كيف أن حقول الجودار كانت كثيفة لا يستطيع المرء اجتيازها، وأنه وأخاه كانا يحصدان فدّانين في اليوم، وأنه كان يملك بغلاً قوياً جدّاً ورهيباً "يقيدونه بالسلاسل"، وأنهم، ذات يوم، منذ ستين عاماً، سرقوا منه، من إيفانوشكا، نيراً، ما كان ليبيعه حتى لو دفعوا له فيه روبلين كاملين.

لقد كانت لديه قناعة صلبة بأن أسرته لم تمت بالكوليرا، بل لأنها انتقلت إلى بيت جديد بعد الحريق ونامت فيه دون أن تجعل ديكاً يبيت فيه ليلة قبل ذلك، وأنه وابنه نجوا مصادفة، لأنه بات تلك الليلة في كوخ تجفيف السنابل... قبيل حلول الظلام نهض إيفانوشكا ومضى غير عابئ بحالة الطقس، وغير مستجيب لكل محاولات إقناعه بالبقاء حتى الصباح... فأصيب بنزلة برد قاتلة، ــ ومات قبل عيد الصليب في محرس ابنه. وكان ابنه قد حاول

إقناعه بالتطهر والاعتراف. ولكن إيفانوشكا رفض وقال إن ذلك يقود إلى الموت، وهو عازم عزماً راسخاً على "عدم الاستسلام للموت". كان يرقد نهارات كاملة بلا وعي؛ ويطلب من كنّته، حتى في هذيانه، أن تنكر وجوده في البيت، إذا طرق الموت الباب. ويعود إلى وعيه في الليل، فيستجمع قواه وينزل عن الموقد ثم يركع على ركبتيه أمام الأيقونة المضاءة بفانوس صغير. يتنهد بصعوبة، ويتمتم مكرراً عبارة: "إلهي، أبتي، اغفر لي ذنوبي..." ثم يصمت طويلاً ويغرق في التفكير مطأطئاً رأسه. وفجأة، ينهض ويقول بلهجة حازمة: "لا، لن أستسلم!" ولكنه رأى ذات صباح كنّته تصنع الفطائر، وتشعل ناراً قوية في الموقد... فسأل بصوت يرتجف:

ــ هل هذا لجنازتي؟

ظلت الكنّة صامتة. استجمع قواه من جديد ونزل عن الموقد ثم مشى إلى المدخل: نعم بالتأكيد، ــ ثمة تابوت ضخم غامق اللون عليه صلبان ثُمانيّة الأطراف، مسنود طولياً إلى الجدار! حينئذ تذكّر ما حدث لجاره العجوز لقيان قبل ثلاثين عاماً: مرض لقيان فاشتروا له نعشاً ــ نعشاً جيداً غالي الثمن أيضاً، وجلبوا من المدينة الطحين والفودكا وسمك السوداك المملح؛ لكنه فعلها، وشفي من مرضه. فحاروا أين يذهبون بالنعش؟ كيف يعوّضون ما أنفقوه؟ لقد ظلوا سنوات خمساً، بعد ذلك، يلعنون لقيان بسبب ما حدث، ويقضمون وجوده في الدنيا بكثرة لومهم له... تذكّر إيفانوشكا ذلك، فطأطأ رأسه ودخل إلى البيت

مستسلماً. وفي الليل، راح، وهو ممدد على ظهره، يغني بصوت راعش حزين، يتخامد شيئاً فشيئاً ــ وفجأة ارتجفت ركبتاه، وتلعثم، وزفر فارتفع صدره عالياً، ثم، همد، وقد غطى الزبد شفتيه المنفرجتين...

ظل كوزما ما يقرب الشهر طريح الفراش بسبب إيفانوشكا. في صباح عيد الصليب قالوا له إن الصقيع يقتل الطير الطائر، وكوزما لم يكن يملك حتى حذاء من اللباد. لكنه، مع ذلك، ذهب ليلقي نظرة الوداع على الميت. يداه المتجمدتان المعقودتان على صدره الضخم فوق قميص من الخام النظيف، المشوهتان بالعقابيل النامية في خلال ثمانين عاماً كاملة من العمل البدائي الشاق، كانتا قبيحتين ومخيفتين إلى حدّ جعل كوزما يشيح عنهما بصره بسرعة.

أما شعر إيفانوشكا ووجهه الموحش الميت، فلم يستطع كوزما أن ينظر إليهما حتى بطرف عينيه، فردّ عليهما الغطاء الأبيض بسرعة. ولكي يشعر بالدفء شرب بعض الفودكا ثم جلس أمام الموقد المتوهج. كان المحرس دافئاً ونظيفاً نظافة توحي بالبهجة، وعند رأس التابوت الغامق اللون لاح ضوء ذهبي لشمعة التصقت بالطرف المعتم من الأيقونة، والتمعت بألوان ساطعة لوحة مرصعة تمثل غدر إخوة يوسف.

كانت زوجةُ الجندي البشوشُ ترفع بخفّة القدور الكبيرة ثم تدفعها إلى داخل الموقد، وتتحدث بمرح عن حطب الدولة، وهي ترجوه باستمرار البقاء حتى عودة زوجها من البلدة. ولكن

كوزما الذي أصابته الحمى؛ واتّقد وجهه بفعل الفودكا التي سرت كالسمّ في جسده المتجمد من البرد، وغشت عينيه دموع لا سبب لها... انطلق، قبل أن يشعر بالدفء تماماً، إلى بيت تيخون إيليتش عبر الحقول التي غطتها أمواج متصلبة من الثلج. كان الفرس الأبيض الأجعد الشعر الذي غطى الجليد جسمه يعدو بقوة، مغرورق العينين بالدمع، مرسلاً من منخريه عمودين من البخار الرمادي؛ ورفاريف العربة تولول وترن عجلاتها المعدنية بصخب وهي تخترق الثلج القاسي؛ وقد بدت الشمس من خلفه واطئة صفراء تحيط بها هالة من الصقيع، ومن الأمام، من الشمال، هبت ريح قارصة تخترق الروح؛ وانحنت شاهدات الطريق تحت ثقل كتل الجليد المجدولة المتدلية منها، وراحت عصافير كبيرة الحجم تطير أسراباً أمام الفرس ثم تتناثر على الطريق اللامعة فتنقر الروث المتجمد، ثم تطير من جديد وتعود فتتناثر.

تأمل كوزما تلك الطيور من خلال رموشه المثقلة ــ المبيضة، فأحسّ أن وجهه المتخشب بتجاعيد لحيته وشاربيه البيضاء بات يشبه الأقنعة في الأعياد المقدسة... غابت الشمس، واخضرت أمواج الثلج اخضرار الموتى وسط بريق برتقالي، وامتدت من ظهورها ونتوءاتها ظلال زرقاء... أدار كوزما الفرس بحدة، وانطلق بها عائداً إلى البيت. غابت الشمس تماماً، وفي البيت، لاح من وراء الزجاج المتسخ ضوء ضعيف. كان المساء أزرق داكناً، والمكان مقفراً وبارداً، وطائر الدغناش الذي

في القفص المعلّق قرب النافذة ميتاً راقداً على ظهره وساقاه إلى الأعلى، وريشه منتفش، ومنقاره الأحمر مفتوح.

ــ انتهيت! ــ قال كوزما وحمل عصفور الثلج ليرميه بعيداً.

وفجأة، شعر في ذلك المساء الحزين في قلب الشتاء السهبي، بالخوف من دورنوفكا المطمورة في الثلج المتجمد والبعيدة عن العالم كله. لقد خاف طبعاً! فرأسه الملتهب مشوّش وثقيل، وهو الآن سيتمدد ولن يقوم أبداً... واقتربت مولودايا من المدخل تدخل دلواً وتجرف الثلج بصندلها.

ــ أنا مريض يا دونيوشكا! ــ قال كوزما بحنان، آملاً أن يسمع منها كلمة تعاطف. ولكن مولودايا أجابت بلهجة جافة لامبالية: ــ أتريدني أن أحضّر السماور؟

إنها حتى لم تسأله عن مرضه. ولم تسأله عن إيفانوشكا أيضاً... عاد كوزما إلى الغرفة المظلمة وهو يرتعد كله، ويفكّر خائفاً كيف وإلى أين سيذهب الآن لقضاء حاجته، تمدد على الأريكة... واختلطت الأماسي بالليالي، والليالي بالنهارات، وضاع عددها...

في الليلة الأولى، في الثالثة تقريباً، استيقظ ودقّ الجدار بقبضته كي يطلب شربة ماء: كان العطش يعذّبه، ويقلقه التساؤل عما إذا كانوا رموا طائر الثلج بعيداً أو لا. ولكن أحداً لم يردّ على دقته. لقد ذهبت مولودايا لتنام في غرفة الخدم. وتذكّر كوزما، أحس أنه مريض مرضاً مميتاً، فاستولت عليه كآبة شديدة وكأنه استيقظ في ثلاجة للجثث. هكذا إذن، بات الممر

الذي تفوح فيه رائحة الثلج والقش والعلف! هكذا إذن، هو الآن مريض، عاجز، وحيد تماماً في هذا البيت المعتم، البارد، الصغير، حيث تبدو النوافذ شاحبة، ويلفها سكون ميت لليلة شتائية لا تنتهي وقد عُلّق بقربها قفص لا لزوم له!

ـ ربّي، أنقذني وارحمني، ربّي ساعدني ولو قليلاً، ـ همس كوزما وهو ينهض نابشاً ما في جيوبه بيدين راجفتين.

أراد أن يشعل عود كبريت، لكن همسه كان هذياناً، ورأسه الملتهب يملؤه الصخب والطنين، ويداه لم تكونا باردتين... لقد وصلت كلاشا، ابنته الحبيبة اللطيفة، فتحت الباب بسرعة ووضعت رأسه على الوسادة وجلست على كرسي بالقرب من الأريكة... كانت ترتدي ملابس السيدات، ـ معطفاً مخملياً وقبعة وشالاً من الفراء الأبيض، ـ يداها تفوح منهما رائحة العطر، وعيناها تلتمعان، وخدّاها اصطبغا بالحمرة بفعل الصقيع... "آه، ما أحسن ما انتهى إليه كل ذلك!" همس أحدهم، ولكن ما لم يكن حسناً هو أن كلاشا، لسبب ما، لا تشعل النار، وأنها لم تأتِ لزيارته، بل لحضور جنازة إيفانوشكا... وأنها شرعت فجأة تغني بصوت غليظ، يرافقها عزف على الجيتار: "حزبولاّت، يا جسور، كوخك فقير...".

كان كوزما في بداية مرضه يعاني من كآبة قاتلة تسمم روحه ويهذي متذكّراً طائر الدغناش، وكلاشا، وفورونيج، بل لازمته أيضاً في هذيانه رغبة في أن يطلب من أحد ما أن يرحموه في أمر واحد على الأقل، هو ألاّ يدفنوه في الآبار. ولكن، يا إلهي،

أليس من الجنون أن يأمل أي كان بالرحمة في دورنوفكا! لقد استعاد وعيه ذات مرة حيث كانوا يشعلون النار في الموقد، فبدا له صوتا كوشيل ومولودايا العاديان الهادئان، قاسيين جداً وغريبين وغير مألوفين، كما تبدو دائماً الحياة العادية للأصحاء، قاسية وغريبة وغير مألوفة. أراد أن يصرخ، أن يطلب إعداد السماور ــ ولكن، أصابه الجمود إذ سمع همس كوشيل الغاضب وهو يتحدث عنه، هو المريض طبعاً، وسمع جواب مولودايا المتقطع:

ــ إيه، دعك منه! سيدفنونه حين يموت...

بعد ذلك أضاءت شمس ما قبل الغروب النوافذ من خلال أغصان الأكاسيا العارية. كان دخان التبغ الأزرق يملأ المكان. وقد جلس بالقرب من السرير طبيب عجوز تفوح منه رائحة الأدوية ونضارة الصقيع، وراح ينزع عن شاربيه بلّورات الجليد. وكان السماور يغلي على الطاولة، وتيخون إيليتش الطويل، الأشيب، الصارم، يقف قرب الطاولة، يلقّم الإبريق شاياً معطّراً. تحدث الطبيب عن بقراته، وأسعار الدقيق والزبدة، وروى تيخون إيليتش كيف شُيّعت ناستاسيا بتروفنا في جنازة رائعة تنم على الثراء، وعبّر عن فرحته إذا وجد أخيراً من يشتري دورنوفكا. فهم كوزما من الحديث أن تيخون إيليتش قد وصل لتوّه من المدينة، وأن ناستاسيا بتروفنا ماتت هناك فجأة في الطريق إلى المحطة، وفهم أن الجنازة كلّفت تيخون إيليتش كثيراً

جداً، وأنه قبض عربون بيع دورنوفكا، فتلقى ذلك كله بلا مبالاة تامة...

استيقظ ذات يوم في وقت متأخر جداً، وهو لا يشعر بغير الضعف، وجلس إلى السماور. كان اليوم عابساً، دافئاً وقد هطل الكثير من الثلج مجدداً. ومرّ سيري من تحت النافذة حافراً في الثلج بصندله أخاديد على شكل صلبان صغيرة، فتراكضت من حوله كلاب الحراسة وهي تشمشم أذيال ثوبه الممزق. أما هو فكان يجرّ برسنٍ حصاناً طويل القوائم، متسخاً، ملطّخ الجلد ببقع من ملح العرق الجاف، قبيح المنظر بسبب هرمه وهزاله، وقد ترك النير آثاره على كتفيه، وانحنى ظهره، أما ذيله فكان قليل الشعر وغير نظيف. وكان الحصان يعرج على ثلاث قوائم، أما القائمة الرابعة المصابة بكسر تحت الركبة، فكان يجرها جرّاً.

تذكّر كوزما أن تيخون إيليتش أخبره، حين كان عنده منذ ثلاثة أيام، أنه كلّف سيري أن يقدّم وجبة دسمة لكلاب الحراسة، ـ العثور على حصان عجوز وذبحه، وقال إن سيري قام بمثل هذا العمل من قبل، فاشترى مواشي نافقة أو غير صالحة للاستخدام، من أجل الاستفادة من جلدها. وروى تيخون إيليتش أيضاً حادثة مخيفة وقعت لسيري منذ زمن قريب: كان سيري يستعدّ لذبح فرس، ولكنه نسي أن يربط قوائمها، ربط عنقها وأدار وجهها جانباً فقط، ـ وما إن ضرب عنق الفرس بسكين صغيرة حادة عند عظم الترقوة، بعد أن رسم شارة الصليب، حتى زعقت واندفعت نحو قاتلها زاعقة وأسنانها الصفراء

تصطك من شدة الألم والغضب، ونافورة دمها الأسود تتساقط على الثلج، وظلت تطارده فترة طويلة وكأنها إنسان، بل كادت تلحق به، غير أن "الفضل يعود للثلج الذي كان عميقاً"... لقد أذهل هذا الحادث كوزما، حتى إنه شعر الآن، مرّة ثانية، بثقل في قدميه وهو ينظر عبر النافذة، فراح يشرب جرعات كبيرة من الشاي الساخن ــ فتحسّن حاله بالتدريج. ودخّن سيجارة، وجلس... ثم وقف أخيراً ومشى إلى المدخل، وراح يتأمل الحديقة العارية، القليلة الأشجار، من وراء زجاج النافذة الذي ذاب عنه الجليد: في الحديقة، فوق غطاء التربة الثلجي الأبيض، تمددت جثة مدمّاة منتفخة، طويلة الرقبة، مسلوخة الرأس، وقد تكومت حولها الكلاب وغرست مخالبها في لحمها وراحت تنتزع أمعاءها وتتجاذبها. وكان ثمة غرابان كحليان يقتربان من رأس الجثة بقفزات جانبية، ثم يسرعان في الطيران حالما تهرّهما الكلاب وتنقض عليهما، ثم يهبطان فوق الثلج النقي نقاء عذرياً. "إيفانوشكا، سيري، الغربان... ــ مرّت صور هؤلاء في خاطر كوزما ــ ربّاه، خلّصني وارحمني، أبعدني عن هذا المكان!"

لازم المرض كوزما فترة طويلة بعد ذلك. كان يحسّ بفرح يشوبه الحزن حين يفكر بالربيع، ويتمنى لو يغادر دورنوفكا في أسرع وقت. هو يعرف أن نهاية الشتاء مازالت بعيدة، غير أن تباشير الربيع بدأت في الظهور. فالأسبوع الأول من شباط (فبراير) كان معتماً ضبابياً. غطّى الضباب الحقول وقضم الثلج. فظهر سواد القرية، وتجمعت برك الماء بين أكوام الثلج

المتسخة؛ وذات يوم مرّت في القرية مدحلة تلطّخت عجلاتها كلها بروث الخيل. الديكة تصيح، ومن الشرّاق تتسرب رطوبة ربيعية تثير المشاعر... إنه مازال يريد أن يعيش ــ يعيش، ينتظر الربيع، والانتقال إلى المدينة، يعيش راضياً بمصيره، ممارساً أيّ عمل، لو مقابل لقمة الخبز وحدها... وطبعاً، عند أخيه ــ أيّاً كان ذلك الأخ. لقد اقترح عليه أخوه حين كان مريضاً الانتقال إلى فورغول.

ــ أين سأحشرك الآن ــ قال بعد تفكير. ــ حتى الدكان والحوش، سأسلمهما في الأول من آذار، ــ هيا بنا يا أخي إلى المدينة، بعيداً عن هؤلاء السفاحين!

والحقّ، إنهم سفاحون. جاءت أدنودفوركا وروت له آخر تفاصيل حكاية سيري: عاد دينيسكا من تولا وهو يقيم بلا عمل، متسكعاً في القرية، يريد أن يتزوج، عنده نقود، وسيعيش في القريب العاجل عيشة من الطراز الأول. في البداية، عدّت القرية هذا الكلام هراء. ولكنها أدركت السرّ فيما بعد، من خلال تلميحات دينيسكا وصدّقته. وصدّقه سيري أيضاً، فراح يفاخر بابنه ويمتدحه. لكنه بعد أن ذبح الفرس وقبض روبلاً من تيخون إيليتش، ثم ربح نصف روبل ثمناً للجلد، تكبّر وانصرف إلى التسكع والسكر، ظل يسكر يومين كاملين، وأضاع غليونه، ثم تمدّد فوق الموقد ليرتاح. شعر بألم في رأسه، ولم يكن لديه ما يدخّنه. عندها راح ينزع الورق عن السقف الذي غطّاه دينيس بورق الصحف والصور، ليستخدمه في لفّ السجائر. كان ينزع

ورق السقف بالسرّ طبعاً، ولكن، حدث ذات مرة أن ضبطه دينيسكا وهو يفعل ذلك. ضبطه وصاح. فردّ سيري المخمور بالصياح أيضاً ــ فجرّه دينيسكا من فوق الموقد وضربه ضرباً مبرّحاً لم يكفّ عنه إلا حين هرع الجيران إلى المكان... سمع كوزما ذلك وتساءل في سرّه: طيّب، أليس تيخون إيليتش سفاحاً أيضاً، حين أصرّ بعناد مجنون على تزويج مولودايا بواحد من هؤلاء السفاحين!

حين سمع بهذا الزواج لأول مرة قرّر جازماً أنه لن يسمح به. هذا فظيع، هذا جنون! ثم حين عاد إلى وعيه في أثناء المرض، قبِل، بل فرِح بهذا الجنون. لقد أدهشته، بل أذهلته لامبالاة مولودايا به وهو مريض. "إنها وحش، امرأة متوحشة! ــ قال في سرّه، وحين تذكّر الزواج أضاف بحقد: ــ ممتاز! هذا هو الجزاء الذي تستحقه!" والآن، بعد المرض، زال من نفسه الحزم والحقد. وذات مرة، حين تكلم مع مولودايا حول نيّة تيخون إيليتش، أجابته بهدوء:

ــ فليكن، أنا وتيخون إيليتش تشاورنا في الأمر، اللــه يعطيه العافية، فكرته جيدة.

ــ جيدة؟ ــ سأل كوزما مندهشاً.

ــ وكيف لا تكون جيدة؟ غريب أمرك واللــه يا كوزما إيليتش! لقد وعد بالنقود، وتكفّل بنفقات العرس... وهو، فوق ذلك، لم يعرض عليّ الزواج بأرمل، بل بشاب فتي لا عيب فيه... لا هو عفِن ولا سكير...

ــ ولكنه كسول، و"مشكلجي"، وأحمق حتى العظم، ــ أضاف كوزما.

غضّت مولودايا بصرها ولاذت بالصمت، ثم تنهدت وأدارت له ظهرها، ومشت نحو الباب.

ــ أنت أدرى، ــ قالت بصوت مرتجف. ــ الأمر أمرك... اطلب منه أن يلغي الفكرة... واللــــه معكم. اتسعت حدقتا كوزما غضباً، وزعق:

ــ قفي! أنت فقدت عقلك بلا شك! هل أنا أريد لك الشرّ؟ التفتت مولودايا نحوه، وتوقفت.

ــ وما هو، إن لم يكن شراً؟ راحت تتكلم بحرارة وفظاظة، وقد احمرّ وجهها، والتمعت عيناها. ــ إلى أين ألجأ برأيكم؟ هل أقضي عمري على عتبات بيوت الغرباء؟ أبلع فتات خبزهم؟ أو أهيم متشردة بلا مأوى أنتظر الحسنات؟ أو أبحث عن أرمل عجوز؟ ألا يكفي ما ابتلعته من دموع؟ خانها صوتها، فخرجت وهي تجهش بالبكاء. وفي المساء جهد كوزما في إقناعها بأنه لم يفكّر أبداً في تخريب الأمر، فاقتنعت بعد لأي، وضحكت ضحكة قصيرة خجولة وودودة.

ــ طيّب، شكراً لك، ــ قالت بتلك اللهجة اللطيفة التي كانت تخاطب بها إيفانوشكا.

غير أن الدموع ظلت تترجرج على رموش عينيها، وأسقط في يد كوزما من جديد. وقال:

ــ ما الذي يبكيك الآن؟

فأجابت مولودايا:

ــ إن جئت للحق، دينيسكا، مثل غيره، لا يبهج النفس...

جلب كوشيل أعداد الجريدة عن شهر ونصف الشهر تقريباً. كانت الأيام تجري معتمة، ضبابية، فجلس كوزما يقرأ من الصباحِ إلى المساء قرب النافذة. وبعد أن انتهى من القراءة مذهولاً لكثرة عدد "الأعمال الإرهابية" والإعدامات الجديدة، جمد في مكانه. نُدف الثلج البيضاء تهطل منحرفة فوق القرية الفقيرة السوداء، وفوق الطرقات القذرة الموحلة، وروث الحيوانات والجليد وبرك الماء، ويغطي الضباب المسائي الحقول...

ــ أفدوتيـــــاا ــ صاح كوزما وهو ينهض من مكانه. ــ قولي لكوشيل أن يشدّ الحصانَ إلى العربة ذات المظلة!

كان تيخون إيليتش جالساً في البيت قرب السماور يصنع الشاي، وليس عليه غير ثوب من الشيت، وقد بدا أسمر، أبيض اللحية، كبيراً وقوياً، ذا حاجبين رماديين لزجين.

ــ أهلاً يا أخي الحبيب! هتف مرحّباً من دون أن يحرّك حاجبيه. ــ خرجت، إذن، إلى دنيا اللـــه؟ انتبه، فقد تكون استعجلت!

ــ اشتقت كثيراً يا أخي، ــ أجاب كوزما وهو يقبّله.

ــ طيّب، اشتقت، تعال إذن نتدفّأ وندردش...

وبعد أن تبادلا الأسئلة عن الأحوال والأخبار، جلسا صامتين يشربان الشاي، ثم أشعل كل منهما سيجارة.

ــ صرت نحيلاً جداً يا أخي! ــ قال تيخون إيليتش وهو يعبّ دخان سيجارته، ناظراً إلى كوزما من تحت إلى فوق.

ــ هناك ما يجعلك كذلك، ــ أجاب كوزما بصوت خافت، ــ ألا تقرأ الصحف؟

ضحك تيخون إيليتش ضحكة قصيرة.

ــ أتعني ما تنشر من هراء؟ لا، كفانا اللـــه شرها.

ــ ما أكثر الإعدامات! ليتك تعلم!

ــ الإعدامات؟ هم يستحقون ذلك... هل سمعت بما حدث في ضواحي يلتس؟ في مزرعة الأخوين بيكوف؟... ألا تذكرهما، ــ الأخوين الألثغين؟...

كان هذان الأخوان بيكوف يجلسان، كجلستنا الآن، أنا وأنت، يلعبان الضاما[1] في المساء... وبغتة ــ ماهذا؟ دَرْبَكة في المدخل، وزعيق: "افتح الباب!" ولم يكد يطرف لهما جفن، حتى اندفع إلى الداخل أحد عمالهما، قروي تافه من أمثال سيري، يتبعه شقيّان يبدو أنهما من سرايا التفتيش الخاصة، باختصار... كان الثلاثة يحملون قضباناً حديدية. رفعوا القضبان وصرخوا: "ارفعا أيديكما يا ملعونَي الأم!" خاف الأخوان بيكوف طبعاً خوفاً مميتاً، غير عادي، فوثبا صارخين: "ما هذا؟"، أما القروي التافه فظل يكرر: ارفعا أيديكما، ارفعاها!

ابتسم تيخون إيليتش ابتسامة قاتمة وصمت متفكراً:

---

[1] ـ لعبة شعبية مبسّطة عن الشطرنج

ـ هيّا، كمّل كلامك، ـ قال كوزما.

ـ لم يبق ما يستحق القول... رفعا أيديهما، طبعاً، وسألا: "طيّب، ماذا تريدون؟" ـ "هات ما عندكم من لحم الخنزير المملح! أين المفاتيح؟"

ـ يا ابن الكلب، ألا تعرف أين المفاتيح؟ هي هناك، معلقة بمسمار على العمود..."

فقاطعه كوزما سائلاً: هل حدث كل ذلك وأيديهما مرفوعة؟

ـ طبعاً، مرفوعة... وهم الآن يعاقبون بسبب ما فعلته تلك الأيدي! سيشنقون طبعاً. هؤلاء الجدعان صاروا في السجن...

ـ هل سيشنقون حقاً بسبب لحم الخنزير المملح؟

ـ لا، بسبب "تراندا"، غفر اللـــه لي هذا الذنب، ـ ردّ تيخون إيليتش نصف غاضب، نصف مازح. ـ كفاك، بحق اللـــه، معارضة وتشبهاً ببالاشكين! حان الوقت لتكفّ عن ذلك...

داعب كوزما شعر لحيته الأشيب. وانعكست صورة وجهه البادي الإعياء، وعينيه الحزينتين وحاجبه الأيسر المنزاح إلى أعلى، في المرآة، فنظر إليها، وقال موافقاً بصوت خافت:

- حان الوقت لترك المعارضة؟ هذا صحيح، حان الوقت... حان، قبل اليوم بكثير... انتقل تيخون إيليتش بالحديث إلى قضايا العمل، يبدو أنه لم يصمت قبل قليل ويغرق في التفكير في أثناء روايته للحكاية، إلا لأنه تذكّر شيئاً ما، أهم بكثير من الإعدامات، - قضية ما.

- أنا طلبت من دينيسكا أن ينهي هذه "الهيصة" بما لا يمكن من السرعة، - كان يتكلم بصلابة ووضوح وصرامة، وهو يهيل أوراق الشاي من كفه في الإبريق. - وأرجوك يا أخي الحبيب أن تشارك أنت فيها، أعني في هذه المعمعة. أنت تدرك أن الأمر محرج بالنسبة لي. بعدها، انتقل إليّ هنا. سيكون ذلك أفضل يا أخي! ما دمنا قررنا تحويل كل شيء إلى حطام، لن يكون لبقائك هناك فائدة، لن يكون إلا إنفاقاً مضاعفاً. وحين تأتي انضمَّ إلي، قف إلى جانبي. سنلقي الحمل عن أكتافنا، ونصل، بإذن اللــه، إلى المدينة، - نعمل في مستودع حبوب. هنا، في هذه الحفرة، لا يستطيع المرء أن يتحرك. سننفض غبارها عن أقدامنا، - وليبتلعها الخراب. ليس معقولاً أن نموت فيها! أنا عندي، حطّ في بالك - قال وهو يحرّك حاجبيه، وقد مدّ ذراعيه، وضغط كفّاً بكف، - عندي مازال صعباً أن تفلت الأمور، مازال الوقت الذي أتمدد فيه فوق الموقد بعيداً! مازلت قادراً على تحطيم قرون الشيطان نفسه!

كان كوزما يصغي إليه، وهو ينظر شبه خائف إلى عينيه الجامدتين المجنونتين، وإلى فمه المعوجّ الذي يطلق الكلمات بوحشية، ــ كان يصغي في صمت.

ثم سأل:

ـ قل لي يا أخي، بحق المسيح، ما النفع الذي تجنيه من هذا الزواج؟ أنا لا أفهم، ربي يشهد عليّ، أنا لا أفهم. صاحبك دينيسكا لا أحتمل حتى رؤيته. إنه نموذج تافه جديد، روسيا الجديدة، سيكون أنقى قبحاً من كل من سبقوه. لا يخدعك أنه خجول وعاطفي ويتظاهر بالدروشة، ـ فهو حيوان وقح جداً! يزعم أني أعاشر مولودايا...

فقاطعه تيخون إيليتش عابساً:

ـ أنت، حقاً، لا تعرف الاعتدال في أي شيء. أنت نفسك تكرّر على أسماعنا: الشعب التعيس، الشعب التعيس! والآن تقول إنه حيوان!

ـ نعم، أكرّر وسأكرّر! ـ قال كوزما بحرارة. ـ ولكن عقلي يكاد يطير! أنا الآن لا أفهم شيئاً، هل هو تعيس، أو هو... طيّب، اسمعني: أنت نفسك تكرهه، تكره هذا الدينيسكا! أنتما الاثنان يكره أحدكما الآخر! إنه لا يقول عنك سوى أنك "جلاّد، ينهش لحم الشعب"، وأنت تشتمه فتقول إنه جلاد! وهو يتفاخر في القرية زاعماً أنه الآن ـ رفيق الملوك...

ـ أعرف هذا! قاطعه تيخون إيليتش مرة ثانية.

ـ وهل تعرف ما يقوله عن مولودايا؟ ـ تابع كوزما دون توقف. ـ إن لها، افهمني، وجهاً لونه الأبيض في غاية الرقة، أما هو، ذاك الحيوان، فيقول، هل تعرف ماذا يقول؟ "وجه هذه المنحطّة آجرّة صرف!" وأخيراً، عليك أن تفهم أنه لن يعيش في

القرية، أنت لن تستطيع إبقاءه في القرية حتى لو قيّدته بحبل غليظ. فأيّ صاحب مزرعة هذا، وأي ربّ أسرة؟

أمس سمعته يغني بصوت عاهر وهو يتجوّل في القرية: "رائعة مثل ملاك سماوي، شريرة وحاقدة مثل شيطان..."

ــ أعرف! ــ صاح تيخون إيليتش. ــ لن يعيش في القرية، لن يفعل مهما كان الثمن! طيّب، ليذهب إلى الشيطان! أما بشأن قولك إنه ليس ملاّكاً جيداً، فأعتقد أننا، أنا وأنت، ملاّكان فينا البركة! أنا أذكر كيف كنتُ أحدثك عن العمل ــ في المطعم؛ أتذكر؟ ــ أما أنت، فكنت تصغي إلى صوت علبة الموسيقا... ولكن ماذا بعد، ماذا بعد؟

ــ كيف "ماذا"؟ وما علاقة علبة الموسيقا بذلك؟ ــ سأل كوزما. نقر تيخون إيليتش بأصابعه على الطاولة، ثم قال بصرامة مباعداً بين الكلمات:

ــ حطّ في بالك: دقّ الماء ــ يبقى ماء. قول مقدس إلى أبد الآبدين. أنا أفعل ما أقول. لا أكفّر عن ذنبي بإشعال شمعة، بل أقوم بعمل خير. لو أعطيت قطعة واحدة من الخبز، فإن الرب سيذكرني بفضل تلك القطعة. قفز كوزما من مكانه وصرخ بحدة:

ــ الربّ، الربّ! أيّ ربّ عندنا! أيّ ربّ عند دينيسكا، أو أكيمكا أو مينشوف، أو سيري، أو عندك، أو عندي؟

ــ مهلاً، ــ قال تيخون إيليتش بصرامة. عن أي أكيمكا تتكلم؟

لكن كوزما تابع كلامه دون أن يصغي إليه:

ــ كنت راقداً على فراش الموت، فهل فكّرت في الرب كثيراً؟ أنا لم أفكر إلا في أمر واحد، هو أني لا أعرف عنه شيئاً، ولا أعرف كيف أفكر! ثم صرخ: لم أتعلم التفكير!

وراح ينظر إلى ما حوله وعيناه الحزينتان تدوران في محجريهما وهو يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، يفك أزرار سترته ويعيد إقفالها، ثم وقف أمام تيخون إيليتش وجهاً لوجه، وقال وقد احمرّت قسمات وجهه:

ــ تذكّر يا أخي، تذكّر أن أغنيتنا بلغت نهايتها، ولن تنقذنا، أنا وأنت، أية شموع. أتسمع؟ نحن دورنوفيّون!

خانته الكلمات من شدّة الانفعال فصمت. أمّا تيخون إيليتش الذي عاد يقلّب من جديد أفكاراً تخصه، فوافقه على غير توقع.

ــ صحيح. هذا الشعب لا يصلح لشيء! لو أنك فقط فكّرت...

وانتعش، وقد استهوته الفكرة الجديدة:

ــ لو أنك فكّرت فقط كيف أنهم يفلحون الأرض منذ ألف عام، أنا غلطان ــ أكثر من ألف عام! ــ أما الفلاحة الصحيحة ــ أعني أنه ما من أحد فيهم يتقن الفلاحة! عملهم الوحيد لا يتقنون عمله! لا يعرفون متى يجب أن يفلحوا! ومتى يجب أن يزرعوا، ومتى يحصدون! "كما يفعل الناس، نفعل"، ــ هذا كل شيء. انتبه! صاح بصرامة محركاً حاجبيه، كما صاح كوزما في وجهه من قبل. ــ "كما يفعل الناس، نفعل!" الخبز، ما من

امرأة تتقن خبزه، ـــ قِشْرته العليا تتفتت وتتناثر إلى الشيطان، وتحت القشرة ـــ ماء محمضّ!

شعر كوزما بالخوف. واختلطت الأفكار في رأسه.

"لقد جُنّ!" ـــ قال في سره، وهو ينظر بعينين خاليتين من المعنى إلى أخيه الذي كان يشعل المصباح.

أما تيخون إيليتش فلم يمنحه فرصة ليتمالك نفسه، بل تابع في حماسة:

ـــ الشعب! بذيئو اللسان، كسالى، كذّابون، وقحون، ما من أحد فيهم يثق بالآخر! لاحظ! ـــ صرخ، دون أن يرى أنّ فتيل المصباح اشتعل وتصاعد الهباب منه حتى كاد يبلغ السقف، ـــ ليس بنا، بل أحدهم بالآخر! كلّهم هكذا، كلّهم! ـــ صاح بصوت باك بينما كانت زجاجة المصباح تطقطق وهو يضعها في مكانها.

ازرقّت السماء وراء زجاج النوافذ. وتطاير ثلج أبيض طازج فوق برك الماء وأكوام الثلج القديم... وكان كوزما ينظر إليه صامتاً، فقد اتخذ الحديث منعطفاً غير متوقع جعل حماسته تتبدد. لم يكن يعرف ما يقول، أو يجرؤ على النظر إلى عيني أخيه المسعورتين، فراح يتشاغل في إعداد لفافة تبغ:

"جُنّ الرجل، ـــ قال في سرّه يائساً. ـــ مصيرنا إلى هناك، على كل حال!"

أشعل تيخون إيليتش سيجارة أيضاً وقد شرع يستردّ هدوءه. جلس ينظر إلى ضوء المصباح، وتمتم بصوت خافت:

ـ وأنت تقول ـ "دينيسكا"... هل سمعت بما فعله ذلك الدرويش الجوال ماكار إيفانوفيتش؟ أمسك، هو وصديق له، بامرأة على الطريق، قيّداها وجرّاها إلى المحرس ـ وظلاّ أربعة أيام يأتيان إليها ويغتصبانها... بالدور... المهم: إنهما الآن في السجن...

ـ تيخون إيليتش، قال كوزما بحنان، ـ ما هذا الهراء الذي تقوله؟ ولماذا؟ لا بد أنك مريض. أنت تقفز من موضوع إلى آخر، تقول الآن شيئاً، وبعد دقيقة تقول غيره... هل تكثر في الشراب؟

لاذ تيخون إيليتش بالصمت. واكتفى بالتطويح بيده، وقد ترقرقت الدموع في عينيه المركّزتين على ضوء المصباح.

أعاد كوزما سؤاله بصوت خافت: ـ هل تشرب كثيراً؟

فأجاب تيخون إيليتش متمتماً: ـ أشرب. هناك ما يدفعك إلى السكر! أتظن أنني حصلت على هذا القفص الذهبي بسهولة؟ أتظن أنه كان سهلاً عليّ أن أعيش العمر كله كلب حراسة، وبصحبة امرأة عجوز؟ لم أرحم في حياتي أحداً يا أخي، وقليل من رحمني من الآخرين!

أتظن أني لا أعرف كم يكرهونني؟ أتظن أنهم ما كانوا ليقتلوني شرّ قتلة لو استطاعوا، ـ لو حالفهم الحظ في هذه الثورة؟ انتظر، انتظر، ـ ستحدث أمور كثيرة، ستحدث! لقد ذبحناهم!

ـ الشنق ـ مقابل لحم الخنزير المملّح؟ سأل كوزما.

ــ الكلام على الشنق مبالغة، ــ ردّ تيخون إيليتش بإشفاق. ــ لقد قلت ذلك في سياق الحديث ولم أكن أعنيه...

ــ ومع ذلك يشنقون!

ــ هذا ليس شأننا. هم يتحملون مسؤولية ذلك أمام الرب. وغرق في التفكير لبرهة وقد قطّب حاجبيه وأغمض عينيه.

ــ آخ! ــ قالها بلوعة بعد زفرة عميقة. ــ آخ، يا أخي الحبيب! قريباً، قريباً سنحاكم نحن أيضاً أمام عرش الرب! أنا أقرأ في الأماسي كتاب الأدعية والصلوات ــ وأبكي، أجهش في البكاء عند قراءة هذا الكتاب، وأعجب، كيف كان تأليف مثل هذه الكلمات العذبة ممكناً! هاك، انظر!

نهض بسرعة فجلب من وراء المرآة كتاباً سميكاً بغلاف كنسي، وبيدين راعشتين وضع نظارته على عينيه، وراح يقرأ بصوت دامع، مستعجلاً، وكأنه يخشى أن يمنعه أحدهم من متابعة القراءة:

ــ أبكي وأنحب حين أفكّر بالموت وأرى جمالنا المخلوق على صورة جمال الرب، مسجّى في التوابيت قبيحاً، ساكناً، خالياً من أي تعبير...

ــ الحق أنها فوضى إنسانية، الحياة ليست سوى وهم وسراب. عبثاً يجهد ابن الأرض نفسه، فالكتاب المقدس يقول: حين نملك العالم نسكن القبر، حيث يتجاور القيصر والفقير...

ــ القيصر والفقير! ــ كرّر تيخون إيليتش هذه العبارة بانفعال وأسى وهو يهز رأسه. ــ ضاعت الحياة يا أخي الحبيب! كانت

عندي ــ افهمني ــ امرأة تافهة خرساء، أهديتها، أهديت تلك الحمقاء، شالاً من قماش أجنبي، فصارت ترتديه بالمقلوب... أتفهم؟ لقد فعلت ذلك لغبائها وبخلها. ضنّت على نفسها أن ترتديه على وجهه، ــ سأفعل حين يحلّ العيد، ــ وحين جاء العيد، ــ لم يكن قد بقي منه غير النتف... وهكذا فعلت أنا... بحياتي... هذه هي الحقيقة!

لم يشعر كوزما في طريق عودته إلى دورنوفكا إلا بكآبة صماء. وقد رافقته هذه الكآبة الصماء في كل أيامه الأخيرة في دورنوفكا. كان الثلج يهطل في تلك الأيام. ولم يكن غير الثلج يعيق ساكني حوش سيري الذين ينتظرون أن تصبح الطريق صالحة لإقامة العرس.

وفي الثاني عشر من شباط، قبيل المساء، في عتمة المدخل البارد، دار حديث بصوت خافت: كانت مولودايا تقف قرب الموقد وقد أرخت فوق جبينها منديلاً أصفر مرقشاً بنقاط سوداء كحبات الحمّص، وغضت بصرها ناظرة إلى حذائها. وعند الباب وقف دينيسكا ثقيلاً متهدل الكتفين، وقد أطرق هو الآخر متأملاً جزمة قصيرة الساق بكعبين معدنيين، وراح يقلّبها بين يديه. الجزمة لمولودايا، أصلحها دينيسكا وجاء يطلب خمسة كوبيكات مقابل ذلك.

ــ ليس عندي نقود، ــ قالت مولودايا، ــ لا أستطيع طلبها من كوزما إيليتش، فهو نائم. انتظر حتى الغد.

ـ أنا، كنت، لا أستطيع الانتظار، ـ أجاب دينيسكا بصوت ساهم، منغّم، وهو ينكش كعب الحذاء بظفره.

ـ طيّب، ما العمل الآن؟

فكّر دينيسكا لبرهة ثم تنهّد ونفض شعره الكثيف رافعاً رأسه بشكل مفاجئ.

ـ اسمعي، لا داعي لكل هذا الكلام الفارغ، ـ قال بصوت مرتفع وحازم، مشيحاً بنظره عن مولودايا، ومحاولاً التغلب على خجله، ـ هل كلّمك تيخون إيليتش بالأمر؟

ـ كلّمني، ـ أجابت مولودايا. ـ بل أضجرني لكثرة ما كلّمني.

ـ إذن، سآتي الآن بصحبة أبي. كوزما إيليتش سيستيقظ الآن على كل حال، كي يشرب الشاي...

فكّرت مولودايا برهة

ـ هذا أمر يخصّك...

وضع دينيسكا الجزمة القصيرة الساق على حافة النافذة ومضى دون أن يذكّرها ثانية بالنقود. وبعد نصف ساعة سمع في الشرفة وقع أحذية غلّفها الثلج: عاد دينيسكا ومعه سيري ـ كان سيري، لسبب ما، يلفّ خصره، فوق معطفه القصير، بزنّار أحمر. ـ فخرج كوزما لاستقبالهما. أما دينيسكا وسيري فظلاّ طويلاً يرسمان شارة الصليب في الزاوية المعتمة، ثم ردّا شعر رأسيهما إلى الخلف ورفعا وجهيهما نحوه.

ـــ الخاطب، ليس خاطباً، بل إنسان طيّب! ـــ بدأ سيري الكلام بلهجة راضية، ممطوطة أكثر من المألوف. ـــ عليك أن تعطينا ابنتك المخطوبة لابننا، وعليَّ أن أزوجه، بحسب الاتفاق الذي ارتضيناه، فلنلتزم بالكلام الذي بيننا متمنين لهما السعادة.

وانحنى بوقار انحناءة كبيرة.

فأمر كوزما باستدعاء مولودايا وهو يخفي ابتسامة مشوبة بالألم.

ـــ اركض، ابحث عنها، ـــ أمر سيري دينيسكا همساً وكأنه في الكنيسة.

ـــ أنا هنا، ـــ قالت مولودايا وهي تخرج من وراء الباب، مبتعدة عن الموقد، وانحنت تحيي سيري.

وساد الصمت. كان السماور يجيش ويغلي على أرض الغرفة وقد احمرّت في العتمة الشبكة التي تغطي فوهته. ولكن وجوه الحاضرين لم تكن مرئية.

ـــ هيّا، قولي رأيك يا ابنتي، ـــ قال كوزما وهو يطلق ضحكة قصيرة.

فكّرت مولودايا برهة.

ـــ لا أرى عيباً في الفتى...

ـــ وأنت يا دينيس؟

لاذ دينيس أيضاً بالصمت.

ـــ طيّب، لا بد، على كل حال، من الزواج في وقت من الأوقات... لعلّه، إن شاء اللـــه، يكون مقبولاً.

هنّأ الرجلان بعضهما بعضاً بنجاح العمل الذي بدآه. ونُقل السماور إلى غرفة الخدم. كانت أدنودفوركا، أول من عرف الخبر، فسارعت بالقدوم من قرية الرأس، وأضاءت مصباحاً في غرفة الخدم، ثم أرسلت كوشيل لإحضار الفودكا وبذور دوار الشمس، وأجلست العروس والعريس تحت الأيقونة، وصبّت لهما الشاي، ثم جلست، هي نفسها، إلى جانب سيري. ولكي تبدّد الحرج، غنّت بصوت مرتفع حاد وهي تنظر إلى دينيسكا بوجهه الترابي ورموشه الطويلة:

كما اخضرّت عندنا في الحديقة،
شجيرات الكرمة،
مشى، تنزّه الفتى
جميلاً، أبيض نقيّاً

وفي اليوم التالي ضحك من سيري كل من سمع بهذه الوليمة، وقالوا له ناصحين: "ليتك تساعد العروسين ولو بالقليل!" حتى كوشيل قال مثل ذلك: "أسرتهما فتية، ولا بد من مساعدتهما". فمضى سيري صامتاً إلى البيت، وحمل إلى مولودايا، التي كانت تكوي في المدخل، قدرين صغيرين وكبّة خيوط سوداء.

ــ هاك يا كنّتنا، ــ قال مرتبكاً، ــ خذي، هذه الأشياء من حماتك، لعلها تنفع في أمر ما... نحن لا نملك شيئاً، ــ لو كان هناك شيء، لظهر، حتى لو أخفيته تحت القميص...

حيّته مولودايا بانحناءة وشكرته. كانت تكوي ستارة من التول أرسلها إليها تيخون إيليتش "بدل طرحة العروس"، وكانت عيناها رطبتين حمراوين. فأراد سيري أن يواسيها، أن يقول لها "إن حياته أيضاً ليست عسلاً"، ولكنه تخاذل، فتنهّد وخرج بعد أن وضع القدرين على حافة النافذة، وقال:

ــ لقد وضعت الخيطان في القدر.

ــ شكراً يا أبتي ــ شكرته مولودايا مرّة ثانية بتلك اللهجة الخاصة الحنون التي لم تكن تخاطب بها إلا إيفانوشكا، وما إن خرج سيري حتى ابتسمت ابتسامة ضعيفة ساخرة وشرعت تغني: "كما اخضرّت عندنا في الحديقة..."

أطل كوزما من الصالة ونظر إليها من فوق نظّارته نظرة صارمة، فصمتت.

ــ اسمعي، ــ قال كوزما. ــ ما رأيك لو ألغينا كل هذه القصة؟

ــ تأخر الوقت الآن، ــ أجابت مولودايا بصوت خافت. ــ أنا، من دون ذلك، لا أستطيع التخلص من العار... أم أنهم لا يعرفون كل شيء، وعلى نفقة من سنقيم العرس؟ لقد بدؤوا الإنفاق فعلاً... هزّ كوزما كتفيه. صحيح أن تيخون إيليتش أرسل مع الستارة خمسة وعشرين روبلاً، وكيساً من دقيق الذرة وقمحاً وخنزيراً هزيلاً... لن تخرب الدنيا لأنهم ذبحوا ذلك الخنزير!

ــ أُفّ، ــ قال كوزما، ــ أضنيتموني! "عار؛ نفقات"... هل أنت أرخص ثمناً من الخنزير؟

ــ أرخص أو أغلى، ــ لا أحد ينقل الموتى من مقبرة القرية، ــ أجابت مولودايا ببساطة وصلابة، وتنهدت، ثم شرعت تطوي الستارة المكوية الدافئة بعناية.

ــ هل ستتناول الغداء الآن؟

هدأت قسمات وجهها، فقال كوزما في سرّه: "إه، شاباش، ــ أنت لن تستطيع تغيير شيء هنا!" ثم أجاب:

ــ طيّب، كما تريدين، كما تريدين...

جلس بعد الغداء يدخّن وينظر عبر النافذة. خيّم الظلام. كان يعرف أنهم في غرفة الخدم خبزوا كعكة الجودار ــ "فطيرة مزينة". وتهيئوا لطبخ قدرين من الجيليه بالثوم واللحم المفروم، وقدر من المعكرونة، وقدر من حساء الملفوف، وقدر من الحبوب ــ كل ذلك مع لحم الذبيحة. أما سيري فكان منشغلاً فوق تلة من الثلج بين المستودع والحظيرة. على التلة، في عتمة المساء الضاربة إلى الزرقة اشتعل القش الذي غمروا به الخنزير المذبوح لهباً برتقالياً. وجلست حول اللهب كلاب الحراسة بسحناتها البيضاء وصدورها الزهرية اللون، الحريرية الملمس، تنتظر الغنيمة. كان سيري يتنقل راكضاً من هنا إلى هناك وقدماه تغوصان في الثلج، مصلحاً وضع النار، وهاشّاً على الكلاب، وقد كوّر أذيال ثوبه ودسّها تحت حزام خصره، وهو يزيح باستمرار قبعته إلى نقرته بكوع يده اليمنى التي التمعت فيها سكين. كانت ألسنة اللهب تضيء بسطوع قامة سيري من هذا الجانب أو ذاك في لحظات متقطعة، فيسقط على الثلج ظله كبيراً متراقصاً، كظلِّ

وثنيّ. فيما بعد، مرّت أدنودفوركا راكضة بالقرب من العنبر في الطريق إلى القرية وغابت وراء تلة الثلج ــ ذهبت تدعو الصبايا لإحياء الاحتفال وتستعير من دوماشكا شجيرة السرو المحفوظة في القبو، التي كانت تتنقّل من عرس إلى آخر. حين أتمّ كوزما تسريح شعره وارتدى سترته الطويلة المفضلة بدلاً من تلك التي اهترأ كمّاها عند الكوعين، خرج إلى الشرفة المتشحة بالبياض نتيجة لهطول الثلج، وفي العتمة الرمادية الخفيفة، بالقرب من نوافذ غرفة الخدم المضاءة، تجمع حشد كبير من البنات والشبان والأطفال وساد هرج ومرج، وكانت ثلاث غارموشكات[1] تعزف ثلاثة ألحان مختلفة في الوقت نفسه. مشى كوزما محنيّ الظهر، يطقطق أصابعه التي شبك بعضها ببعض. ولما وصل إلى مكان الحشد، شقّ طريقه وخرج إلى ظلمة المدخل المسقوف. وهنا، في المدخل، ازدحم المكان بالناس أيضاً. كان الأطفال يتقافزون بين أرجل الواقفين، فيمسك هؤلاء بهم من رقابهم ويدفعونهم بعيداً، ولكنهم كانوا يعودون متسللين...

ــ دعوني أمرّ، بحق الرب! ــ قال كوزما المضغوط إلى حافة الباب. ضغطوه أكثر، ــ وخلع أحدهم الباب. واجتاز كوزما عتبته بين حلقات البخار، ثم توقف تحت حاجب الباب العلوي. الناس المتزاحمون هنا أكثر نظافة ــ البنات تدثرن بشالات ملونة، وارتدى الشباب ثياباً جديدة كلها. وانتشرت في

---

[1] ـ الغارموشكا آلة موسيقية تشبه الأكورديون

الجو رائحة الشراب، والمعاطف القصيرة، والكيروسين، والتبغ، والصنوبر. كانت الشجيرة الخضراء الصغيرة المزينة بقطع القماش الأحمر منتصبة على الطاولة، وقد حجبت فروعُها ضوء المصباح المعدني الصغير الخافت. وحول المائدة، تحت النوافذ الصغيرة التي ذاب الجليد عن زجاجها، بالقرب من الجدران السوداء الرطبة، جلست جوقة إحياء العرس، فتيات محمّرات الخدود، مبودرات الوجوه بفظاظة، عيونهن برّاقة ورؤوسهن مغطاة بمناديل من الحرير أو الصوف، وقد شَكَلْن في شعورهن فوق الصدغين ريشات متموجة الألوان مأخوذة من ذيل ذكر البط. وفي لحظة دخول كوزما بالضبط، أنشدت دوماشكا، الفتاة العرجاء ذات الوجه المعتم، الغاضب، الذكي، والعينين السوداوين الحادتين، والحاجبين الأسودين المقفولين، بصوت خشن، قوي، أغنية تفخيم قديمة:

عندنا في المساء ــ المساء
في آخر نهاية للمساء
في ليلة وداع أفدوتيا...

رددت جوقة البنات بحماسة، وبصوت غير منسجم، كلماتها الأخيرة ــ والتفتن جميعهن نحو العروس: كانت جالسة، بحسب التقاليد، قرب الموقد، عاطلة من الزينة، ورأسها مجلل بشال أسود، وكان من واجبها أن تردّ على الأغنية بنحيب مرتفع

وعبارات تندب فيها حظها: "يا أبي الطيب، يا أمي الحبيبة، كيف سأقضي عمري، أكابد آلام الزواج؟" ولكن العروس ظلت صامتة. وحين انتهت البنات من الأغنية، نظرن إليها نظرة تنمّ على عدم الرضا. ثم تهامسن وعبست وجوههن، وشرعن ينشدن ببطء وصوت ممطوط أغنية "اليتيمة":

اشتعلي أكثر يا نار الحمّام
ودقّ أنت، أيها الجرس الرنّان!

ارتجف بقوّة فكّا كوزما المصطكّان، وسرى الصقيع في رأسه وركبتيه، وشعر بألم مخدّر في عضلات جسمه، واغرورقت عيناه وغطتهما غشاوة من الدموع. التفّت العروس بشالها، ثم ارتعدت فجأة وهي تجهش بالبكاء، فصاح أحدهم: ــ كفى يا بنات!

ولكن البنات لم يسمعن نداءه فتابعن:

ــ دوِّ أنت، أيها الجرس الرنّان،
أيقظ أبي الحبيب من نومه...

شرعت العروس تئن وهي تهوي بوجهها على ركبتيها وذراعيها، وتغصّ بدموعها... وأخيراً اقتادوها، مترنّحةً، راعشةً، إلى النصف البارد من المنزل ــ لتزيينها...

بعد ذلك، باركها كوزما. وجاء العريس بصحبة ابن ياكوف فاسكا. كان العريس ينتعل جزمة فاسكا، وقد قصّ شعره وطوّق رقبته الحليقة حتى الاحمرار، بياقة قميص أزرق مطرز بالدانتيل. وبدا أصغر سناً بكثير بعد أن استحمّ بالماء والصابون، بل إنه بدا جميلاً، وصار، حين أدرك ذلك، أكثر وقاراً، وأسبل رموشه الفاحمة بتواضع. أما فاسكا الذي ارتدى قميصاً أحمر ومعطفاً قصيراً من الفراء الفاخر مفتوحاً عن آخره، فدخل بحماسة وألقى على البنات نظرة صارمة.

ــ كفاكنّ لوماً! ــ قال بخشونة، ثم أضاف قائلاً ما تمليه طقوس العرس:

ــ اخرجن من هنا ــ اخرجن من هنا.

فردّت البنات بصوت واحد:

ــ من دون التثليث لا يقوم بناء المنزل، ومن دون زوايا أربع ــ لا يمكن سقف البيت.

ضع روبلا عند كل زاوية، وضع الروبل الخامس في الوسط مع زجاجة فودكا.

أخرج فاسكا من جيبه زجاجة، نصف ليتر، فودكا، ووضعها على الطاولة. فأخذت البنات الزجاجة ونهضن. ازداد المكان ازدحاماً، وانفتح الباب من جديد، ومن جديد اندفع البخار والبرد إلى داخل المكان، ودخلت أدنودفوركا وهي تشق طريقها بين المحتشدين، حاملة أيقونة من الصفيح، ومن خلفها العروس في ثوب أزرق موشى بالبرق، فتأوّه الجميع إعجاباً: كانت شاحبة

جداً وهادئة وجميلة. صفع فاسكا جبين صبي كبير الرأس، عريض المنكبين ساقاه معوجتان كساقي كلب سلوقي، صفعة قوية ــ ورمى فوق القش في وسط الغرفة معطفاً قصيراً فوقف فوقه العريس والعروس. وأخذ كوزما، دون أن يرفع رأسه، الأيقونة من يدي أدنودفوركا ــ وساد هدوء شديد بات يسمع معه صفير تنفس الصبي الفضولي ذي الرأس الكبير. ارتمى العريس والعروس دفعة واحدة جاثيين على ركبهما وانحنيا فوق قدمي كوزما. ثم نهضا وأعادا الكرّة من جديد. نظر كوزما إلى العروس، فالتقت عيونهما لبرهة وارتسم فيها الرعب. شحب لون كوزما وتملّكته فكرة فظيعة! "سأرمي الأيقونة الآن على الأرض..." ولكن يديه رسمتا، رغماً عنه، شارة الصليب في الهواء ــ فتلقفت مولودايا بشفتيها يده وقد اتكأت عليها قليلاً. دسّ كوزما الأيقونة في يد واحد من الواقفين جانباً، وأمسك رأس مولودايا بتألّم الأب ورقّته مقبّلاً المنديل الجديد المعطّر، وهو يبكي بمرارة. غطت الدموع عينيه فلم يعد يرى شيئاً، فاستدار ومشى نحو المدخل شاقاً طريقه بين الناس، فصفعت الريح الثلجية وجهه، وبدت العتبة التي غطّاها الثلج بيضاء في العتمة وهدرت الريح وهي تخترق السقف.

ووراء العتبة هبّت عاصفة ثلجية تحجب الرؤية بكثافتها وقد بدا النور المنبعث من النوافذ أعمدة دخانية من سماكة الهطولات الثلجية...

استمرت العاصفة في الصباح أيضاً. وبسبب تعكّر الجو العاصف، غابت عن النظر دورنوفكا وطاحونتا الهواء في قرية الرأس. كان الضباب ينقشع أحياناً، وأحياناً أخرى يبدو وكأن المساء قد حلّ. اكتست الحديقة بالبياض، واختلط صخب أشجارها بصوت الريح الذي بدا كأنه رنين أجراس بعيدة. وتصاعد البخار من ذرا أكوام الثلج المدببة. وفي الشرفة جلست كلاب الحراسة التي علق الثلج بجلودها، مغمضة عيونها، وهي تشتمّ عبر برودة الثلج الرائحة اللذيذة الدافئة المنبعثة من مدخنة غرفة الخدم. وكان كوزما الواقف في الشرفة لا يميّز إلا بصعوبة، الهياكل الضبابية المعتمة للفلاحين والخيول والزلاجات ورنين الأجراس على أعناق الخيل. لقد أعدوا للعريس زلاجة بحصانين، وللعروس زلاجة بحصان واحد. وفرشوا الزلاجتين بلباد قازاني مطرزة أطرافه بشرائط سوداء. كان الرجال المشاركون في العرس يتمنطقون بسيور ملونة. وارتدت النساء معاطف قطنية وتدثرن بشالات، وهن يمشين حذرات بخطوات صغيرة نحو الزلاجات، ويتبادلن الأحاديث بوقار: "يا لطيف، حتى نور الرب لا يرى!.." أما العروس، فقد جَمعوا أذيال معطفها وثوبها الأزرق فوق رأسها، وجلست في الزلاجة فوق تنورتها البيضاء كي لا يندعك الثوب. كان رأسها مزداناً بإكليل من الأزهار الورقية، وقد تدثرت بعدد من الشالات والأقمطة، وكانت منهكة جداً لكثرة ما ذرفت من الدموع، حتى أنها كانت ترى قامات الرجال التي تلوح سوداء عبر الثلج المتساقط،

وتسمع ضجيجهم، وأحاديثهم، ورنين الأجراس الصغيرة الاحتفالي وكأنها في حلم. ألصقت الخيول آذانها برؤوسها، وأشاحت بسحنها متجنبة الريح الثلجية، وحملت الريح ضجة الأحاديث والصراخ، وأغمضت العيون، وبيّضت الشوارب، واللحى والقبعات، وصار من الصعب على المحتفين أن يعرف بعضهم بعضاً في الضباب والعتمة.

ــ أفّ، يلعن أم هذا الحال! ــ برطم فاسكا وهو يحني رأسه ممسكاً بالمقود ويجلس إلى جانب العريس، ثم صاح بخشونة ولا مبالاة في وجه الريح:

ــ أيها السادة، باركوا للعريس والعروس رحلتهما!

فردّ أحدهم:

ــ اللـــه يبارك...

أنّت أجراس الخيل، وصرّت الزحّافات، وتعالى الرذاذ وتطاير من أكوام الثلج التي شقتها الزلاّجات وعصفت بها الريح، وانحرفت جانباً أعراف الخيل وذيولها...

وفي القرية، في محرس الكنيسة، كان الناس يتدفؤون في انتظار القسيس، والدخان يكاد يخنقهم. وفي الكنيسة كان الجو خانقاً أيضاً، كان خانقاً وبارداً ومظلماً ــ بسبب العاصفة، والستائر والشباك التي تغطي النوافذ الصغيرة الواطئة. لم تكن هناك شموع مضاءة سوى شمعتين في أيدي العريس والعروس وشمعة في يد القسيس المجلل بالسواد، الذي انحنى بكتفيه الكبيرتين فوق كتاب ملطخ ببقع الشمع، وراح يقرأ بسرعة عبر

نظارته. برك الماء تجمعت على الأرض ــ فقد حملت أحذية الحاضرين وصنادلهم الكثير من الثلج إلى الكنيسة، ــ وكانت الريح تلسع ظهورهم عبر الباب المفتوح. وكان القسيس ينظر عابساً، تارة إلى الباب وتارة إلى العريس والعروس، إلى قامتيهما المتوترتين، المستعدتين لكل شيء، وإلى وجهيهما الساكنين في تواضع واستسلام، وقد أضاءتهما الشموع من أسفل إلى أعلى بنور ذهبي. وهو ينطق بحكم العادة، ببضع كلمات بلهجة عاطفية ضمنها أدعية مؤثرة، من دون أن يفكرّ مطلقاً بتلك الكلمات أو بمن يتوجه بها إليهم.

"ربي المنزّه، وخالق كل الكائنات... ــ كان يتكلم بسرعة وهو يخفض صوته تارة ويرفعه تارة أخرى. ــ يا من باركت عبدك إبراهيم وزوّجته سارة... ووهبت ريبيكا لإسحق... وجمعت بين يعقوب وراحيل... امنح عبديك هذين..."

ــ أعطني الاسمين! همس بحزم دون أن يغير تعابير وجهه، قاطعاً دعاءه، مخاطباً مساعده، وحين التقط الجواب، "دينيس، أفدوتيا..."

تابع بلهجة عاطفية:

"امنح عبديك هذين دينيس وإفدوكييا، حياة آمنة وامنحهما طول العمر والحكمة... وارزقهما أبناء وأحفاداً... وامنحهما بركة السماء،.. املأ بيتهما قمحاً ونبيذاً وأشجار سرو... أعلى من أرز لبنان..."

ولكن الحاضرين، حتى إن سمعوه وفهموا ما يقول، لم يتذكروا إبراهيم أو إسحق، بل بيت سيري، ولم يفكّروا بأرز لبنان، بل بدينيسكا. أما هو نفسه، ذو الساقين القصيرتين، الذي انتعل جزمة مستعارة ومعطفاً مستعاراً، فكان مرتبكاً وخائفاً من أن يبقي على رأسه الساكن الإكليل الملكي ـ وهو إكليل نحاسي ضخم يعلوه صليب، ثُبّت عميقاً فوق أذنيه. وكانت يد مولودايا، التي بدت بالإكليل أكثر جمالاً ومواتاً، ترتجف، ونقاط الشمع الذائب تتساقط على ثنايا ثوبها الأزرق...

في المساء اشتدت العاصفة الثلجية فقاد المحتفلون الخيول بسرعة متميزة عائدين إلى بيوتهم، وراحت زوجة فانكا كراسني ذات الحنجرة القوية، الواقفة في الزلاجة الأولى، ترقص كساحر شرير، ملوحة بمنديلها وهي تصرخ في وجه الريح، والرذاذ المندفع العكر، والثلج المتساقط على شفتيها كاتماً صوتها الذئبي:

لطير الحمام الأزرق
رأس ذهبية

موسكو ١٩٠٩ ــ ١٩١٠



www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١

سعر النسخة ١٤٠ ل.س أو ما يعادلها